

چهار دی نرقال
ترجمة: د. کوثر عبد السلام البحري

رحلة إلى الشرق

الجزء الرابع

رحلة إلى الشرق

چيواردي نرقال

الجزء الرابع

ترجمة: د. كوثر عبد السلام البحيري

١



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

الإخراج الفني

زهور السلام شاكِر

الوضع الاجتماعى للنساء

ظل الناس يعتقدون لمدة طويلة أن الإسلام يضع المرأة فى مكانة وضيفة للغاية بالنسبة لمكانة الرجل حين جعل منها إلى حد ما - جارية لزوجها . وتلك فكرة سرعان ما تسقط إزاء الدراسة الجادة لعادات وتقاليد الشرق . والأجدر أن نقول إن محمداً قد رفع مكانة المرأة كثيراً عما كانت عليه من قبل .

وقد أقر موسى أن نجس المرأة التى تلد بنتاً وتدخل فى العالم سبباً جديداً من أسباب الخطيئة ينبغى أن يكون أطول من تلك التى تلد مولوداً ذكراً . ويستبعد التلمود النساء من الاحتفالات الدينية ومحظر عليهن دخول المعبد . أما محمد فعلى العكس من ذلك فقد أعلن أن المرأة فخر الرجل وسمح لها بدخول المساجد وأعطاهن من أمثلة عظيمات النساء آسيا زوجة فرعون ومريم أم المسيح وابنته فاطمة . ولتسقط هنا تماماً تلك

الفكرة الأوربية التى تصور محمداً كما لو كان لا يعتقد فى وجود الروح لدى النساء ، وثمة رأى آخر مازال واسع الانتشار وهو الذى يقول بأن الأتراك يحملون بسما غاصة بالخوريات من دائمات الشباب اللالى يتجددن دوماً ، فذلك خطأ . لما الخوريات الا الزوجات بعد أن يستعدن شباهن ويتغير شكلهن فيصبحن أكثر بهاءً ، ذلك أن محمداً سوف يطلب من المولى أن يفتح جنات عدن للمؤمنين وأقاربهم وأزواجهم وأطفالهم ممن يكونون قد اتبعوا الفضيلة وسوف يقول لهم : « ادخلوا الجنة أتم وأزواجكم واستمتعوا فيها ما شئتم ! »

ومن هذا النص وغيره مما نستطيع تقديمه لابد أن نتساءل من أين وجد ذلك الحكم الخاطى المتجمد الذى مازال منتشرأ بيننا . وربما كان علينا ألا نبحت عن سبب آخر لذلك غير ذلك الذى يدل عليه أحد كتابنا القدامى^(١) إذ يقول : « إن ذلك الحكم التقليدى مبنى على دعاية أرسلها محمد لامرأة عجوز كانت تشكو له من مخاوفها حول مصيرها من الجنة لأنه قال لها « لن تدخل الجنة عجوز » . وحين رأى ما آلت اليه من يأس أضاف أن جميع النساء سوف يستعدن شباهن قبل دخول الجنة » .

ومع ذلك ، فإذا كان محمد مثل القديس بولس ، يعطى الرجل السلطة على المرأة فقد عنى ببيان أن ذلك مقابل الزامه بإطعامها وإسكانها

(١) ملاحظات تاريخية ونقدية عن الحميدية (١٧٥١) ترجمة مقدمة ترجمة معانى القرآن إلى

الإنجليزية لجورج سال (١٧٣٤) .

ونفقتها . أما الأوربي فهو على العكس من ذلك يطلب بائنة من المرأة التي يتزوجها .

أما الأرامل أو النساء غير المرتبطات بأزواج لسبب أو لآخر فلهن مثل الذي للرجل من حقوق ، فلهن حق الاكتساب والبيع والميراث . صحيح أن إرث البنت لا يبلغ إلا ثلث^(٢) إرث الابن إلا أنه قبل محمد كانت أموال الأب تقسم بين الأبناء القادرين على حمل السلاح دون غيرهم بل إن مبادئ الإسلام لا تتعارض الا قليلا مع فكرة أن تحكم المرأة . ويمكننا أن نذكر في تاريخ العرب عدداً كبيراً من السلطانات المطلقات وذلك بخلاف السيطرة الحقيقية التي تمارسها داخل سرايات السلطانات الأمهات والمحظيات .

وإن جميع النساء الأوربيات اللاتي اتبع هن الدخول إلى أى حريم مسلم يتفقن على إطرء السعادة التي تستمتع بها النساء المسلمات . وفي ذلك تقول ليدى مورجان^(٣) : « إنني مقتنعة بأن النساء في تركيا هن وحدهن اللاتي يستمتعن بحريتهن » . بل إنها ذهبت إلى حد الأسى على مصير الأزواج الذين يضطرون لإخفاء خياناتهم إلى اتخاذ وجوه حذر تزيد

(٢) واضح أن هذا خطأ فالمعروف أن الإبن يرث مثل حظ الأثنين

(٣) ليدى مورجان (١٧٨٦-١٨٥٩) كاتبة قصص ورحلات فذكرتها بصفة خاصة :

« المرأة وسيدها » (١٨٤٠) .

عن تلك التي يتخذها الأزواج لدينا . وربما لم تكن تلك الملاحظة الأخيرة صحيحة الا بالنسبة للأتراك الذين يتزوجون من امرأة من أسرة كبيرة . وتلاحظ ليدى مورجان بحق أن تعدد الزوجات - الذي لم يفعل محمد سوى أن قبل مبدؤه - هو أقل ندرة في الشرق مما هو في أوروبا حيث يوجد بصور أخرى . لا بد إذن من العدول تماماً عن فكرة هذه الأحرمة (جمع حريم) التي صورها كاتب « الخطابات الفارسية »^(٤) حيث كانت النساء اللاتي لم يرين الرجال في حياتهن يضطرون إلى استلطاف أوزبك للطفه معهن رغم ثقله .

ويقودنا ذلك إلى الحديث عن عقاب النساء الزانيات . ويعتقد بصفة عامة أن للزوج الحق في اللجوء إلى العدالة والقذف بزوجه إلى البحر في كيس من الجلد يضع فيه معها ثعبانا وقطة . وإذا كان هذا اللون من التعذيب قد حدث في بعض الأحيان فلم يصدر الأمر به إلا من بعض السلاطين والباشوات من ذوى النفوذ ممن يستطيعون تحمل مسئولية ذلك . وقد شهدنا مثل تلك الوسائل الانتقامية في العصور الوسطى المسيحية .

ولنعلم أنه إذا قتل رجل زوجته بعد أن يفاجئها متلبسة فقلما يعاقب اللهم إلا إذا كانت الزوجة من أسرة كبيرة . ولكن الأمر كما يحدث لدينا

(٤) مونتسكيو .

حيث يرى القضاة عادة القاتل في مثل هذه الظروف . وإلا فلا بد له من إحضار أربعة من الشهود الذين إذا أخطئوا أو اتهموا بالباطل يتحمل كل منهم ثمانين جلدة . أما الزوجة وشريكها المقران تماماً بجرميتها فينتلئ كل منهما مائة جلدة بحضور عدد من المؤمنين . ومما يذكر أن الإمام المتزوجات لا يتلقين الا خمسين جلدة بمقتضى فكرة جميلة للمشرع تقضى بأن تكون عقوبة العبيد نصف عقوبة الأحرار لأن العبودية لم تعطهم إلا نصف متاع الحياة .

كل ذلك مذكور في القرآن . صحيح أن كثيراً مما ذكر في القرآن مذكور في الإنجيل ، وأن ذوى النفوذ يفسرون ويعدلون حسب إرادتهم . إلا أن الإنجيل لم يصدر أحكاماً متعلقة بالعبودية ، ودون أن نتحدث عن المستعمرات الأوروبية فقد كان للشعوب المسيحية عبيد في الشرق كما كان للأتراك . وقد ألغى باى تونس منذ قليل العبودية في ولاياته دون أن يكون بذلك قد ارتكب خرقاً للقانون الإسلامى .

المسألة إذن لا تعدو كونها مسألة وقت . ولكن أين هو الرحالة الذى لم تدركه الدهشة إذ لمس رقة العبودية الشرقية ؟ إن العبد هو أشبه شئ بالابن المتبنى وهو جزء لا يتجزأ من الأسرة . وكثيراً ما يصبح وارثاً لسيده . وغالباً ما يعتق بعد موت سيده وتكفل له وسائل العيش . لا ينبغي أن نرى في العبودية في البلاد الإسلامية الا لونا من الامتصاص يمارسه مجتمع واثق من قوته على الشعوب الهمجية .

ومن المستحيل أن نسى تقدير الطابع الأقطاعى العسكرى
فالمؤمن الحق هو الرجل الطاهر القوى الذى ينبغي أن تكون له
بالشجاعة والفضيلة معاً . وهو أكثر تحررية من نبلاء العصور الوسطى
يمنح امتيازاته إلى كل من يعتنق دينه . وهو أكثر تسامحاً من عبراني
لأن كلا من هؤلاء لا يقبل أن تعتنق الشعوب المغلوبة ديانتهم بل
عليها قضاء مبرما . أما المسلم فيترك كلا على دينه وعاداته وتقاليده
يطلب إلا السيطرة السياسية . وما تعدد الزوجات والعبودية بالنسبة
وسائل لتجنب أضرار أكبر ، أما الدعارة ، وهى لون آخر من
العبودية ، فتفتقر كالجزام فى المجتمع الأوروبى بضرب الكرامة
ويطرد تلك المخلوقات البائسة ، اللاتي كثيرا ما تكن ضحايا لجشع
أو للبؤس من الدين وكذلك تطردهن الأخلاق من السلم الط
ترسمه . هل تود أن تسائل كذلك عن وضع اللقطاع فى مجتمعات
يشكلون تقريبا عشر السكان ؟ إن القانون المدنى يعاقبهم على ذلك
ويطردهم من الأسرة ومن الميراث . أما أبناء المسلم فكلهم يولدوا
ويقسم الميراث بينهم بالتساوى .

أما عن الحجاب الذى تلتزم به المرأة فالمعروف أن تلك
القدم تتبعها فى الشرق النساء المسيحيات من اليهود والدرو
ليست اضطرارية إلا فى المدن الكبيرة . أما النساء فى الريف أو
يخضعن لها مطلقاً ولذلك فإن القصائد الشعرية التى تتغنى بغرام

وليلي وخسرو وشيراي ، وجميل وشمبا^(٥) «كذا» وغبرهم فلا تشبر أية
إشارة إلى الحجاب ولا تعجب النساء العربيات . إن الوفاء الذي تنسم به
عواطف الحب هذه يشبهه و أغلب تفصيلات الحياة تلك التحليلات
الغرامية التي دقت لها جميع القلوب ابتداء من دافنيس وكلويه حتى بول
وفرجينى .

ولابد أن نستخلص من هذا أن الاسلام لا يصد أى شعور سام من
المشاعر التي تنسب إلى المجتمع المسيحى . فالحلقات قامت حتى الآن و
الشكل أكثر منه فى جوهر الأفكار فالإسلام لا يشكّل و الحقيقة إلألونا
من المذاهب المسيحية . وأن كثيرا من ألوان الكفر الزوتستانية ليست
أقرب إليهم من المبادئ المسيحية . وهذا صحيح والدليل على ذلك أن
ليس نمة ما يضطر المسيحية التي تتزوج من تركى الى تغيير ديانتها ، ولا يهى
القرآن المؤمنين إلا عن الزواج بالمشركات ويسمح لهم بالاقتران بأية امرأة
من أى دين مبنى على التوحيد .

(٥) ربما كان يقصد بشينه .

الحياة الخاصة فى القاهرة

إن الرجل الذى يبلغ سن الزواج فى مصر ولايتزوج إذا لم يقدم أسبابا مقبولة تضطره إلى البقاء أعزب فإن سمعته تتأثر بذلك . ولذلك فإنك تشاهد الكثير من حفلات الزواج فى هذا البلد .

وفى اليوم التالى للعرس تسيطر الزوجة على الحرم وهو جزء من المنزل منفصل عن بقية الأجزاء . ويأتى أولاد وبنات فيرقصون أمام بيت العروسين أو فى أحد أفنيته الداخلية . وفى هذا اليوم . إذا كان العريس شابا فإن الصديق الذى أحصله فى الليلة الماضية الى الحرم يأتى إلى بيته مصحوبا بأصدقاء آخرين ويصحبونه إلى الريف حيث يقضون اليوم بطوله ويسمى هذا الاحتفال «بالهروبه» . وفى بعض الأحيان ينظم العريس نفسه هذا الاحتفال ويقدم جزءا من النفقات إذا تعدت جملة المساهمات التى فرضها أصدقاؤه على أنفسهم (النقوط) . ولكى تشيع البهجة فى الحفل فكثيرا ما يستأجرون بعض الموسيقيين والراقصات . أما إذا كان العريس من طبقة دنيا فإنه يعاد إلى بيته فى موكب يتقدمه ثلاثة أو أربعة

من الموسيقيين الذين يعزفون على المزمار ويقرعون الطبول . أما الأصدقاء ومن يصحبون العريس الحديد فإنهم يحملون باقات الزهور . فإذا حدث وكانت العودة بعد غروب الشمس فإن رجلا من حاملي المشاعل يصحبونهم . وهى أشبه بعضا ذات حوض أسطوانى الشكل من الحديد يوضع فيه الحشب المشتعل وفى بعض الأحيان تحمل تلك العصا فانوسين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة فتلقى ضوءا ساطعا على مكان مرور الموكب . و تمة أشخاص آخرون يحملون المصابيح بينما يحمل أصدقاء العريس الشموع المضاءه وباقات الزهور . وإذا كان العريس ذا يسر فإنه يتخذ استعداداته بحيث تستطيع أمه أن تقم معه هو وزوجته حتى تسهر على شرف تلك الأخيرة وشرفه . ولذلك يقولون إن أم الزوج تسمى « حماه » ومعناها الحامية أو الحارسة .

وأحيانا يترك الزوج زوجته لدى أمها ويدفع نفقات الاثنين . ويظنون أن هذا التصرف لابد أن يدعو أم الزوجة إلى السهر على سلوك ابنتها على أقل تقدير لكى تحتفظ بالنفقة التى يدفعها لها الزوج وتمنع هذا الأخير من البحث عن حجة للطلاق . ولكن كثيرا ما يخيب هذا الأمل .

وعلى العموم فإن الرجل الحذر الذى يتزوج بخشى كثيرا لقاءات زوجته بجمانه ويحاول انتزاع كل فرصة تتيج للحماة زؤية ابنتها وهذه الفكرة لدى الزوج متغلغلة الجدور فى نفسه بحيث يعتقد البعض أنه من الأضمن البحث عن زوجة لا أم لها ولاقرية مقربة : بل إنه من المحظور على بعض

النساء استقبال أية صديقة من جنسهن فيما عدا قريبات الزوج . ومع ذلك فإن هذا القيد كثيرا ما لا يلتفت إليه .

وكما ذكرنا فيما سلف فإن النساء يقمن في الحرم وهو جزء منفصل عن منازل المصريين . ولكن بصفة عامة فإن من يحملن لقب « زوجات » لا يعتبرن سجينات . فلهن عادة حرية الخروج والقيام بالزيارات ويستطعن استقبال النساء من صديقاتهن ما شاءت لهن رغباتهن ذلك . والحوارى فقط هن اللاتى لا يتمتعن بتلك الحرية بسبب حالة العبودية التى تجعلهن خاضعات للزوجات والسادة .

ومن أهم اهتمامات السيد وهو يعد الأجنحة المنفصلة التى سوف تصبح سكنا لزوجاته هو إيجاد الوسائل التى تكفل عدم رؤية أحد لهن سواء من الخدم الذكور أو غيرهم من الرجال دون أن يكن محجبات حسب تعاليم الدين . ويضم القرآن هذا الصدد من النصوص ما يوجب ويحتم على كل مسلمة زوجة أو غير زوجة أن تخفى عن الرجال كل ما يثير الفتنة ويلفت إليها الأنظار ، ومن ذلك قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ »

الآية ٥٩ : الأحزاب

وقوله تعالى في سورة النور : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها وليضربن

نخمرهن على جيوسهن ولا يبدین زیتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء
بعولتهن أو أبنائهن إلى آخر آية ٣١ من سورة النور .

وهذه الفقرة الأخيرة تشير إلى عادة كانت لدى الشابات العربيات
في زمن النبی بأن یضربن الحلی اللآلی كن یلبسها عادة فوق عرقوب القدم
الواحدة في الأخرى . وكثيرات من النساء المصريات تحتفظن بهذا النوع
من الحلی .

ولكى نفسر الفقرة السابقة من القرآن التي بدون هذا التفسير قد
تؤدي إلى فهم خاطئ* للعادات الحديثة بخصوص استقبال بعض
الأشخاص في الحرم وعدم استقبالهم لابد هنا من ذكر ملاحظتين هامتين
استقيناها من بعض مشاهير المعلقين^(٦) .

أولى الملاحظتين تتعلق بعبارة : « أو زوجات هؤلاء » ومعنى هذا أن
هؤلاء النسوة يجب أن يكن على دين محمد ذلك أنهم يعتبرون أنه من غير
المشروع . أو على الأقل غير المناسب أن تتكشف المرأة أمام من يسمونها
بالكافرة ذلك لأنهم يعتقدون أن هذه الأخيرة لن تتورع عن وصفها
للرجال . ويعتقد آخرون أن النساء الأجنيات بصفة عامة يجب
استبعادهن من الحرم إلا أن علماء الدين لم يتفقوا على هذه النقطة .
ويحدث دائما في مصر ، وربما في غيرها من البلاد التي يدعى فيها

(٦) لنأخذ كل ما يذكر جبرار لنا على سبيل للدعابة والطراقة فهو أقرب إلى التهريف بحيث لا نجد
ما يدعو لاجتهاد أنفسنا في ضحضه .

للإسلام ، ألا يكون ثمة احراج في استقبال أية امرأة في الحرم سواء أكانت حرة أم خادمة أم عبدة مسيحية كانت أم يهودية أم مسلمة أم مشركة .

أما فيما يختص بالنصف الثاني من الفقرة المشار إليها والتي تتحدث عن العبيد فإننا نقرأ في القرآن ما يتضمن معنى ما يلي : « يستثنى من ذلك العبيد من الجنسين ، ويعتقد أن الخدم من غير العبيد داخلون في الاستثناء وكذلك من ينتمون إلى بلاد أجنبية »^(٧) واستناداً إلى تلك الحجة يذكر أن « محمداً قد أهدى ابنته فاطمة يوماً عبداً من الرجال : فلما رآته هذه يدخل عليها ولم تكن تضع الاحجابا رقيقا كان عليها أن تختار بين ضرورة ترك رأسها مكشوفاً أو كشف الجزء الأسفل من جسمها ، فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أيها ، الذي شاهد حيرتها فقال لها أن ليس عليها أى حرج ما دام ليس في حضرتها سوى أيها وأحد العبيد » .

ورعما كانت تلك العادة سائدة لدى العرب في الصحراء ولكن في مصر لا يرى أبداً أى عبد بالغ يدخل حريم رجل ذى جاه سواء أكان فرداً منه أم لا . أما عبد المرأة من الذكور فقد يحصل على مثل هذا الامتياز لأنه مادام عبداً لا يمكن أن يصبح زوجاً لها .

(٧) لسنا في حاجة إلى إيضاح أن كل ما يقول جبرار من أمثال تلك الملاحظات هراء لا يدل إلا على ما كان في القرب من فهم خاطيء للإسلام وعاداته .

وبدهش إذ نلاحظ أن في تلك الفقرة من القرآن التي نتحدث عنها لم يأت ذكر للأعمام والأخوال من حق في رؤية بنات إخوانهم وأخواتهم بدون حجاب . ولكن يعتقد أن ذلك لكى لا يقمن بوصف بنات العم والحال لأبنائهن وصفا مغرياً . ويعبر المصريون أن وصف ملامح المرأة وصفا تحليليا من الأمور غير اللائقة للغاية وأنه لأكثر لياقة أن يقول المرء إنها ذات عينيْن جميلتيْن وأنف يوناني وفم رقيق الخ .. وحين يكون الحديث مع شخص من جنس الذكور يحظر عليه القانون رؤيتها . ولكن في الإمكان وصفها بعبارات عامة بأن يقال إنها لطيفة وأنها تزين بالكحل والحناء .(٨)

وعلى العموم فإن الرجل لا يستطيع أن يرى بدون حجاب إلا زوجاته الشرعيات وجارياته من النساء أو النساء اللاتي يحرم عليه القانون الزواج منهن بسبب قربتهن المقرّبة إليه وصلة الدم أو لأنهن كن أمهات مريضات له أو لأبنائه أو مقربات من مرضعته . والحجاب يمت إلى العصور الموحلة في القدم .

ويعتقد في مصر أن الأجدد بالمرأة أن تغطي الجزء الأعلى او الخلفي من الرأس من أن تغطي وجهها ولكن الأهم من ذلك أن تغطي وجهها أكثر من الأجزاء الأخرى من جسمها : وعلى سبيل المثال فإن المرأة التي

(٨) يقول جبرار في تفسير الكحل أنه قطرة معطرة تظلل الأجفان العليا والسفلى ويحصلون عليها بحرق قشر اللوز المضاف إليه بعض الأعشاب ، ويقول في الحناء إنها مسحوق نباتي تصبغ به النساء أجزاء من أيديهن وأقدامهن .

لا يمكن إقناعها بتزع الخمار أمام الرجال ، لا نجد أدنى حرج من تعرية صدرها أو فخذها بالكامل تقريبا . (٩)

ومعظم نساء الشعب يظهرن أمام الناس عاريات الوجه ، ولكن يقال إن الحاجة تضطرهن إلى ذلك لأنهن لا يملكن ما يشتريهن به البرقع . وإذا فاجأ أحدهم امرأة محترمة بدون خمار فإنها تهرع إلى تغطية وجهها بطرحتها (أى الخمار الذى تغطى به رأسها) وتصبح قائلة :

« يا للتعاسة ! يا للشقاء الأعظم ! » ومع ذلك فقد لاحظنا أن التأنق يدفعهن أحيانا إلى إظهار وجوههن للرجال ولكن كما لو كان ذلك يحدث بمحض الصدفة . ومن أعلى أسطح منازلهن ومن خلال الشرفات المغطاة يبدو عليهن أنهن يتابعن (دون انقطاع ما يدور حولهن) ولكن كثيرا ما يكشفن عن وجوههن مع النية المبيتة بأن يراها الرجال .

والبيوت فى القاهرة عادة صغيرة والأجنحة الخاصة بالرجال لا توجد لذلك فى الطابق الأرضى . ولذا فعليهم أن يصعدوا إلى الطابق الأول حيث توجد عادة أجنحة النساء ولكن لتجنب اللقاءات التى يسميها المصريون غير مرغوب فيها والتى يراها الفرنسيون مرغوبا فيها ، فإن الرجال وهم يصعدون السلم لا يكفون عن الصياح بصوت عال جداً : « دستور ! (أى عن إذنك) ياستى ! » أو إصدار غير ذلك من صيحات

(٩) يكثر جبرار من هذه التفصيلات الخاطئة على سبيل الدعابة ولإثارة إهتمام القارئ الفرنسى .

التمعجب لكي تستطيع النساء الانسحاب أو على الأقل اسدال خمرهن ، وهذا ما يفعلن حين يسدلن الحمار على الوجه بحيث لا يتركن مكشوفاً إلا عينا واحدة .

ويبالغ المسلمون في طابع تقديسهم لكل ما يتعلق بالنساء بحيث انه من المحظور على الرجال دخول مدافن بعضهن . وعلى سبيل المثال فإنهم لا يستطيعون دخول مدافن المدينة ، فيما يسمح للنساء بزيارة جميع تلك المقابر^(١٠) . ولا يحدث أبداً أن يدفن رجل وامرأة في مقبرة واحدة إلا إذا أقيم حائط عازل بين النعشين^(١١)

وليس جميع المسلمين يمثل تلك الصراحة فيما يختص بالنساء ، فإن مسترلين^(١٢) Willian lane كاتب تلك التفاصيل الطريفة يقول إن أحد أصدقائه من المسلمين قد أراه أمه ، التي تبلغ الخمسين من عمرها ولكنها كانت لأناقتها ونضارتها تبدو كما لو كانت لم تتخط الأربعين . وفي ذلك يقول : «إنها تقدمت حتى الباب الخارجي للحريم وهو الحد الأقصى بالنسبة للزوار ، وجلست خلف باب الغرفة دون أن تقبل الدخول إليها . وكما لو كان الأمر محض صدفة تركت السيدة الحمار ينسدل وتركت وجهها

(١٠) قول خاطيء من أصله والعكس هو الصحيح وإن كان ذلك يمت للعادات المعمول بها لا لتعاليم دينية .

(١١) لا يدفن المسلم في نعش وجرار يتكلم حسب تقاليد مجتمعه هو .

(١٢) جزء كبير من هذا الملحق مترجم من ويليام لين أو مستقى منه وهذا ما يقول جبرار نفسه .

يظهر مكشوها . وكانت عيناها يغطيها الكحل ولم تحاول إخفاء ما تلبسه من ماس ورير حد وغير ذلك من الحلى بل على العكس كان يبدو عليها أنها تريد إظهارها فإن هذا المسلم لم يشأ أبداً أن يريى زوجته مع أنه تركى أتحدث معها في حضرته على زاوية جدار بالقرب من الشرفة في مكان لا أستطيع رؤيتها منه ، ومهما يكن من أمر فإن النساء في مصر أقل تحفظاً منهن في الأجزاء الأخرى من الامراطورية العمانية ؛ وليس من النادر رؤية نساء يمزحن في الأماكن العامة مع الرجال ولكن ذلك لا يحدث إلا في طبقات الشعب . ويعتقد بناء على ذلك أن نساء الطبقة المتوسطة والأعلى من ذلك كثيراً ما يشعرون بأهن تعيسات ويكرهن العزلة المفروضة عليهن إلا أن الأمر على العكس من ذلك تماماً فإن المصرية المرتبطة بزوجها إذا تمتعت بمزيد من الحرية فتظن أنه يراقبها بشدة . وهذا ما ينبغي له أن يفعل حسب العرف السائد ، فإن زوجها قد فترحه بالنسبة لها وكثيرا ما تشعر بالحسد نحو النساء المحاطات بحراسة أكثر شدة وصرامة .

ورغم أن القانون يسمح للمصريين بالزواج من أربع خلافاً ما ينفون من محظبات من الحوارى فعادة ما تراهم لا يتحدثون إلا زوجة واحدة أو محظية واحدة من الحوارى . ومع ذلك فإن الرجل حين يكتب بامتلاك امرأة واحدة يستطيع أن يغيرها ما دعتة نزواته إلى ذلك ومن النادر أن يجد في القاهرة أناسا لم يطلقوا على الأقل مرة واحدة إذا كان قد أمضى في الزوجية مدة طويلة . فالزوج يستطيع حين يروق له ذلك أن يقول لزوجته : « أنت طالق » سواء أكانت تلك الرغبة التي تساوره تتمشى مع

العقل أم لا . وبعد أن يطق هذا القرار ينبغي للزوجة أن تعادر منزل الروح وتبحث عن ملاذ لدى أقاربها . والحق الممنوح للرجال بالطلاق بالطلاق غير العادل هو أكبر مصدر للقلق بالنسبة للنساء ، وهذا القلق يتعدى أى لون آخر من ألوان العذاب حين تكون من نتائجها المحر والبؤس . ونعمة نساء أخريات يجدن . على العكس من ذلك . في الطلاق وسيلة لتحسين أحوالهن فهن يفكرن بطريقة مخالفة ويركزن أمانيهن في الحصول على الطلاق .

ويستطيع الرجل أن يطلق المرأة الواحدة مرتين ثم يستعيدها بعد ذلك دون أية مراسم . إلا أنه في المرة الثالثة لا يستطيع أن يستردها شرعا إلا إذا عقدت أثناء فترة الطلاق . زواجها على آخر وإذا حدث طلاق من هذا الزواج الأخير .

ويقول مسيو لين : « يستطيع أن أذكر استنادا لما أقول حالة قام بها أحد أصدقائي بدور الشاهد . فقد كان ذات يوم في مقهى مع رجلين آخرين وكان يبدو على أحدهما أنه مقتاظ من زوجته التي نشب بينها وبينه خلاف خاص بحياتها المتزلية . وبعد أن شرح الزوج الحائق ما يضايقه أرسل في طلب زوجته وبمجرد أن وصلت قال لها : أنت طالق ثلاثاً ! ثم توجه بكلام إلى الرجلين الآخرين وقال ، وأنتما أيها الأخوان شاهدان على ذلك . ومع ذلك فقد ندم بعد ذلك على اندفاعه وأراد استرجاع زوجته إلا أن هذه رفضت ودعته إلى شرع الله . وعرضت الدعوى على القاضي وكانت الزوجة هي الشاكية والمدافع هو الزوج . وقالت الزوجة إن الزوج

نطق بيمين الطلاق منها ثلاثا وأنه الآن يريد استرجاعها والعيش معها كزوجة مخالفاً بذلك القانون وبالتالي تكون حياتها حراما . وأنكر المدافع أنه نطق بالكلمات الشرعية التي تتضمن الطلاق . فقال القاضي للشاكية:- هل لديك شهود؟ فقالت : نعم هاهما شاهدان . وكان الشاهدان هما الرجلين اللذين كانا في المقهى حين نطق بالعبارة التي تشكل الطلاق . ودعى الرجلان للمثول أمام القاضي والادلاء بشهادتهما . فأعلنا ان هذا الرجل في الواقع قد نطق بكلمات الطلاق ثلاثا من هذه المرأة وأن ذلك قد سم بحضورهما . وحينئذ أعترف الزوج من جابه أنه في الواقع قد نطق بيمين الطلاق ولكن كاد ذلك خاصاً بزوجة أخرى من زوجاته . وأكدت الشاكية أن ذلك مستحيل مادام المدافع ليس له إلا زوجة واحدة . وقد رد القاضي على ذلك بأنه ليس من المستطاع بالسبب لها أن تعرف ذلك . لم استدار ناحية الشاهدين وسألها عن اسم المرأة التي طلقت محضورهما فأعلنا أنها لا يعرفها ، وسألها بعد ذلك عن شخصية المرأة فقال الشاهدان إنها لا يستطيعان تأكيد أى شئ في هذا الصدد ما داما لم يرياها إلا محجبة . وإزاء التسك الذي بدا محيطا بالقضية فقد وجد القاضي أنه من العدالة أن يرفض شكوى المرأة ويأمرها بالعودة إلى بيت الزوجية . وكان بمسئطاعها أن تطلب إحضار المرأة التي نطق بيمين الطلاق منها في المقهى إلا أن ذلك ما كان ليخدمها كثيراً إذ أنه كان في استطاعته بسهولة إحضار امرأة لتلعب هذا الدور إذ أن تقديم عقد الزواج في مصر ليس ضروريا حيث تم معظم الزيجات دون عقود مكتوبة بل وكثيرا ما تم بدون شهود .

وكثيرا ما يحدث للرجل الذى ينطق بعبارة الطلاق للمرة الثالثة من زوجته والذى يريد أن يستردها برغبتها ، لا سيما حين يكون الطلاق قد نطق به دون حضور شهود ، كثيرا ما يحدث ألا يراعى هذا الرجل القانون الذى يحرم عليه استعادتها ما لم تتزوج بغيره فى فترة الطلاق .

والرجال الذين يراعون القانون لتعلقهم بالدين يجدون الوسيلة للتمشى معه وذلك بإيجاد رجل يتزوج المرأة المطلقة ويتعهد بطلاقها فى اليوم التالى للزواج وردھا إلى زوجها السابق فتصبح زوجة له من جديد بمقتضى عقد جديد رغم أن هذا التصرف يعتبر مناقضا للقانون تماما . وفى مثل هذه الحالة تستطيع المرأة إذا كانت بالغة الرشد أن ترفض الموافقة ، أما إذا كانت قاصرا فإن والدها أو الوصى عليها يستطيع تزويجها لمن يحده صالحا .

وحين يريد الرجل استرجاع زوجته المطلقة طبقا للعرف الذى يستلزم حدوث زواج وسيط قبل أن يستطيع استرجاعها فيحدث عادة أن يزوجه إلى رجل فقير ودميم جدا وأحيانا لأعمى . وهذا الرجل يسمى مستحل (محلل) .

ونستطيع أن ندرك أن السهولة التى يتم بها الطلاق لا بد أن تكون ذات تأثيرات ضارة بمعنويات الحسنيين . ونجد فى مصر رجالا تزوجوا عشرين أو ثلاثين امرأة فى مدى عشر سنوات ، وليس من النادر أن نجد نساء شابات كن على التوالى زوجات شرعيات لاثنى عشر رجلا . ونعمة رجال يتزوجون كل شهر بامرأة . وهذا المسلك يمكن أن يوجد بين

أشخاص محدودى النزوة . ويستطيع الرجل أن يختار وهو يمر بشوارع القاهرة أرملة شابة جميلة أو مطلقة من الطبقة الدنيا تقبل أن تزوج بالرجل الذى يصادفها فى الطريق مقابل نفقة تبلى تقريبا عشرين فرنكا وخمسين سنتيمًا . وحين يطلقها لا يضطر إلا لدفع ضعف هذا المبلغ لنفقة العدة التى لابد لها أن تكملها . ومع ذلك فلا بد من القول بأن مثل هذا المسلك يعتر عادة غير أخلاقى وأن قليلا من الآباء من الطبقة المتوسطة أو الطبقات العليا يقبل أن يعطى ابنته إلى رجل عرف عنه أنه كثر الطلاق .

وتعدد الزوجات الذى يؤثر هو الآخر بطريقة ضارة للغاية على معنويات الأزواج ، والذى لا يتقبله الناس إلا لأنه يمنع من المسالك اللا أخلاقية أكر مما يتسبب فيها ، أكر ندرة بين الكراء والطبقة الوسطى منه فى الطبقة السفلى رغم أنه ليس كثير الحدوث حتى فى تلك الطبقة الأخيرة . ويحدث أن يسمح الرجل الفقير لنفسه بزوجتين أو أكثر تستطيع كل واحدة مهن مما تقوم به من عمل أن تكفل بمقتها . إلا أن معظم الناس من الطبقات المتوسطة والعليا يعدلون عن هذه الطريقة لتكاليفها والمضايقات التى تسببها من كل نوع . ويحدث للرجل الذى تكون فى حوزته امرأة عاقر معها بحيث لا يستطيع طلاقها أن يضطر إلى الزواج من زوجة ثانية على أمل واحد هو أن يرزق بأطفال . ويستطيع أن يتزوج حتى أربع زوجات لهذا السبب نفسه إلا أنه عادة يكون عدم الثبات على المشاعر هو العاطفة الرئيسية التى تدفع أولئك الذين يستسلمون لتعدد الزوجات أو للطلاق المتكرر . وقلة من الرجال هم الذين مارسون هذا

الحق ولا تصادف إلا رجلاً من كل عشرين رجلاً يكون له زوجتان شرعيتان .

وحين يرغب الرجل المتزوج في الزواج من ثانية سواء أكانت امرأة أم بنتاً فإن والد هذه الأخيرة أو المرأة نفسها يرفض الموافقة على هذا الزواج إلا إذا طلق مسبقاً زوجته الأولى . ومن هذا يتبين لنا أن النساء عموماً لا يوافقن على تعدد الزوجات . أما الرجال الأغنياء ومحدودو الدخل بل حتى الرجال من الطبقة الدنيا فيفردون لكل زوجة من زوجاتهم منزلاً خاصاً . وتحصل الزوجة ، أو تستطيع أن تستلزم ذلك من الزوج ، على وصف مفصل للمسكن الذي يفرده لها إما في بيت مستقل أو في شقة لا بد أن تحتوى على غرفة للنوم والمعيشة ومطبخ والملاحقات . ولا بد أن تكون تلك الشقة مستقلة أو يمكن أن تكون مستقلة أو مغلقة لاتصل بأية شقة من شقق البيت .

والزوجة الثانية كما قلنا من قبل ، تسمى ضرة (وهذه الكلمة تعني البغواء وربما كانت تستعمل لغرض تهكمي) . ويكرر الحديث عن المشاجرات اللاتي يتسببن فيها وهو أمر يمكن فهمه ، وذلك أنه حين تقسم امرأتان اهتمامات رجل واحد وعواطفه فمن النادر أن تعيشا معاً في وفاق . وكثيراً ما ينشب الشجار كذلك بين الزوجات والحواري المحظيات اللاتي يعشن تحت سقف واحد . ويفرض القانون على الرجال ممن لهم زوجتان أو أكثر أن يكونوا عادلين تماماً بهن . إلا أن المراعاة الدقيقة لهذا القانون نادرة .

وإذا كانت الست الكبيرة عاقرا وولدت زوجة أخرى أو جارية طفلا لرب الأسرة فكثيرا ما تصبح أم الطفل المفضلة لدى الرجل فتحترق الست الكبيرة كما حدث حين احتقرت هاجر زوجة ابراهيم . وحينئذ كثيرا ما يحدث أن تفقد الزوجة الأولى مكائنها وامتيازاتها وتصبح الأخرى هي الست الكبيرة . ويجلب لها لقبها كزوجة مفضلة للسيد ، من قبل غريمها أو غريماتها وكذلك من قبل جميع نساء الحرم والنساء اللاتي يحصرن للزبارة ، جميع المظاهر الخارجية للاحترام الذي كانت تتمتع به تلك التي حلت هي محلها . ولكن ليس من النادر أن يقسد السم هذا الاحترام ، وحين يعطى الرجل الأمفضلية لزوجته ثانية فكثيرا ما يترتب على ذلك أن تعلن الأولى ناشزا ، سواء من قبل زوجها أو بناء على طلب تقدمه هي للقاضي ، ومع ذلك ثمة عدد كبير من النساء المهجورات يتصرفن بخضوع تام تجاه أزواجهن وروح الود تجاه الزوجة المفضلة .

وبعض النساء هن حاريات يعتبرن ملكا خاصا لمن اشترينهن أو تلقينهن هدية قبل رواجهن . وهؤلاء الحاريات لا يصبحن محظيات للزوج إلا بموافقة سيدتهن . وهذه الموافقة يحدث أحيانا ، ولكن في أحوال نادرة . أن يحصل عليها ، وثمة نساء لا يسمحن لجارياتهن حتى بمجرد الظهور بدون خمار أمام أزواجهن . وإذا أصبحت إحدى الجاريات محظية للزوج بدون موافقة زوجته وولدت له طفلا يصبح هذا الطفل عبداً إلا إذا بيعت الحارية أو منحت للأب قبل مولد الطفل .

والجاريات البيضاوات يملكن عادة أغنياء الأتراك ، والجاريات

المحظيات لا يمكن أن يكن مشتركات ، فهن يأتين عادة من الحبشة ثم يمتلكهن أثرياء المصريين وأبناء الطبقة المتوسطة . ولون بشرتهن بني قاسم أو برونزي . وتدل ملاحظتهم على أنهم من جنس وسط بين الزنوج والبيض إلا أنهم يختلفون اختلافاً بيناً عن هذين الجنسين . وهن أنفسهن يعتقدن أن الفارق طفيف بين جنسهن والجنس الأبيض ولذا فإنهن يرفضن القيام بأعمال الخادومات وأن يخضعن لزوجات أسيادهن .

أما الزنجيات فهن بدورهن يرفضن خدمة الحبشيات إلا أنهم على استعداد دائم لخدمة النساء البيضات . ومعظم الحبشيات لا يقدمن رأساً من الحبشة ولكن من بلاد الغالا^(١٣) المجاورة ، وهن عادة جميلات . والسعر المتوسط لهذه الفتيات يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٧٥ فرنكا إذا كانت جميلة نوعاً ما ومنذ بضع سنوات بلغ سعرهن أكثر من الضعف .

والباحثون عن المتعة في مصر يقولون كثيراً على هؤلاء النسوة إلا أنهم من الرقة بحيث لا يعيشن طويلاً وتمتن كلهن تقريباً من الذبول . وسعر الجارية البيضاء يبلغ عادة ثلاثة أضعاف حتى عشرة أضعاف سعر الجارية الحبشية ، في حين أن سعر الزنجية لا يبلغ إلا النصف أو الثلث . إلا أن هذا السعر يرتفع بشكل محسوس إذا كانت طاهرة ماهرة . والزنجيات يستخدمن عادة كخادومات .

(١٣) شعب من الجنس النور يعيش جنوب أثيوبيا .

ويعتقد أغلبية العبيد الدين الإسلامى إلا أنهم نادراً ما يكونون على شئ من الثقافة بالسعة لتعاليم دينهم الجديد أو نظرياته . ومعظم الحوارى البيض كى فى الأزمنة الماضية فى مصر من اليونانيات وكن ضمن أسرى الجيش التركى والمصرى من الشعب اليونانى التعس تحت إمرة ابراهيم باشا . وهؤلاء التعيسات ، وكان من بينهن أطفال لا يكدن يستطعن المشى قد تم بيعهن فى مصر . وتبين اتحاد الطبقات العليا فى هذا البلد إلى الفقر من قلة الطلب على شراء الحوارى البيض . وقد استقدم بعضهم من بلاد الشراكسة وجورجيا بعد أن لقن فى القسطنطينية شيئاً من الثقافة الأولية وتعلمن الموسيقى وبعض الفنون الترفيية . ولما كانت الحوارى البيض هن وحدهن رفيقات الأتراك من الطبقة العليا وأحياناً ما يصبحن زوجات لهم ، ولما كانت مكاتهن فى مصر تفوق مكانة نساء مصر من الأحرار فإن مكاتهن لدى الرأى العام أكثر ارتفاعاً من هؤلاء النساء وتلبس هذه الحوارى أغلى الثياب ، والمدايا من المجوهرات القيعة تتدفق عليهن ويعشن فى ترف وبجوحة من العيش بحيث إنه إذا لم تفرض عليهن العبودية فإن وضعهن يبدو سعيداً للغاية . والدليل على ذلك فى رفض كثير من النساء اليونانيات اللاتى كن يعشن فى الحرم فى مصر ، رفض حين كفت الحرب مع اليونان ، الحرية التى عرضت عليهن . ذلك أننا لا يمكن أن نفترض أنهن جميعاً كن يجهلن الوضع الاجتماعى لآبائهن وأهن خفن أن يتعرضن للفاقة إذا لحق بهن ، إلا أنه لا مجال للشك فى أن بعضهن سعيدات على الأقل سعادة مؤقتة . ومع ذلك فثمة ميل إلى الاعتقاد بأن معظمهن قدر هن أن يكن فى خدمة زميلات هن فى الأمر كن أسعد حظاً أو فى خدمة

السيدات التركيات أو أن يضطرون إلى تحمل دعايات بعض الأثرياء من الشيوخ أو الرجال ممن أنهمك الإفراط في كل شيء أجسامهم وأذهانهم ،
فهن لسن سعيدات إذ يتعرضن لإعادة البيع أو للعتق دون أن تكون لديهن وسيلة للعيش بعد حياة أسيادهن أو سيداتهن ، وأن يتنقلن هكذا إلى أبد حياة جديدة إذا لم يرزقن بأطفال أو يضطرن إلى الزواج من صناع بسطاء لا يستطيعون أن يوفروا لهن اليسر الذي اعتدن عليه .

والحاريات في بيوت أبناء الطبقة المتوسطة في مصر يعاملن عادة معاملة أفضل من تلك التي تتلقاها من يعشن في حريم الأغنياء . فإذا كن محظيات . وهذا أمر لا يمكن تجنبه في معظم الأحوال . فلن يكون لهن غريعات يعكرون صفو حياتهن . وإذا كن خادمات فإن الخدمة بالنسبة لهن تكون لطيفة وحرتهن أقل قيوداً . وإذا كان ثمة ارتباط عاطفي متبادل بين المحظية وسيدها فإن مكانتها تصبح أسعد حالاً من الزوجة لأن هذه الأخيرة قد يطلقها زوجها . ففي لحظة من لحظات الكدر يستطيع أن ينطق بالطلاق البائن عليها ويغرقها هكذا في البؤس إلا أنه من النادر أن يرد أحدهم جارية قبل أن يجزل لها العطاء لكفاية حاجتها حتى لا تحيق بها الحسارة من التغير إذا لم يكن قد أفسدها التدليل والترف الزائد .

وحين يسرح السيد جاريته فإنه عادة يعتقها ويمنحها نفقة ويزوجها برجل شريف أو يهديها إلى أحد أصدقائه . وبصفة عامة لا يستحب بيع الجارية التي تكون قد خدمت مدة طويلة . وحين ترزق الجارية بطفل من سيدها ويعترف هذا الأخير به فإن هاهنا المرأة لا يمكن بيعها ولا إهداؤها

وتصبح حرة لدى موت سيدها . وكثيرا ما يحدث ممحرد ولادة الطفل واعتراف السيد به أن تعتق الحارية وتصبح زوجة له . وذلك أما إذا أصبحت حرة لا يمكن أن يستبقها في بيته دون زواج شرعى .

والجاريات سعرهن عادة أعلى من العبيد من الذكور . وسعر العبيد ممن لم يصابوا بالجدرى أعلى من سعر أولئك الذين أصيبوا به . ومنع الشارى ثلاثة أيام يضع فيها العبد تحت التجربة . وفي تلك الأثناء تظل الفتاة المشتراة في بيت الشارى أو أحد أصدقائه ، وتكلف نساء الحريم بتقديم تقرير عن القادمة الجديدة : ويعتبر الشخير والصر على الأسنان والكلام أثناء النوم من الأسباب الكافية لفرض البيعة وإعادتها الى البائع . وتلبس الجوارى نفس ما تلبس النساء المصريات .

أما الفتيات أو النسوة المصريات ممن يضطرون إلى الخدمة فيكلفن بأحط الأعمال . وفي حضرة أسيادهن يحتفظن عادة بالحمار . وحين يكرن مشغولات بعمل ما من أعمال الخدمة فلاهن يضعن الحمار بحيث لا يكشف إلا عن أعينهن ويتركن بدا واحدة من أيديهن تتحرك بحرية .

وحين يستقبل سيد المنزل ضيفا غريبا في إحدى غرف الحريم (وحيثئذ تنسحب نساء أسرته الى غرفة أخرى) فإن النساء الأخريات يقمن على خدمته ولكن مع احتفاظهن بالحمار .

تلك هى الظروف الاجتماعية لمختلف طبقات الحريم وينبغى لنا الآن أن نلقى نظرة على عادات ومشاغل شاغللات الحريم .

إن الزوجات والحاربات يستبعدن عادة من امتياز الحلوس إلى المائدة مع السيد أو أسرته . ويمكن دعوتهن لخدمته حين يتغدى أو يتعشى أو حتى حين يدخل إلى الحرم ليدخن أو يشرب القهوة . وحينئذ كثيرا ما يقمن بدور الخادومات فيملأن ويشعلن غليونه ويعددن له القهوة ويعددن الأصناف التي يريد أن يأكلها لاسيما حين يكون الأمر يتعلق بأصناف مخصوصة أو غير مألوفة . والصف الذي يوصيك به مضيفك ويقول إن زوجته قد أعدته هو عادة طيب للغاية . والنساء من الطبقات العليا والمتوسطة يقمن بدراسة خاصة يتعلمن منها كيف يحصلن على إعجاب أزواجهن ويسحرهم بمداعبات ونواذر لاحد لها . وإن المرء ليلاحظ تأنفهن وغندرتن حتى في مشيتهن . وحين يخرجن فهن يعرفن كيف يمنحن أجسامهن حركة تموجية خاصة يسميها المصريون « غنجاً » وهن دائما متحفظات في حضرة الزوج ولذلك فإيهن يفضلن أن تكون زيارته النهارية قليلة وألا تطول تلك الزيارات . وفي غيبته فإن مرجهن يبدو متدفقا فياضا .

وغذاء النساء رغم تشابهه مع غذاء الرجال الا أنه أكثر نقشفا . فهن يتناولن وجباتهن بنفس طريقة الرجال . ويسمح لكثير من النساء بالتدخين ، حتى من نساء أعلى الطبقات إذ أن رائحة الطباقي المصري الراقى معطرة للغاية . وغلايين النساء أرفع من غلايين الرجال وأكثر زخرفا . وطرف الغليون يكون أحيانا من المرجان بدلا من أن يكون من العنبر . وتستعمل النساء المسك وغيره من العطور ويستعملن كذلك الدهون

التجملية . وكثرا ما يعدد توليفات يأكلها أو يتربها بقصد اكتساب قدرما من الامتلاء . وعلى النقيض من ذوق الإفريقيين أو الشعوب الشرقية عامة فإن المصريين ليسوا شديدي الاعجاب بالنساء المفرطات و السمسة . ذلك أنه في أناشيد الحب لديهم يتحدث الشعراء عن محوباتهم على أنهن إنسان رشيق محيل القوام . ومن بين الأصناف التي تظن المصريات أنها كفيلة بمجعلهن أكر سممة صنف مقزز للغاية وبعد أساساً من الخنافس المدقوقة . وكثير من السهاء بمضغن البخور واللدن من أجل تعطير أنفاسهن . وعادة الضوء المتواتر تجعل أجسامهن عاية في النظافة ، و تزيهن لا يستغرق وقتا طويلا . ومن النادر أن يبدلن ثيابهن وزيتهن و وسط النهار بعد أن يكن قد فعلن ذلك و الصباح . وهن يضفرن شعورهن أثناء الحمام وتصفيف الشعور بهذه الطريقة يكون جيدا بحيث لا يحتجن لإعادة تصفيفه لأيام كثيرة .

وأهم شاغل يشغل النساء المصريات هو العناية بأطفالهن وعليهن كذلك الاشراف على الأعمال المنزلية . ولكن و أهم الحالات فإن الزوج هو الذى يشرف على المصروف . وتستخدم النساء ساعات الفراغ و الحياكة والتطريز لاسيما تطريز مناديل اليد والطرح . والتطريز يتم عادة بخيوط الحرير الملونة والخيوط الذهبية . ويتم التطريز على أداة تسمى المنسج ، وهى عادة من خشب البندق ومطعمة بالصدف واللؤلؤ وقشور السلحفاة ، (وأكثرها شيوعاً من الزان) . وكثير من النساء . حتى الساء الغنيات ، يملأن أكياسهن الخاصة بتطريز المناديل وغيرها مما يعطين

للدلالة التي تتولى عرضها في أحد الأسواق أو التي تصرفها في حريم آخر .
وزيارة نساء حريم ، لحريم آخر تشغل عادة يوماً كاملاً تقريباً . اذ تتجمع
النساء فيما كلن ويدخن ويشربن القهوة والمرطبات وينثرن ويستعرضن ما
يلبسن من حلى وأدوات فاخرة ويكني كل ذلك لتسليةهن . وسيد البيت لا
يسمح له بحضور هذه الاجتماعات النسائية الا لأمر ملح ، وفي هذه الحالة
عليه أن يعطى إنذاراً بمقدمه حتى يكون لدى الزائرات الوقت الكافي
لوضع خمرهن أو الانسحاب في جزء آخر من الشقة . وفي هذه الحالة
تنطلق النسوة الشاباات وقد تخلصن هكذا من كل خوف من المفاجأة .
ينطلقن في مرحهن الطبيعي ويتركن العنان لروح المحون والصخب التي
يتسمن بها .

حفلات خاصة

يقيم المصريون حفلا حين يقبل أحد أبايهم عضوا في جماعة التجار أو الصناع . ويتم القبول في جماعات التجارين والحراطين والحلاقين والحياطين والمجلدين وغيرهم من الطوائف بالطريقة التالية :

يأتي الشاب الذي يطلب قبوله في طائفة المهنة يصحبه والده لدى الشيخ ومحيطه الأب علما بنيته في ادخاله كعضو في الطائفة . وحينئذ يرسل الشيخ في دعوة « معلمى » هذه الحرفة التي يعتبر الشاب مستجداً فيها وبعض أصدقاء المتقدم لحضور حفل استقباله . وحينئذ يأتي ضابط يسمى النقيب يحمل حزمة من العشب الأخضر أو الزهور التي يوزعها على جميع المدعوين وهو يقول : « الفاتحة للنبي » ويضيف النقيب على ذلك قائلا : « تفضلوا هنا في يوم كذا والساعة كذا لتناول قدحا من القهوة » .

ثم يتجمع هؤلاء المدعوون إما في بيت الأب أو في بيت الشاب وأحيانا في الريف حيث تقدم لهم القهوة ويتناولون العشاء .

ويؤتى بالمستجد أمام الشيخ وتلى الأشعار في مدح الرسول ثم يلف حول جسمه شال معقودة أطرافه . وتلى آيات من القرآن ثم تعقد في الشال عقدة أخرى . وعند عقد العقدة الثالثة بعد تلاوة آيات أخرى من القرآن تعقد في الشال عقدة على شكل وردة ويعتبر الشاب قد قبل عضوا في طائفة المهنة التي يكرس نفسه لها . وحينئذ يقبل يد الشيخ وأيدي جميع الحاضرين ويدفع مبلغا بسيطا ويصبح منتميا الى طائفة المهنة .

والمصريون ، الذين يعيشون عادة بأكثر الطرق نقشفا يحرصون على جعل ولائهم على أكبر قدر من التنوع والكثرة . الا أن الوقت المخصص لراحتهم قصير جداً . وفي الاجتماعات التي من هذا النوع يدخلون القوم عادة ويشربون القهوة في فناجين صغيرة أو المرطبات و«يدرردشون» .

وأثناء تلاوة القرآن يمتنع الأتراك عادة عن التدخين . والتبجيل الذي يحيطون به الكتاب المقدس جعل الناس يقولون عنهم :

«إن الله قد وضع الحسن العثماني فوق بقية المسلمين لأنهم يحلون القرآن أكثر مما يفعل الآخرون» .

والتسلية الوحيدة في مثل هذه الاجتماعات هي بعض الروايات والقصص إلا أن الحسب محبوب الرقص وعزف الموسيقى مما يتم في مثل هذه الحفلات حبا جما .

ومما يلاحظ أن المصري يحب التسلية بأية لعبة الا اذا كانت تحتاج لمجموعة صغيرة من شخصين أو ثلاثة أو في أسرته . ورغم أن المصري

اجتماعى بطبيعته الا أنه نادراً ما يقيم الحفلات الكبيرة ولا بد من مناسبة غير عادية ليفعل ذلك . مثل الأعراس ومولد طفل ... الخ .

وثمة حفلات تقام بمناسبة الزواج . واليوم السابع . الذى يسمى يوم السبوع ، بعد الزواج تستقبل العروس النساء من صاحباتها فى الصباح والمساء . وأحياناً ، أثناء ذلك الوقت . يستقبل العريس أصدقاءه الذين يسلمهم فى المساء بالموسيقى والرقص . وجرى العادة فى مصر على أن يتخلل الزوج عن الحقوق التى يمنحها إياه الزواج حتى بعد اليوم السابع اذا كانت من يتزوجها عذراء صغيرة السن . وبعد انتهاء هذا الوقت جرى العادة على أن يقيم حفلاً ويدعو أصدقاءه . وبعد أربعين يوماً من الزواج تذهب العروس إلى الحمام برفقة بعض صديقاتها . وحين تعود الى منزلها تقدم لهن الحلوى ثم ينصرفن . وفى تلك الأثناء يولم العريس وليمة مصحوبة بالرقص والموسيقى .

وفى اليوم التالى لمولد طفل يأتى اثنان أو ثلاثة من الراقصين أو الراقصات ويقمن بالرقص أمام البيت أو الغناء . والحفلات التى تقام لمولد طفل ذكر أجمل من تلك التى تقام لمولد طفلة أنثى . ومازال العرب يحتفظون فى ذلك بالمشاعر التى جعلت أجدادهم يثدنون أولادهم من البنات .

وبعد مولد الطفل بثلاثة أيام أو أربعة يقعد نساء المنزل ، إذا كانت الوالدة تنتمى الى إحدى الطبقات العليا . يعددن أصنافاً مكونة من العسل

والزبد المقدوح وزيت السمسم والتوابل والمواد المضيفة للنكهات ويضاف إلى ذلك أحيانا البندق المحمص .

ثم يرف المولود بعد ذلك تحمله النسوة أو البنات في الحريم بأسره . وكل واحدة منهن تحمل شمعة كبيرة من ألوان مختلفة ومضاءة : وهذه الشموع تقطع كل واحدة منها نصفين ويقرش في عجينة جامدة من الحناء . ويوضع الكثير منها فوق صفحة . وتقوم الداية أو غيرها من النساء الحاضرات برش الملح المختلط بحبوب الشمر . وهذا الخليط الذى يكون قد بات في الليلة السابقة على رأس مهد المولود فائدته حفظ الطفل من الأعمال السحرية . والمرأة التى ترش الملح تقول : « حصوة في عين الى مايصل على النبی » .

أو « ليسقط هذا الملح النجس في عين الحسود ! » وترد كل واحدة من الحاضرات قائلة « اللهم صل على سيدنا محمد ! »

وتقدم صفحة من الفضة إلى كل من النسوة الحاضرات فيقلن بصوت مرتفع : « اللهم صل على سيدنا محمد ! » « ربنا يطول عمركم » الخ . وتقدم النساء عادة مندبلا مطرزا عقدت في طرفيه قطعة من الذهب . وكثيرا ما يوضع هذا المندبل فوق رأس الطفل أو الى جواره . ويعتبر تقديم المندبل هدية ديناً مكتوبا يسدد في مثل هذه المناسبة أو يستخدم في دفع دين سبق تقديمه في مناسبة مماثلة . وتستخدم القطع النقدية المتجمعة بهذه الطريقة في تزيين رأس الطفل لبضع سنوات . وبخلاف هذا الانفاق السخى تعطى النساء كذلك ما شئن للداية . وعشية

اليوم السابع يوضع على رأس مهد المولود النائم إبريق مليء بالماء وبحاط فيه
بمنديل مطرز . ثم تأخذ الداية إبريقاً وتضعه على صفحة وتقدم لكل سيدة
تأتي لزيارة الوالدة كوباً من هذا الماء فتقدم الضيفة مقابل ذلك هبة من
المال .

وبعد وقت ما من الولادة يختلف حسب الوضع الاجتماعي أو تعاليم
المذاهب المختلفة ، ولكنه عادة يبلغ أربعين يوماً ، وبعد الزمن الذي
يسمونه نفاساً تذهب للحمام ومنذ ذلك الوقت تكون قد طهرت .

راقصات مصر.

إن أكثر راقصات مصر جميعا شهرة من « الغوازي » اللاتي أطلق عليهن اسم قبيلتين . والمرأة من هذه القبيلة تسمى غازية والرجل يسمى غازي والجمع وهو غوازي يطلق عادة على النساء . ورقصهن لا يتسم دائما بالرشاقة . فهن يبدأن بشئ من التحفظ ثم لا يلبثن أن تشتعل عيونهن ويصنح صوت الصاجات النحاسية في أيديهن أسرع وتزداد حركاتهن كلها زيادة مطردة وينتهي بهن الأمر الى تقديم صورة تامة لرقص نساء قادش كما صورها مارسيال Martial وجوفنال Juvenal (١٤) . والثوب الذي يظهرن به يشبه ثياب المصريات من الطبقة المتوسطة اللاتي يرتدينها داخل الحريم . وهو مكون من يلك أو عثري وشتيتان (١٥) ألخ . من أجمل

(١٤) cf Guvenal: Sateres XI, 162-164 martial Bigrammes V¹ 78

(١٥) اليك شئ يشبه الروب دى شمير مفتوح الى منتصفه من الأمام والعثري يشبه ذلك ولكنه أقصر والشتيتان البنطلون .

الأمشة ويضاف اليه زينات مختلفة . وعدد دوزان أعين بلون من القطرة السوداء . أما أطراف الأصابع وراحة اليد وبعض أجزاء من القدم فتلون بصبغة حمراء من الحناء حسب العادة السائدة لدى المصريات من جميع الأوساط . ويتبع هؤلاء الراقصات عادة موسيقيون ينتمى معظمهم إلى القبيلة نفسها وأدواتهم الموسيقية هي الربابة والتار (الدف) أو الدربكة والزراب . إلا أن « التار » يرى عادة بين يدي امرأة عجوز . ويحدث كثيرا مناسبة بعض الحفلات العائلية مثل الزواج والولادة أن تترك الغوازي يرقصن في فناء المنزل أو في الطريق أمام الأبواب ، ودون أن يسمح لمن أبدا بالدخول إلى حريم الشرفاء ، وعلى العكس من ذلك فليس من النادر أن يستأجرون لتسلية اجتماع من الرجال . وفي هذه الحالة كما يمكننا أن نتصور فإن رقصهن يكون أكثر خلاعة مما قلنا فيما سبق . وبعضهن لا يرتدين من ملابس في مثل هذه الاجتماعات الخاصة إلا الششتيان (أو الكلسون) والطلب أو القميص وهو ثوب فضفاض من القماش الخفيف الملون نصف الشفاف ومفتوح من الأمام حتى منتصف الجزء الأسفل من الثوب . فإذا تكلفت الغازية فضلا من الحياء فإن ذلك لا يدوم طويلا تحت تأثير المشروبات المسكرة التي يصبونها لمن في غزارة .

وبعضهن ذات جمال رائع ومعظمهن يرتدين الملابس الغالية وهن عموماً أجمل نساء هذه الجهات . ومن الملاحظ أن بعضهن يتميزن بالأنف الأخيلية بعض الشيء . بينما تتميز ملاحظهن بحسب جميع التقديرات بالتمط الأصل للمصريات .

ورغم أن الغوازي يختلفن اختلافا طفيفا ، في المظهر عن سائر المصريين فنحن نشك في أن يكن من جنس مميز كما يؤكدن هن أنفسهن . وعلى كل فإن أصلهن يحاط بكثير من عدم اليقين . فهم يدعون أنهم يسمون بالبرامكة أو البرمكى ويفخرون بأنهم من سلالة تلك الأسرة الشهيرة أسرة البرامكة التي كانت موضع عطف هارون الرشيد فأغدق عليها ثم تلقت جام طغيان نزواته وقد ورد ذكر ذلك مرات عديدة في القصص العربي .

وعلى كثر من القبور المصرية القديمة رسمت بعض الغوازي من النساء وهن يرقصن في أكثر الأوضاع تحررا .

على أنغام مختلف الآلات الموسيقية . أى على طريقة الغوازي المحدثات أو حتى بتحرر أكبر . ذلك أن أكثر من واحد من هذه الوجوه رغم أنها تصور بحوار بعض الشخصيات الرفيعة إلا أنها عادة تمثل في حالة عرى تام . وهذه العادة في تزيين الآثار التي نتحدث عنها بهذه الصورة ، تلك الآثار التي يحمل معظمها أسماء قدامى الملوك ، تدل على مدى انتشار هذه الرقصات في مصر كلها في الأزمنة السحيقة حتى قبل هروب بنى إسرائيل . فمن المحتمل إذن أن تكون الغوازي المحدثات من سلالة هذه الطبقة من الراقصات اللاتي كن يرفهن عن الفراغة الأوائل .

والغوازي من الرجال والنساء يتميزون عادة عن بقية الطبقات بأنهم لا يتزوجون الا فيما بينهم . ولكن يحدث أحيانا أن نرى إحدى الغازيات

تقسم قسم التوبة وتزوج من أحد كرام العرب الذى لا يمسه عادة سيء من هذا الرباط . والغوازى قدرهن ألا يحترفن الا المهن الحقيرة وليس كلهن مكرسات للرقص . والعدد الأكبر منهن يتزوجن ولكن لا يحدث هذا أبداً قبل أن يمارسن الحياة التى اخترنها .

والزوج يخضع لزوجته ويصبح لها خادماً ومتعهد تموين وإذا كانت راقصة يكون هو موسيقبها . ومع ذلك فبعض الرجال يكسبون عيشهم عن طريق أعمال الحدادة أو صنع الأدوات الحديدية أو بيع القدور . ورغم أن بعض الغازيات يملكن ثروات كبيرة وأدوات زينة ثمينة فإن كثيراً من ملاسهن تشبه ملابس البوهيميين الذين نراهم فى أوروبا والذين نفترض أنهم من أصل مصرى .

ولغة الغوازى العادية بالنسبة للجنسين هى نفسها لغة سائر المصريين الا أنهم احياناً يستعملون عدداً من الكلمات الخاصة بهم وحدهم حتى لا يفهمهم الغرباء . أما عن الدين فهم يعتنقون الإسلام علناً ويحدث أن يتبع بعضهم القوافل المصرية الى مكة . ونرى عدداً كثيراً من الغوازى فى جميع المدن المصرية الكبرى . ومساكنهم عادة عبارة عن أكواخ منخفضة أو خيام مؤقتة لأنهم كثيراً ما يسافرون من مدينة الى أخرى . ومع ذلك فبعضهم يقيمون فى منازل كبيرة ويشترون جاريات سوداوات شابات ثم يشترون الجمال والحمير والبقر ويتاجرون فيها . وهن يتبعن الحفلات وتجدهن فى جميع الحفلات الدينية وغيرها مما يجعلهن السبب الرئيسى لاجتذاب كثير من الناس فى هذه الحفلات . وفى هذه المناسبات

نرى عددا كبيرا من خيام الغوازي . وبعضهم يضيفون الغناء إلى الرقص وينافسون العوالم وهن من أحط الطبقات . وبعضهن كذلك يرتدين القميص أو الطرب من القماش الشفاف فوق لباس آخر مع الشنتيان والطرحة المصنوعة من الكريب أو الموسلين . وهن يتزين عادة بالكثير من الحلى والزينة مثل الدنتلا والأساور والحلائل . وهن يرتدين كذلك صفاً من القطع الذهبية على الجبين ويضعن أحيانا حلقة فى أنوفهن . وجميعهن يستعملن الحناء فى صبغ أيديهن وأقدامهن .

وفى القاهرة كثير من الناس ممن يتظاهرون بالاعتقاد بأن المثلية الوحيدة لهذه الرقصات هى اللاتى يقمن بها من النساء اللاتى لا ينبغي لمن أن يعرضن أنفسهن هكذا للجميع ، تراهم يستخدمون الرجال من أجل هذه الألوان الترفيية . الا أن عدد هؤلاء الراقصين ، وجلهم من الشبان ويطلقون عليهم المختئين ، محدود للغاية . وهم من مواليد مصر . ولما كان عليهم أن يقوموا بأدوار النساء فإن رقصاتهم لها نفس طابع رقصات الغوازي وهم يهزون صاحبات بنفس طريقة هؤلاء . ولكن ، وكما لو كانوا يريدون ألا يؤخذ الدور الذى يقومون به على محمل الجدى ، فإن لباسهم الذى يتناسب مع مهتهم الفريدة نصفه لباس رجل والنصف الآخر لباس امرأة . وهو يتكون عادة من سترة مقلدة وحزام ونوع من التنانير (الثوب النصى) . ومع ذلك فشكلهم العام نساءى أكثر منه رجالى ذلك لأنهم بلا شك يطيلون شعورهم ويضفرونها على طريقة النساء . وهم يقلدون النساء بدهن الجفون وتلوين الأيذى بالحناء . وفى الشوارع

حين لا يكونون يرقصون. يمجدهم في غالب الأمر محجيين لأحياء ولكن لكى
يحسنوا تقليد طريقة النساء . وكذلك كثيرا ما يفضلون الغوازي للرقص في
الأفنية أو أمام أبواب المنازل في المناسبات العائلية . وفي القاهرة ثمة طبقة
أخرى من الراقصين من الرجال والصبيان يشبه رقصهم ولباسهم
ومظهرهم تماما مظهر المختئين الا أنهم يتميزون عن هؤلاء بأنهم يسمون
الجنك وهي كلمة تركية تعبر تماما عن طابع هؤلاء الراقصين . وهم عادة
من اليهود أو الأرمن أو اليونانيين .

المشعوذون

توجد فى مصر طبقة من الرجال يظنون انهم يملكون ذلك الفن الغامض الذى أشارت إليه التوراة^(١٦) والذى يحصن المرء ضد لدغ الثعابين كما كان يفعل مشعوذو سيريناىكا (ليبيا القديمة أيام اليونان) وقد كتب كثير من الكتاب قصصا مدهشة عن هؤلاء الحواة المحدثين الذين ينظر إليهم أكثر المصريين ثقافة على أنهم دجالون . إلا أن أحدا لم يقدم التفاصيل الكافية حول مهاراتهم العادية أو الأكثر إثارة .

(١٦) قد تكون تلك إشارة إلى الآية ٦ من النشيد ٥٨ التى تشير إلى مصادر السحر : صوت السحرة والساحر الخبير فى البحر إلا أن هذا النص لا يشير إلى ساحرى الثعابين المصريين . ونعمة إشارة واضحة إلى سحرة الثعابين من المصريين بمناسبة حدث ذكرى سفر الخروج ٧ - ٨ - ١٣ : ألقى هارون أمام فرعون ورجاله عصاه التى تحولت إلى حية . ودعى فرعون بدورته الحكماء والسحرة . وقام سحرة مصر كذلك باستخدام السحر بإيتيان نفس المعجزة . .

وكثير من الطبقات السفلى للدراويش يعيشون من ممارسة هذه الألوان من السحر حول المنازل لإبعاد الثعابين . فهم يجوبون مصر في جميع الاتجاهات وكثيرا ما يجدون من يطلبهم الا أن مكاسبهم ضئيلة . ويدعى الحاوي أنه يكتشف الثعابين دون الاستعانة بالنظر اذا وجدت وحين توجد الثعابين فهو يؤكد مقدرته على جذبها اليه بسحر الصوت وحده . وفي هذه الحالة يتخذ هيئة غامضة ويضرب على الحدران بعضا صغيرة من خوص الخيل ويصفر ويقلد صوت الدجاج بلسانه ، ويصق على الأرض ويقول « سواء أكنت أعلى أم أسفل استحلفك بالله أن تظهر فوراً - استحلفك بالاسم الأكبر إذا كنت مطيعا أن تظهر ! وإذا كنت غير مطيع هت ! مت ! مت ! » وعادة يحدث أن يخرج الثعبان من شقه بتأثير العصا أو يسقط من سقف الغرفة .

والحواة كثيرو العدد في القاهرة . ويشاهدهم الناس في الميادين محاطين بخلفة من المشاهدين . ويشاهدونهم كذلك في الأعياد العامة وهم يجتذون التصفيق من الماجنين الذين لا يمتقدون عادة فيهم . وهم يقومون بعدد كبير من الحركات والنوادر هذه أكثرها شيوعا : يساعد الحاوي عادة اثنان من الصبيان ، فيسحب أربعة أو خمسة من الثعابين من أحجام متوسطة من جراب من الجلد ويضع أحدها على الأرض ويجعله يرفع رأسه وجزءا من جسمه . وبالثعبان الثاني يصنع عمامة لأحد مساعديه ويلف له اثنين حول عنقه ثم يسحبها ويفتح فم الصبي ويتظاهر بأنه يدخل له في خده شيئا أتبه تحديده الأقفال ثم يقفلها ، ثم يتظاهر بأن يغرس له سنا

من الحديد في حلقة إلا أنه في الحقيقة يدخله في يد من الخشب تكون مثبتة فيها . وثمة لعبة أخرى من نفس النوع هي تلك : يرقد الحاوي أحداً صبيانه على الأرض ويسند سلاح أحد السكاكين على أنفه ثم يضرب على السلاح حتى يبدو كما لو كان قد غار إلى منتصف عرضه . والألعاب التي يقوم بها بمفرده أدعى للتسلية : فمثلاً يسحب من هه كمية كبيرة من الحرير يلفها حول ذراعه ، ومرات أخرى يملأه بالقطن ويصق النار ، ومرات أخرى كذلك يخرج (من هه كذلك) عدداً كبيراً من قطع القصدير في استدارة الدولار ثم يبصقها بأنفه إلى الأرض في صورة ماسورة غليون .

ومن الألعاب الشائعة للحواة أن يضع عدداً ما من شرائط الورق الأبيض في آنية من الصفيح على شكل قالب الحلوى ثم يخرجها منه وقد صبغت بمختلف الألوان . ثم يضع الماء في نفس هذه الآنية ويصيف إليه قطعة من القماش ثم يقدمها إلى المشاهدين وقد تحولت إلى حلوى . وأحياناً يقطع الحاوي شالاً إلى قطعتين أو خرقه من متعصده ثم يعود فيصلحه فوراً .

وأحياناً أخرى يتجرد من جميع ملابسه إلا سراويله ويطلب من شخصين أن يرتفعا له قدميه ويثديه ويضعوه في كيس ، ولما يفعلون ذلك يطاب قرشاً فيقبل له أحدهم إنه سيحصل على القرش لو استطاع سحب إحدى يديه لأخذه . وفي الحال يسحب إحدى يديه خارج الكيس ثم يعود ويدخل ويخرج بعد ذلك بأكمله مربوطاً كما كان . ثم يعود فيدخلونه في الكيس ويخرج على الفور وقد تخلص من جميع قيوده ويعمل صينية صغيرة محاطة بالشموع المضاءة (وتتم هذه اللعبة مساءً) وعليها خمسة أو ستة من الصحنين الصغيرة مملوءة بمختلف الأصناف التي يقدمها للمشاهدين .

وفى القاهرة نعمة نوع آخر من الحواة يسمونهم سكييم . وفى معظم ألعابهم يستعين الا سكييم كذلك بأحد الصبيان فمثلا يضع هذا الأخير تسعة وعشرين حجراً صغيراً على الأرض ويقف بالقرب منها ويرتبا أمامه . ثم يطلب من أحد المشاهدين أن يحنى قطعة من النقود تحت أحدها . وبعد ذلك ينادى السكييم الذى يكون واقفاً على بعد أثناء هذا الترتيب ويخبره أنهم خبثوا قطعة من النقود تحت أحد هذه الأحجار و يطلب منه أن يدل على هذا الحجر . يفعل ذلك للتو . وهذه اللعبة بسيطة للغاية فإن الحجارة التسعة والعشرين تمثل الحروف الأبجدية العربية ويعنى الصبى بأن يبدأ طلبه بالحرف الذى يمثله الحجر الذى خبثت تحته قطعة النقود .

وفى العرافة وقراءة الطالع من الفنون التى تمارس فى مصر ويمارسها عادة بوهيميون يشبهون أمثالهم لدينا . ويسمونهم العجبر . وهم عادة يدعون أنهم من سلالة البرامكة مثل الغوازي ولكنهم من فرع آخر . ومعظم العرافات من النساء وكثيرا ما يشاهدن فى شوارع القاهرة وهن يرتدين ملابس تشبه ملابس نساء الطبقة الدنيا بالطب والطربوش ولكن وجوههن دائماً سافرة . والعجبرية تحمل دائماً معها كيساً من الجلد يحتوى على أدوات مهنتها . وهى تهجى الشوارغ صائحة «أنا العرافة ! أشوف الحاضر والمستقبل » .

وتكشف معظم العجريات الطالع بواسطة عدد من القواقع وقطع الزجاج الملون وقطع النقود الخ .. وهى تضعها مختلطة ثم تدلى بعراقها

حسب النظام الذى تكون الصدفة قد رتبته به . وأكبر القوعدات تمثل الشخص الذى يراد رؤية طالعه والقواقع الأخرى تمثل الخير والشر ... الخ . وحسب أوضاع هذه القواقع بالنسبة بعضها للبعض تحكم العجربة ما اذا كان هؤلاء أو هؤلاء سيحضرون الى الشخص المعنى . وتصيح بعض هذه البوهيميات كذلك قائلات « ندق ونطاهر » (أى نحن نرسم الوشم ونجرى عملية الختان !) .

ويقوم بعض البوهيميين بدور البهلوان وهى تسمية كانت تطلق على بعض المهرجين والسائقين أو الأبطال المشهورين وكل من كان ذا شهرة فى القاهرة فى الماضى باستخدام قوتهم ومهارتهم الا أن ألعاب البهلوانات من المحدثين تقتصر تقريبا على الرقص على الحبل ، وكل من يمارسون هذا الفن من البوهيميين . ويربطون جبلهم أحيانا فى مثلثة أحد المساجد على ارتفاع شاهق ويمتد الى مئات عديدة من الأقدام ، ويسندونه من مكان إلى مكان على عصى يدقونها فى الأرض .

ومارس النساء والبنات والأولاد عن طيب خاطر تلك اللعبة ، الا أن الأولاد يقومون كذلك بلعب أخرى مثل ألعاب القوى والقفز بداخل الأطواق الخ .

والفرداتية (وهذه التسمية مستقاة من كلمة قرد) يسلون الطبقات الدنيا فى القاهرة بالألعاب التى يجعلون القرد يلعبها بمصاحبة حمار وكلب وجدى صغير . فيقوم الرجل والقرد (وهو عادة من فصيلة كليبات الرءوس) بمصاربة الثلاثة الآخر بالعصى . ويلبس الرجل القرد بطريقة

غريبة فاحيانا يلبسه ملابس العروس أو ملابس امرأة محجبة ويتقدمه وهو يقرع طبلته ويستعرضه هكذا فوق ظهر الحمار ووسط حلقة كبيرة من المتفرجين . وعلى الفرد كذلك أن يقوم بعدد كبير من الرقصات المضحكة . ثم يقال للحمار أن يقفز فوق أجمل فتاة ليفعل ذلك على الفور وهو يقرب خياشيمه من أجمل فتاة فتكون بذلك راضية كل الرضا وكذلك جميع المشاهدين .

ويطلب من الكلب أن يقلد اللص فيأخذ في الزحف على بطنه . وأخيرا وأفضل هذه الألعاب هي لعبة الجدى . فهو يقف على قطعة صغيرة من الخشب تشبه تقريبا وعاء الترد يبلغ طولها تقريبا الأربع بوصات وعرضها بوصة ونصف ، يقف عليها الجدى بحيث تكون أقدامه الأربعة متجمعة على هذه المساحة الضيقة . وترفع قطعة الخشب هذه وهي تحمل الجدى ويدس تحتها قطعة خشب أخرى مشابهة ثم ثلاثة ورابعة وخامسة دون أن يغير الجدى من وضعه .

ويسر المصريون كثيرا برؤية تمثيلات هزلية تهريجية يسمونها «المعزين» (١٧) (كذا) وتمثل تلك التمثيلات عادة في الحفلات التي تسبق الأعراس وحفلات الختان لدى العطاء وتجتذب أحيانا أعدادا كبيرة من المشاهدين في الميادين العامة في القاهرة . ولكن نادراً ما تكون تلك العروض تستحق الوصف لأنها تعتمد على النكات السقيمة البذيئة التي

(١٧) ربما يقصد جبرار المعبودون ؟

تجتذب بها تصفيق المشاهدين . وجميع الممثلين فيها من الرجال ، حتى أدوار النساء يقوم بها الرجال أو الفتيان في ملابس النساء .
وكعينة لتلك التمثيليات تلك احداهن وقد تم عرضها أمام محمد على بمناسبة ختان أحد أبنائه حيث كان يتم حسب العادة المتبعة ، ختان عدد كبير من أبناء العظماء .

وشخص التمثيلية هم : الناظر (أو المحفظ) وشيخ البلد ، وخادمه ، وكاتب قبطنى ورجل مسكين مدين للحكومة وزوجته وخمسة أشخاص آخرين يدخلون إلى المسرح واثنان منهم يدقان على الطبول واثنان يعزفان على المزمار والحامس يرقص . وبعد أن يعزفوا على آلاتهم ويرقصوا بعض الوقت يدخل الناظر والشخص الآخرون ويقفون في دائرة .
ويقول الناظر سائلا : « ما هو مقدار دين عوض بن رجب ؟ » فيرد الموسيقيون والراقصون الذين يقومون هنا بدور الفلاحين ، يرددون قائلين : « قل للكاتب يرجع للدفتري » وهذا الكاتب يرتدى ملابس الأقباط أى العمامة السوداء ويحمل في حزامه كل ما يلزمه للكاتب . ويقول له الشيخ : « كم على عوض بن رجب ؟ » فيجيب الكاتب قائلا : « ألف قرش - ويضيف الشيخ : وكم دفع منها ؟ فيرد عليه الكاتب قائلا : « خمسة قروش » فيقول حينئذ للمدين : « أيها الرجل ، لماذا لم تحضر النقود ؟ » فيرد الرجل قائلا : « ليس عندي نقود . فيصبح الشيخ قائلا : « ليس معك نقود ؟ أرقدوا هذا الرجل على الأرض » . ثم يحضرون سوفا يشبه عصب البثور يضرب به الفلاح المسكين . فيصبح في الناظر قائلا :

« يابك ! وشرف ذيل حصانك ، يابك ! وشرف رباط عامتك يابك ! »

وبعد أن يكرر الفلاح هذه النداءات الغريبة مستحثا عطف الناظر يكفون عن ضربه ويسحبونه ليلقوا به في السجن . وثمة مشهد آخر : تأتي زوجة السجن لرؤيته وتسأله كيف حاله ، فيجيبها قائلا : « من أجل خاطري يازوجتي ، خذى بعض البيض والفطير الى منزل القبطى ووجهى اليه الرجاء بالتوسط فى اطلاق سراحى » . وتجمع المرأة الأشياء المطلوبة وتحملها فى ثلاث سلال الى منزل القبطى وتسأل هل هو موجود فيردون عليها بنعم . فتمثل أمامه وتقول :

« يا معلم حنا ! اصنع فى جميلا بتقبل هذا والحصول على إطلاق سراح زوجى » - ومن هو زوجك ؟ - إنه الفلاح المدين بألف قرش - ادمعى منها مائتين أو ثلاثمائة الى شيخ البلد كجزية » . وتذهب المرأة لاعداد النقود وإطلاق سراح زوجها .

ونرى من ذلك أن الملهاة تهدف بالسبب للشعب إلى انذار العظاء للحصول على بعض الاصلاحات . وكان هذا فى أغلب الأمر هدف الفن التمثيلى فى العصور الوسطى . والمصريون ما زالوا فى العصور الوسطى

منازل القاهرة

إن العاصمة الحديثة لمصر تسمى القاهرة التي كون منها الأوربية كلمة Leccaire أما الشعب فيسميها مصر (بفتح الميم أو كسرهما) وهى اسم مصر بأكملها . والمدينة تقع فى مدخل وادى مصر العليا ، بين النيل والسلسلة الشرقية لجبال المقطم . ويفصلها عن النهر لسان من الأرض كله مزروع تقريبا ، ومن الناحية الشمالية حيث يوجد ميناء بولاق ويبلغ عرضه ربع ميل إلا أن هذا العرض يبلغ نصفه من ناحية الجنوب .

وإن الأجنى الذى لا يكون له سوى أن يجوب شوارع القاهرة سوف يظن أن هذه المدينة ضيقة ولا تشغل الا مساحة بسيطة الا أن من يرى المدينة من سطح منزل عال أو من مثذنة أحد المساجد سوف يلاحظ عكس ذلك . والشوارع المأهولة أكثر من غيرها تتميز بصف من الحوانيت على كلا الجانبين . أما معظم الشوارع البعيدة فهى مزودة بأبواب من الخشب لى كل طرف من طرفها . وهذه الأبواب تغلق ليلا ويحرسها

بواب مهمته أن يفتح لكل من يريد المرور . وما يسمى حيا هو تجمع بعض الشوارع الضيقة ذات مدخل مشترك واحد .

والمنازل الخاصة تستحق الوصف بصفة خاصة . فالجدران من الأساس حتى ارتفاع الدور الأول مغطاة من الخارج وفي أحوال كثيرة من الداخل بحجارة جيرية رخوة تستخرج من الجبل المجاور . وهذا الحجر حين يكون حديث القطع يبدو سطحه في لون أصفر خفيف إلا أنه ما يلبث أن يتحول إلى اللون البني بفعل الهواء ، أما أقسام الواجهة فهي أحيانا تبيض بالآجر الأحمر والجير الأبيض فتبدو على التوالي ذات خطوط حمراء وبيضاء . وهذا يتم بالنسبة للبيوت الكبيرة والمساجد . أما المنازل الممتازة التي تبرز واجهتها عادة بروزا يبلغ القدمين فهي تستند إلى أعمدة . وهذه الأبنية تشيد بالطوب الأحمر وتغطي عادة بطبقة من الجبس . والطوب عادة محروق ولونه أحمر داكن . وبياض المنازل عادة مسطح ومغطى بطبقة من الجبس . والنوافذ الناتئة في الأدوار العليا التي ترى في مواجهة بعضها البعض تكاد تتلامس وتحجب هكذا أشعة الشمس عن الشوارع تماماً مما ينتج عنه فينا لطيفا أثناء الصيف .

وأبواب المنازل عادة تنتهي من أعلى باستدارة وزخارف على الطراز العربي . وفي وسطها قسم يكتب عليه عادة كتابات عربية هي : « هو الله الخالق المبدع الخالد » . وهذه التعليمات وغيرها من نفس الشكل ولكن : أصغر قليلا مما توجد على الأبواب تراها مطلية باللون الأحمر بإطار أبيض . أما بقية مساحة الباب فتطلى باللون الأخضر . واختيار هذه

الألوان يرجع الى أفكار خرافية . والأبواب مزودة بقادوم من الحديد وقفل من الخشب ، وعلى جميع الأبواب تقريبا تجدد بجوار الأبواب مكانا مرتفعا ذا درجتين حتى يمكن منه امتطاء الحمار أو الحصان .

وشقة الدور الأرضى المجاورة للشارع مزودة بنوافذ صغيرة ذات قضبان من الخشب الا أن فتحها عالية بحيث لا يستطيع المار النظر فيها الى الداخل . وشرفات الشقق تخرج فى بروز يقدر تقريبا بقدم ونصف . وهذه النوافذ تزين عادة بعرائس من الخشب المحروط وهو من الضيق بحيث يمنع ضوء الشمس من النفاذ مع سماحه بدخول الهواء . وهذه العرائس نادراً ما تكون مطلية وإذا كانت كذلك فغالبا ما يكون الطلاء هو اللون الأخضر . وتسمى هذه النوافذ بالمشربيات . وهذه الكلمة الأخيرة تعنى مكانا للشرب . وفى بعض المنازل يضعون فى تجويف هذه البروزات قليلاً من الفخار ذى المسام ترطب الماء بفعل البخار الذى يسببه تيار الهواء فوق النافذة البارزة هذه مباشرة توجد أخرى مسطحة ومزودة بعريشة أو قضبان من الخشب أو الزجاج الملون . وهذه النوافذ العليا حين تكون مزودة بعرائش فلأنها تحلى عادة ببعض الرسوم الزخرفية التى تمثل عادة إما حوضاً وإبريقاً ، والإبريق بداخل الحوض فوق هذه النافذة أو وجه أسد أو اسم الله أو كلمات مثل «حسبى الله» الخ وبعض النوافذ النائية تلك تكون مبنية بالكامل من الخشب وبعضها مزدان ببلاط القيشانى .

وبصفة عامة ترتفع المنازل دورين أو ثلاثة . ولكل بيت فناء غير مبلط يسمى حوش يدخل اليه عن طريق ممر مبنى بحيث يعترضه كوع أو

اثنتان وذلك من أجل منع المارة من النظر الى الداخل . وبهذا الممر يمتد ما يشبه المقعد يستند الى الحائط بطوله كله ويسمى مصطبة خصصت للبواب والخدم . وبالحوش عادة بئر من الماء ذى الملوحة الذى يتسرب من النيل عبر التربة . وجانب هذا البئر الأكثر وقوعا فى الظل يكون عادة مزودا بجزيرتين تملآن كل يوم من ماء النيل الذى يجلب من النهر فى قرب وأهم الشقق تطل على الفناء وأحيانا يكون للبيت فناءان يتبع الفناء الثانى منها الحرم وتزدان هذه الأفنية بكوات صغيرة ذات قبوات تزرع فيها الأشجار الصغيرة والزهور . والجدران الداخلية للبيوت التى تكون مربع الأفنية تكون عادة مبنية بالطوب الأحمر ومبيضة بالجير . وللأفنية عدة أبواب تصلها بالداخل أحدها يسمى باب الحرم ، ومن هذا الباب نصل الى السلم المؤدى الى الشقق المحصنة فقط للنساء والسادة وأطفالهم .

والدور الأرضى به شقة تعرف عادة باسم المندرة يستقبل فيها الضيوف من الرجال . وهذه الشقة ذات نافذة عريضة ونافذة أو نافذتين أصغر مبنية على نفس الطراز . والأرضيات الخشبية لهذه الشقق ذات حافة تبلغ من ست الى سبع بوصات وهذا الجزء الأسفل يسمى دركاه .

وفى بيوت الأغنياء تكون الدركاه مغطاة ببلاط من الرخام الأبيض والأسود ، وجميع الفراغات محشوة بالمزايكو المكون من قطع من القرميد ذى لون أحمر زاه فيشكل بذلك تطعيما أنيقا وساحرا . وفى وسط الفناء نجد نافورة يسمونها فسقية تسقط مياهها ثانية فى حوض مبلط بالرخام الملون . والنافورات ، ومياهها ترتفع الى ارتفاع كبير تواجه عادة ما

يشبه المنضدة من الرخام أو من الحجارة العادية يبلغ ارتفاعها أربع أقدام تقريبا وتسمى الصفة . وهذه المنضدة تستند الى بالكتين أو أكر وأحيانا بأككة واحدة يوضع تحتها الأدوات التي تستعمل يوميا أى أوانى العطور أو أوانى الوضوء التي تستخدم قبل وبعد الوجبات استعداداً للصلاة .

والجزء الأعلى من الشقق يسمى الديوان وهى تسمية فيها تشويه لكلمة قصر Palais^(١٨) وحين يدخل المرء إلى هذا الجزء من المسكن يخلع - عليه قبل أن يستطيع الولوج الى الديوان . وهذا الجزء الذى هو فى واقع الأمر لا يعدو أن يكون غرفة انتظار مبلط بالحجارة العادية . وفى الصيف تغطى الأرضية بالحصى وفى الشتاء بالسجاد . وفى ثلاثة جوانب من الغرفة تشاهد وسائل وحشايا ، وكل حشية يبلغ سمكها ثلاث بوصات عادة وعرضها ثلاث أقدام . وتعد الفرش إما على الأرض أو على أسرة من السيور ، والوسائل وطولها عادة هو عرض السرير نفسه ونصف هذا العرض سمكا فإنها تستند الى الحائط . وتحشى الوسائل والحشايا بالقطن فى وجوه وسائل من الكليكات^(١٩) المطبوع أو الصوف أو أى نوع من الأقمشة

(١٨) هذا الجزء غريب فى غموضه يدفع إلى التساؤل عما إذا لم يكن نمة أحد يترجم لجبرار شفوياً النص الذى كذبه لين . ذلك أن هذا الأخير يتحدث عن جزء من المنزل يسمى إيوان ولن كلمة تعنى هى الأخرى القصر وقد تكون تلك الكلمة إذ تنطق بالإنجليزية قد إعتلت فى ذهن جبرار مع الكلمة الفرنسية divan لا سيما أن هاء الكلمة نفسها من أصل شرقى (الناشر) .

(١٩) نماش قطنى خشن يصنع أصلاً فى مدينة كليكات على شاطئ مالابار .

الغالية . وجدران المتزل مطلية بالجبس ومبيضة من الداخل . وفى كل مكان تقريباً تجد صوانين أو ثلاثة قليلة العمق صنعت أبوابها على شكل تقسيمات صغيرة للغاية . وهذه العادة سببها شدة الجفاف وحرارة الجو التى تطرد القطع الخشبية الكبيرة لدرجة أن المرء يظن أنها تعرضت لنار القرن . وأبواب الشقق تتكون لنفس السبب من قطع مركبة . وتوزيع التقسيمات الخشبية المختلفة التى نلاحظها على كل ما هو مصنوع من الخشب تعطى صورة فريدة غنية بالخيال والتركيبات .

والأسقف من الخشب ، والعروق العرضية منحوتة وتطلى أحياناً بالألوان وأحياناً تذهب . وسقف الدركاه فى البيوت الكبرى تزينه زخارف غاية فى الثراء ذات معينات متقابلة تكون رسوماً لطيفة ومنظمة ذات تأثير زخرفى من أرقى الأذواق .

وفى وسط المربع الذى تكونه تلك القطع تعلق نجفة . والطريقة الفريدة التى تطلى بها الأسقف وغرابة الرسوم التى تتمثل فيها والتى تبدو متقابلة فى غير نظام بيننا أن جميع هذه الفراغات مكونة من أجزاء ليس ثمة ما هو أكثر انتظاماً منها وتكون معاً كلاً مبهراً للعين .

وفى داخل بعض البيوت ثمة غرفة تسمى « المقعد » تخصص لنفس الغرض الذى تخصص له المندرة . وسقفها محمول على عمود أو عمودين وعدة قبوات قاعدتها مزودة بالقضبان . والدور الأرضى كذلك له غرفة استقبال تسمى « تخبوش » ، وهى عادة مربعة . وواجهتها المطللة على الفناء مفتوحة ، وفى الوسط يرتفع عمود لحمل الجدران المبنية فى أعلى .

وهذه الغرفة مبلطة بالبلاط الكبير وبها صفة تشغل ثلاثة جوانب من الحائط . وهذه الغرفة التي يمكن أن تعتبر فناء كثيرا ما ترش بالماء ، لتزويد الشقق المجاورة ، أو على الأقل شقق الطابق الأرضى بالرطوبة العالية في مثل هذه الأجواء .

وفي الشقق العليا ، وهي شقق الحرم ، يوجد مكان يسمى « الكعب » ذو ارتفاع كبير ، ويوجد به ديوانان يمتد كل منهما بطول أحد الجدران ، وأحدهما أعرض من الآخر والعريض هو الذى يجلس فيه عادة الأشخاص الذين يراد تكريمهم . وجزء من سقف هذا الصالون الذى يتوسط الديوانين أكثر ارتفاعاً من بقية الأجزاء . وفي الوسط يعلق مصباح يسمى ممرک memrak زينت أسطحه بالعرائس مثل المشربيات التى تحمل قبوة صغيرة . ومن النادر ما تكون الدركاه مزودة بنافورة صغيرة إلا أنها غالبا ما تكون مبلطة بنفس طريقة المنذرة .

ونجد في كثير من الغرف وزرات خشبية ضيقة محملة بكافة أنواع الأواني الصينية المجلوبة من الصين الغرض منها تجميل المكان . وهذه الوزرات المركبة على ارتفاع أكثر من سبع أقدام من الأرض تحيط بالغرفة بأكملها فيما عدا فتحات النوافذ والأبواب . أما الغرف فجميعها تقريبا مرتفع جداً ، وارتفاعها يبلغ على الأقل أربع عشرة قدماً ، بل إن كثيرا منها تزيد عن ذلك . والكعب هو أوسعها جميعا وأكثرها ارتفاعاً وفي منازل الكبراء يشكل الكعب أجمل غرف الاستقبال .

وفى بعض الأدوار العليا لبيوت الأغنياء ترى بخلاف النوافذ ذات العرائش طاقات صغيرة من الزجاج الملون يمثل سلال زهور أو موضوعات أخرى بهيجة وأنيقة أو يكتفى ببعض الرسوم الغريبة ذات التأثير الساحر . وهذه النوافذ الزجاجية الملونة تسمى خماسية وكلها تقريبا يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثا وعرضها قدمين تقريبا . وتركب هذه النوافذ الزجاجية الملونة على الجزء الأعلى من النوافذ البارزة أو على الأجزاء العليا لفتحات الجدران فترسل من ثم ضوءاً هادئاً سحرى ذا انعكاسات لا يمكن تصوير سحرها . وهذه النوافذ تتكون من قطع صغيرة من الزجاج من مختلف الألوان مثبتة فى إطار من الجبس الناعم مركب بدوره على إطار من الخشب . ونرى على الجدران المبنية من الجص فى بعض الشقق رسوما رديئة تمثل الكعبة وقبر الرسول أو تمثل زهورا وغيرها من موضوعات الزينة . ونجد كذلك حكما عربية وعبارات دينية . ومعظم هذه الحكم والعبارات تكون مكتوبة على ورق جميل وتجملها الزخارف الخطية الجميلة وموضوعة فى إطار يغطيه الزجاج . وغرف النوم ليست مؤنثة لهذا الغرض لأن الفراش يفك أثناء النهار ويلف ويوضع فى ركن من الغرفة أو فى غرفة أخرى تستخدم للنوم أثناء الشتاء . أما فى الصيف فيعظم السكان ينامون على أسطح المنازل . فيفرش الحصر أو السجاد فوق الحجارة التى بلطت بها أرضية المكان وأريكه هذا هو كل ما فى غرفة النوم من أثاث ، وهذا عادة هو ما يوجد فى الغرف الأخرى .

وتقدم الوجبات على صحاف مستديرة توضع فوق كرسي صغير

منخفض . ويجلس المدعوون على الأرض حول الصحيفة . واستخدام المدافئ غير معروف . وتدفعاً الشقق في فصل الشتاء بواسطة حجر يوضع في موقد ولا تعرف المدافئ إلا في المطابخ .

وكثير من البيوت بها محازن على الأسطح تكون فتحها جهة الشمال أو الجنوب الغربى ومهمتها ترطيب الغرف العليا .

ولكل باب قفله الحشبي ويسمى دب : وبه نقاط بارزة من الحديد تتناسب مع ثقب في المفتاح .

وتعانى كثير من منازل القاهرة نقص الانتظام فالعرف عادة ذات ارتفاعات مختلفة ابتداء من الأرض مما يجعل من في البيوت يصعدون ويهبطون للدخول من غرفة الى أخرى والمهدف الرئيسى للمهندس هو أن يجعل البيت في معزل بقدر الإمكان لاسيما الجزء المخصص لسكنى النساء وتجنب كشف الشقق من النوافذ أو البيوت المحاورة .

وفي بيوت الأثرياء أو ابناء الطبقة المرموقة يهتم المهندس بإضافة باب سرى ، وهذه التسمية تطلق كذلك على أبواب الحرم وذلك لتسهيل الهرب حين يكون ثمة تهديد بالقبض على أحد أو القتل أو إدخال احدى العشيقات التى تستطيع هكذا أن تدخل وتخرج سراً . وتحتوى بيوت الأثرياء كذلك على بعض الخابى للثروات وتسمى « محباً » ويجد في حريم البيوت الكبيرة حمامات تسخن بنفس الطريقة التى تسخن بها الحمامات العامة

وحيث يشغل الخدم الجزء الأسفل من البيت تقسم الأدوار العليا إلى مساكن منفصلة وهذا الجزء من البيت يسمى ربعا وهذه المساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر تماماً . وكذلك الحال بالنسبة للجوانب أسفل البيت ، وهي تزجر إلى أسر لا تملك القدرة على دفع إيجار منزل بأكمله . وكل من هذه المساكن التي يتكون منها الربع يتكون من قاعة أو أكثر وغرفة نوم وعادة من مطبخ والمرافق الأخرى ، ومن النادر أن تجد مثل هذه المساكن ولها مدخل خاص من الشارع .

مواسم الجنائزات .

إن المراسم المتبعة بمناسبة وفاة أو دفن أحد الرجال أو النساء متشابهة تقريبا . فحين تحدث الحشرة أو غيرها من العلامات التي تدل على موت وشيك لأحد الرجال فإن أحد الحضور يعدل وضعه بحيث يكون وجهه تجاه مكة ويغمض له عينيه . وحتى قبل أن يلفظ أنفاسه أو بعد ذلك بلحظة يصيح الحاضرون قائلين : « لا حول ولا قوة الا بالله ! انا لله وإنا إليه راجعون ! اللهم ارحمه ! » وفي تلك الأثناء تصدر نساء الأسرة صيحات والتي تسمى الولولة ثم يصدرن أصواتا أكثر نفاذا وهن ينطقن باسم المتوفى . وأكثر الصيحات استعمالا والتي تفلت من بين شفهي زوجته أو زوجاته وأولاده هي :

« يا سيدى ! يا جملى ! (ومعنى ذلك أنت يا من كنت تجلب لى
مثنونى وتحمل أثقالى !) يا سبعى ! يا جملى البيت ! يا عزى ! يا
موردى ! يا أبى ! يا حشرة ! »

وبعد الموت مباشرة يجرد المتوفى من الملابس التى كان يرتديها ويلبس ملابس أخرى ثم يسجى على فراشه أو مرتبه ويعطى غطاء وتستمر النساء فى ولولتهن . ويأتى الكثير من الجيران للانضمام اليهن .

ويحدث عادة أن ترسل الأسرة فى استدعاء ندابة أو مدابنين (أى الباكية العمومية) . وتخصر كل منهما دفا غير مزود بالرقائق المعدنية المعتادة التى نراها فى الدفوف العادية . وتضرب هذه السوة على هذه الدفوف وهى تصبح : يا حسرة عليه ! ويمتدحن عامة المتوفى وجماله ... الخ وذلك بينما ترى نساء الأسرة والحاديات وصديقات المتوفى وقد انتقشنت شعورهن وأحياناً مزقن ثيابهن وهن يصحن بدورهن : يا حسرة عليه ! ويلطنن وجوههن .

ولا يلبث المغسل أن يخضر (أى غاسل المتوفى) ومعه مقعد طويل يرقد عليه جثة الميت . ونعش . فإذا كان المتوفى ذا مركز محترم يستدعى الفقراء الذين يشتركون فى موكب الخنازة الى منزل المتوفى . وفى أثناء مراسم غسل الجثة يجلس هؤلاء فى عرفة محاورة أو خارج البيت على باب الشقة . وبعضهم يقرأ أو يرتل سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) فيما يرتل الآخرون جزءاً من البردة وهى قصيدة مشهورة فى مدح الرسول . ويتزع الغاسل ملابس المتوفى التى تثول إليه على سبيل الصدقة . ثم يربط فكه ويغمض عينيه ويقوم للجثة بشعائر الوضوء العادى الذى يتم استعداداً للصلاة فيما عدا غسل الفم والأنف ويغسل من الرأس الى القدم

بالماء الساخن والصابون بليف النخل أو بماء يعلون فيه بعض أوراق الغبيراء الجافة المطحونة وماء الورد . ثم تربط قدماه وتوضع يده فوق صدره . والكفن . وهو رداء القبر بالنسبة للفقراء . يتكون من قطعة أو قطعتين من القماش القطنى تعد على شكل كيس . أما بالنسبة للرجل الرى فعادة يلف أولاً فى طبقة من الموسلين ثم فى ملاء من القطن أكثر سمكاً ثم فى قطعة من القماش الحريرى والقطن المقلم وأخيراً يلف فى شال من الكشمير . والألوان المفضلة لهذه الطبقات هى الأبيض والأخضر علماً بأنه يمكن استعمال جميع الألوان ماعدا الأزرق وكل ما يقترب منه . وحين تعد الجثة بهذه الطريقة من أحل الدفن توضع فى النعش الذى يغطى عادة بشال من الكشمير الأحمر أو من لون آخر . وحينئذ يقف الرجال الذين سيشترون فى الموكب حسب النظام المتبع . وهو بالنسبة للمواكب العادية كما يلى :

يتقدم الموكب ستة من الفقراء أو أكثر . وهؤلاء الرجال الذين يطلق عليهم اسم « البنية » يختارون دائماً من بين العميان . ويتلو هؤلاء الفقراء أقارب وأصدقاء المتوفى وفى مناسبات كثيرة ينضم الى الموكب عدد كبير من الدراويش وغيرهم من رجال الدين الذين يحملون رايات طوائفهم . ثم يأتى ثلاثة أو أربعة من الطلبة يحمل أحدهم مصحفاً (أى نسخة من القرآن) أو محلداً يعوى واحداً من الأجزاء الثلاثين للقرآن . ويوضع هذا الكتاب على ما يشبه المنضدة الصغيرة صنعت من عصيان صغيرة من خوص النخل ويغطى عادة بمنديل مطرز . وينشد هؤلاء الفتية بصوت

أعلى وأشد حماسة من صوت البغايا بعض فقرات من قصيدة تسمى هوبرنجة (كذا) Haubigxh تصف أحداث يوم الحساب .

وهؤلاء الطلبة الفتيان يتقدمون النعش مباشرة . ويحمل النعش بحيث يكون رأسه الى الأمام . وقد جرت العادة على أن يحمله أربعة من أصدقاء المتوفى لبعض الوقت ثم يحل محلهم غيرهم وهكذا على التوالي . وكثيرا ما يشترك المارة في هذه الجمالة مما يعتبر ذا مثوبة عظيمة .

ويتبع النعش عدد من النسوة يبلغ أحيانا العشرين وتحنى هؤلاء شعورهن المنفوشة بالحمار .

وتستطيع أن تميز النساء من قريبات أو خادومات المنزل بأن كل واحدة منهن تلف حول رأسها بعقدة واحدة لفة من القماش القطى أو الموسلين عادة زرقاء وترك الطرفين يتدليان على ظهرها^(٢٠) . وتحمل كل منهن كذلك منديلا يكون عادة مصبوغا باللون الأزرق ، يضعنه عادة على أكتافهن . وفي بعض الأحيان تلوى بعضهن هذا المنديل بأيديهن فوق رؤوسهن أو أمام وجوههن .

وفي بعض المناسبات ينتهى الموكب بثور جعل للذبح أمام النعش . يوزع لحمه بعد ذلك على الفقراء .

(٢٠) كثيراً ما نرى على جدران مقابر قدماء المصريين التي تتمثل عليها المشاهد الجنائزية نساء يحملن لفة مشابهة على رؤوسهن (جويرا دي مرقال) .

أما النقوش المخصصة للنساء والفتيان فتختلف عن نقوش الرجال . صحيح أن لها غطاء من الخشب يغطى بشال كما يحدث في نقوش الرجال ، إلا أن هذه النقوش تتميز بأن لها قطعة خشبية مستقيمة على الرأس تسمى الشاهد . وهذا الشاهد يغطى بشال ويوضع على الجزء الأعلى منه (حين تكون المتوفاة من الطبقة المتوسطة أو من الطبقة العالية) مختلف الزينات التي تستعملها النساء في تصفيف شعورهن . ولما كان الجزء الأعلى مسطحاً أو مستديراً فكثيراً ما يوضع فوقه ما يسمى «بالقرص» (وهو عبارة عن حلقة مستديرة من الذهب أو الفضة مرصعة بالماس أو الذهب المنقوش بزينات بارزة تضعه النساء في أعلى رؤسهن) . ومن الخلف تعلق الصفا (وهي عبارة عن عدد من الصفائر الحمرية السوداء المزدانة بحلى من الذهب . وتضيف النساء تلك الصفائر إلى صفائهن الأصلية وترتكها تتدلى فوق ظهورهن) . وتستطيع ان تتبين نقوش الصبيان بأن فوقها عمامة تكون عادة من الكشمير الأحمر وتوضع في أعلى الشاهد . وحين يكون الصبي صغير السن جداً يضاف إليها القرص والصفا . أما إذا كان الأمر يتعلق بطفل في سنواته الأولى فإن رجلاً يحمله بين يديه إلى المقابر . ولا يغطى جثمانه إلا بشال ، وأحياناً كذلك يضعونه في نعش صغير جداً يحمله أحد الرجال على رأسه .

ونتقل الآن الى وصف الشعائر والمراسم داخل المسجد وداخل

القبر .

وحين يدخل النعش إلى المسجد يوضع على الأرض في المكان المحدد
 للنعش بحيث يكون جانبه الأيمن متجها إلى مكة . ويقف الإمام على
 الجهة اليسرى من النعش ووجهه متجه إليه وفي اتجاه مكة . بينما يقف أحد
 رجال الدين الأقل درجة والمكلف بتكرار كلام الإمام . يقف لدى قدمي
 المتوفى . وبمصطف حضور الجنائز خلف الإمام وتقف النساء منفصلات
 خلف الرجال . ذلك لأنه من النادر ما يحظر عليهن دخول المساجد أثناء
 الاحتفالات . وحين يصطف الناس بهذه الطريقة يبدأ الإمام صلاة
 الجنائز ويبدأ بهذه الكلمات : « اقترح قراءة التكبيرات الأربع (وهي
 صلاة جنائزية تكرر فيها عبارة : « الله أكبر ») على الميت المسلم
 الحاضر » . وبعد هذه المقدمة يرفع الإمام يديه مفتوحة ويلمس بطرف
 إبهامه أعلى أذنيه ويصبح قائلا : « الله أكبر ! » ويقوم المبلغ بتكرار هذه
 الصيغة وكذلك يكررها جميع الأشخاص الواقفين خلف الإمام . وبعد
 أن يقرأ الفاتحة يصبح الإمام مرة أخرى قائلا : « الله أكبر ! » وبعد ذلك
 يضيف « اللهم صل على محمد النبي العظيم وعلى آله وصحبه وسلم ! »
 وللمرة الثالثة يصبح الإمام قائلا : « الله أكبر » ثم يستنزل رحمة الله على
 المتوفى ويتوجه إلى الحاضرين قائلا : « اشهدوا له » فيردون قائلين :
 « كان رجلا فاضلا » . ثم يرفع النعش وإذا كانت تلك المراسم قد تمت في
 مسجد أحد الأولياء المعروفين بوضع النعش أمام المقصورة ذات القضبان
 التي تضم رفات الولي . ويتلو بعض الفقراء وبعض الحضور صلوات
 جنائزية أخرى ثم تبدأ الجنائز من جديد المسيرة حسب الترتيب السابق

حتى المقابر . ومقابر القاهرة تكون عادة خارج المدينة في الجهات الصحراوية الواقعة إلى الشمال . أو الشرق أو الجنوب من سورها . والمقابر في المدينة قليلة العدد ومساحتها ليست كبيرة .

وسوف نقوم الآن بوصف دقيق لإحدى المقابر . فهي تتكون عادة من قمر يميل إلى الاستطالة وله سقف أشبه بالقبة . وهو مبني عادة من الطوب ومدحك بالجبس والقبر عميق لكي يستطيع من يدفن فيه أن يجلس حين يأتي المللكان منكر ونكير (كذا) لزيارته وحسابه . وأحد جوانب المقبرة يكون في اتجاه مكة أى إلى الجنوب الشرقى . أما مدخله فينتجه إلى الشمال الشرقى . وأمام هذا المدخل يوجد قبر صغير مربع الشكل مغطى بالحجارة التي تعبره من جهة إلى أخرى من أجل الحيلولة دون دخول التراب إلى القبو . وهذه الفجوة المبنية كما قلنا تعاد فتغطي بالتراب . ويبني فوق القبو أثر ذو استطالة يسمى « التركية » يكون عادة من الحجارة أو الطوب . وفوق هذا الأثر يوجد حجران متقابلان أحدهما فوق الرأس والآخر فوق الأقدام . وهذه الحجارة عادة غاية في البساطة ومع ذلك فمنها ما يزين بالزخارف . وعادة يحمل الحجر الذى فوق الرأس كتابة لآية من القرآن واسم المتوفى وتاريخ وفاته وهذا الحجر يعلوه أحيانا حجر منحوت يمثل شكل حامة أو طاقية أو ما أشبه ذلك من غطاءات الرأس مما يدل على مكانة الأشخاص المدفونين في القبر أو طبقتهم الاجتماعية . وفوق التركيبة الخاصة بالشيوخ الأجلاء أو بالأشخاص ذوي المكانة الرفيعة يبنى عادة مبنى صغير تعلوه قبة . وكثير من القبور التي بنيت تكريما لوجهاء

الأتراك أو المماليك تحتوى على تركيبات من الرخام مغطاة بغطاء على شكل قبة يستند إلى أربعة أعمدة من الرخام . وفى هذه الحالة فإن الحجر المقام فوق الرأس يحمل كتابات مذهبة على قاعدة لازوردية . وفى المقبرة الكبيرة الواقعة إلى الجنوب من القاهرة نشاهد الكثير من المقابر المبنية بهذه الطريقة . ومعظم مقابر السلاطين مساجد أنيقة .

وحيث إن القبر يفتح قبل وصول الجثمان فإن الدفن لا يتأخر إطلاقاً . ففى الحال يسحب دافن الموتى ومساعداه الجثمان من التابوت ويضعونه فى القبر وتفك الأربطة التى تحيط به . ويوضع على جانبه الأيمن أو بيمين يمين ناحية اليمين بحيث يكون الوجه فى اتجاه مكة . ويثبت فى هذا الوضع بواسطة بعض الطوب التى . وإذا كان غطاؤه الخارجى هو شال من الكشمير فإنه يمزق حتى لا تكون قيمته سبباً فى إغراء اللصوص على فتح القبر . ويضع أحد الحضور حفنة من التراب بالقرب من الميت وعلى جسمه ثم تغلق فتحة القبر بواسطة حجارة الغلق الموضوعة فوق الفجوة المربعة التى تسبقه ويضاف التراب الذى كان قد أبعد عنها . ثم تتم بعد ذلك شعائر يقوم بها الجميع ماعدا الأطفال صغار السن الذين لا يعتبرون مسئولين عما يقومون به من أعمال . ويقوم أحد الفقراء بعمل الملكين (كذا) أى معلم الموتى فيجلس إلى جوار المقبرة ويقول : يا عبد الله ! يابن أمة الله ! اعلم أن الآن ينزل ملكان أرسلاك إليك وإلى أمثالك . فعحين يسألونك : من ربك ؟ رد عليهما قائلاً : « إن ربي هو الله حقيقة . وحين يسألونك عن نبيك أو الرجل الذى أرسل إليك قل لهما : إنه محمد رسول

الله . وحين يسألونك عن دينك قل لها : إن ديني هو الإسلام . وحين يسألونك عن الكتاب الذى تتخذه أساساً لسلوكك قل لها : إن القرآن هو الكتاب الذى ينظم سلوكى والمسلمين إخوانى . وحين يسألونك عن دينك قل لها : لقد عشقت ومت على عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وحينئذ سيقول لك الملكان : أسترح يا عبد الله ! فى رعاية الله ! »

ويعتقد المصريون أن الروح تظل مع الجثمان خلال الليلة الأولى والتالية للدفن وأن حساب الملكين السابق ذكرهما واللذين يستطيعان تعذيب الجثمان يتم فى تلك الليلة .

والليلة التالية للدفن تسمى ليلة الوحشة (أى ليلة العزلة) حيث إن مكان المتوفى يظل مهجوراً .

وما أن تغرب الشمس حتى يؤتى باثنين أو ثلاثة من الفقراء إلى منزل المتوفى حيث يتناولون عشاء من الحساء واللبن فى المكان الذى توفى فيه الميت وبمس ذلك يقرءون سورة الملك (السورة ٦٧ من القرآن) . ولما كان ثمة اعتقاد بأن روح الميت تظل مع جثمانه خلال الليلة الأولى للدفن وبعد ذلك تتوجه إما إلى حيث توجد الأرواح الفاضلة حتى يوم الحساب الأخير أو إلى السجن الذى ينبغى الأشرار أن ينتظروا فيه مصيرهم النهائى ، وهذه الليلة كذلك تسمى ليلة الوحدة .

سكان مصر

من الصعب تقدير سكان بلد لا يسجل فيه لا المواليد ولا الوفيات . ومنذ سنوات أرادوا عمل تقدير حسابي لذلك مع أخذ عدد البيوت في مصر كلها في الاعتبار وافترض أن كل بيت في العاصمة يحتوى على ثمانية أشخاص وفي الأقاليم لا يزيد عدد سكان البيت الواحد عن ستة . وهذا التقدير يقترب كثيرا من الحقيقة ومع ذلك فإن نتيجة التقديرات لم تعط للمدينة كالايسكندرية وبولاق ومصر القاهرة الا متوسطا لا يزيد عن خمسة أشخاص أما رشيد فقد رأى أنها نصف مهجورة .

أما دمياط فهي كثيرة السكان ويمكن بسهولة أن يضم كل بيت فيها ستة أشخاص . وإذا لم نقبل هذه التقديرات فلن نصل إطلاقا إلى الرقم الاحتمالي لعدد سكان مصر . وإن إضافة شخص أو شخصين في كل بيت لكل هذه المدن لا يمكن أن تكون ذات تأثير كبير في تقدير عدد سكان مصر كلها الذين قدروا بـ ٢٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وضمن هذا العدد ثمة

١٢٠٠٠٠٠ من الذكور ثلثهم أى ٤٠٠٠٠٠٠ صالحوون للخدمة العسكرية . والطبقات المختلفة التى يتكون منها السكان هى تقريبا كما يلى :

مصريون مسلمون (وهم من الفلاحين وسكان المدن)
١٧٥٠٠٠٠ ، مسيحيون (أقباط) ١٥٠٠٠٠٠ ر ، عثمانيون أو أتراك
١٠٠٠٠٠ ، سوريون ٥٠٠٠٠٠ ر ، يونانيون ٥٠٠٠٠٠ ر ، أرمن ٢٠٠٠٠٠ .
يهود ٥٠٠٠٠ ر

أما الباقى ويبلغ عددهم تقريبا ٧٠٠٠٠٠ نسمة فيتكونون من العرب الغربيين والنوبيين والعبيد الزنوج والماليك (أو العبيد الذكور) ، والجوارى البيض ، والإفرنج ... إلخ ، ومن الصعب تصنيفهم . ولم يحسب عرب الصحارى المجاورة ضمن تقدير السكان هذا .

والمصريون من مسلمين وأقباط والسوريون ويهود مصر لا يتكلمون إلا العربية ، فيما عدا القليل من الاستثناء . والعربية هى اللغة التى يتحدث بها كذلك الأجانب المقيمون فى البلاد .

وتشتمل القاهرة على ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة . ونخطيء كثيرا لو أردنا الحكم على سكان هذه المدينة بالزحام القائم فى شوارعها الهامة والأسواق ذلك لأن الشوارع والأحياء الأخرى أقل كثيرا من ناحية تأهلها بالسكان .

(ملحق)

- ١ -

(الفنون لدى الشرقيين)

نمة فكرة ثابتة لدينا تمثل البلاد الشرقية على أنها عدوة للوحات والمنايل . وتلك فكرة قديمة ينبغي أن تصف بجوار الفكرة القديمة الأخرى التي نسبت إلى قائد عمر تهمة إتلاف مكتبة الإسكندرية . تلك المكتبة التي تبذرت بعد الحريق وتخريب السبرايوم وكان ذلك قبل قدوم ذلك القائد بكثير . (٢١)

ونعرف جميعاً أنه كان نمة لوحات مرسومة على الرق في قصر الحمراء في غرناطة . وأن أحد الملوك المور من حكموا هذه المدينة قد أقام تمثالاً لعشيقتة في مكان اسمها خديجة الفتاة Jaxdun de la Fille . ولقد قلت من قبل أننا نجد في إحدى قاعات السراى في القسطنطينية مجموعة من اللوحات لوجوه السلاطين قام برسم أقدمها مشاهير الرسامين مثل بلان

(٢١) يبدو أن جبرار كان راعياً في إبعاد كل مسئولية حول تخريب مكتبة الإسكندرية الشهيرة عن الشرقيين . انظر ما يقول عن ذلك في قصته « بات النار » ، أنجليك ، الخطاب الأول .

Bellin ودى فيس Devenise اللذين دعوا لهذا الغرض بأجر كبير .

بل لقد سنحت لى فرصة شهود معرض لوحات فى القسطنطينية أقيم خلال أعياد رمضان فى حى جالاتا Gialata بالقرب من مدخل قنطرة السفن التى تعبر القرن الذهبى . ومع ذلك فىنبغى الاعتراف بأن هذا المعرض كان يستحق الكثير من نقد الباريسيين . فقد كان تقسيم اللوحات محتفياً تماماً بينما كانت المناظر والأشياء الجامدة تسيطر على اللوحات فى وتيرة واحدة .

وكان ثمة ما يقرب من خمسمائة أو ستائة لوحة ذات إطارات سوداء يمكن تقسيمها كما يلى : لوحات دينية . لوحات معارك ، مناظر . لوحات بحرية ، لوحات حيوانات . والطائفة الأولى تتعلق بنقل أشكال جميع المساجد الهامة فى الامبراطورية العثمانية ، فهى إذن تمت إلى العمارة الخالصة فيما عدا بعض الأشجار التى تظهر قيمة المآذ . وكانت السماء الزرقاء والأرض سمنية اللون والطوب الأحمر والقباب الرمادية كانت كل ما نصل إليه تلك اللوحات قليلة التنوع التى يتحكم فيها نوع من العرف الكهنوتى . أما عن المعارك فقد كان تنفيذها يعوقه كثيرا الاستحالة الدينية فى تصوير أية مخلوقات حية حتى ولو كان الأمر يتعلق بحصان أو حتى جمل أو حتى حشرة الجمل . وتلك هى الطريقة التى كان يتصرف بها الرسامون المسلمون : كانوا يفترضون أن المشاهد بعيدة جدا عن مكان المعركة ، فكانت ثنيات الأرض والجبال والأنهار ترسم بمفردها مع بعض الوضوح ، أما خطط المدن وزوايا وخطوط القلاع والخنادق ومواقع التشكيلات

المربعة والمدفعية فتوضح بعناية كبيرة . وثمة مدافع كبيرة منطلقة ومذافع هاون ينبعث منها أقواس ملتهبة من القذائف التي تُحیی المنظر وتشكل الحركة فيه . وأحيانا يمثل الناس بنقاط . أما الخيام والأعلام فتبين الجتسيات المختلفة . وثمة ملاحظة مكتوبة في أسفل اللوحة تُخبر المشاهد باسم القائد المنتصر . وفيما يختص بالمعارك البحرية يصبح التأثير أكثر وقعاً بسبب وجود السفن حيث يكون الصراع بينها أكثر حركة وحياة . وحركة هذه السفن تكتسب كذلك الشيء الكثير من التأثير بسبب تصوير بعض مجموعات من الحيتان والحيوانات البرمائية التي يجعلون منها شهودا على الانتصارات الحربية للسفينة .

والواقع أنه من الغريب حقاً أن نرى أن الإسلام لا يسمع الا بتصوير بعض الحيوانات الموضوعة في عداد الوحوش . فهذا نوع من أبى الهول نصادف رسمه بالألوف في المقاهى ولدى الحلاقين في القسطنطينية . وهو عبارة عن رأس امرأة جميلة جداً على جسم هبغريف (حيوان خرافي مخنح) . ويتشعر شعرها الأسود الطويل على الصدر والظهر وعيناها الحائتان تحف بهما خطوط بنية وحاجباها المقوسان يتقابلان على جبينها . ويستطيع كل رسام أن بمنحها ملامح عشيقته وكل من يراها يستطيع أن يتخلم من خلالها بالمثل الأعلى للجبال لأنها تمثل مخلوقا سماويا هو البراق الذي حمل محمد إلى الجنة الثالثة^(٢٢)

(٢٢) قلنا ان لا داعى للتعلیق على مثل تلك الملاحظات ولتقبلها على سبيل المقامم الغريبة أو الدعابة الطريفة (المترجمة) .

تلك إذن هي الإمكانية الوحيدة لدراسة الوجوه . ولا يستطيع المسلم أن يعطى صورته لحبيته أو لأقربائه . ومع ذلك ثمة طريقة لمنحهم الصورة العزيزة بطريقة دينية سليمة بأن يكبر أو يصغر شكل المسجد الذى يروق له فى القسطنطينية أو غيرها على علب أو مداليات . ومعنى هذا أنه يريد أن يقول : « هنا يوجد قلبى ، وهو يحترق من أجلك تحت أنظار الله » .

ونجد بطول ميدان سيراسكييه Setasquier بالقرب من مسجد بايزيد حيث تطير الحمام بالآلاف ، صفًا من الحوائت للرسمين وصانعى الرسوم المصغرة . وهنا يأتى للعشاق والأزواج الأوفياء فى بعض المناسبات ويطلبون رسم هذه المساجد العاطفية : وبدلى كل واحد منهم بآرائه عن الألوان والمlichkeiten . وعادة يضيفون إلى الرسم بعض الأشياء التى تصور مشاعرهم .

ولا نفهم كيف أن الأرثوذكسية الإسلامية تسمح بوجوه خيال الظل الواضحة والدقيقة تماماً لاستخدامها فى القراقوز . ولا بد كذلك من ذكر بعض العملات والمداليات فى الماضى بل وكذلك بعض الرايات لدى الفرق القديمة للانكشارية التى كانت تحمل وجوه حيوانات . وتزين سفينة السلطان بنسر ذهبى ذى جناحين مفرودين .

• وثمة ظاهرة أخرى غريبة . فقد اعتاد الناس فى القاهرة تغطية منازل جميع الحجاج العائدين من رحلتهم إلى مكة بالرسوم . وذلك بلا شك لتصوير البلاد التى رآها الحاج . ذلك أنه فى تلك المناسبة وحدها

يسمح بتصوير الأشخاص الذين يصعب على المشاهد مع ذلك أن يتصورهم من الأحياء .

وهذا التعصب ضد الوجوه لا نصادفه ، كما هو معروف الا لدى المسلمين الذين يدّعون بمذهب عمر (كذا) ، ذلك أن المسلمين من مذهب على يملكون اللوحات والمصغرات من جميع الأشكال . ولذلك فلا ينبغي اتهام الإسلام ككل بموقف هادم للفنون . والخلاف يقع على تفسير نص مقدس يتبع الظن بأنه محظور على المرء أن يخلق الأشكال مادام لا يستطيع خلق الأرواح . وحدث ذات يوم أن قام رحالة إنجليزي برسم وجوه تحت أنظار أعرابي من الصحراء . فقال له هذا بلهجة غاية في الجدية : « حين تمثل جميع الوجوه التي ترسمها ، أمامك في يوم الحساب الأخير ويقول لك الله : ها هي قد أتت تشكو من أنها قد وجدت ومع ذلك لم تستطع الحياة فقد صنعت لها جسدا ، والآن امنحها الروح ! فماذا نجيب ؟ - فقال الإنجليزي :

« سأقول للخالق : مولاي ، أما عن خلق الأرواح فسوف تقوم أنت بتلك المهمة خير قيام فلا أستطيع مناصتك .. ولكن إذا كانت تلك الوجوه تبدو لك تستحق الحياة فامنحنى فضل إحيائها ! »

ووجد العربي هذا الرد مرضيا أو على الأقل لم يجد ما يرد به عليه . وقد بدت لي فكرة الرسام الإنجليزية غاية في الذكاء . فإذا كان الله حقا يريد يوم الحساب الأخير أن يمنح الحياة لجميع الوجوه المصورة أو المنحوتة بواسطة كبار الفنانين فإنه سيملا العالم بطائفة كبيرة من المخلوقات اللطيفة

التي تستحق الحياة في بيت المقدس الحديد ليوحنا الرسول .
ونلاحظ مع ذلك أن الأتراك قد أولوا الآثار الفنية في البلاد
الخاضعة لتفوذهم من الاحترام أكثر مما كان متوقعا . وإن الفن ليدین
بالحفاظ على مجموعة كبيرة من المائيل الآشورية واليونانية والرومانية إلى
سماحتهم واحترامهم للآثار ، ولولا ذلك لأتلفتها التطاحات الدينية عبر
العصور . ومما قيل في ذلك فإن تحطيم الأشكال الفنية لم يتم إلا في
العصور الأولى للتعصب حين ظر في بعض الشعوب أنها تتجه لعبادتها .

واليوم إن أكثر دليل على ساحة الأتراك في هذا الصدد يقدمه لنا
وجود مسلمة وسط ميدان أميدان nadimr. A. I. في مواجهة مسجد
السلطان سليم وقاعدتها مغطاة بالرسوم البيزنطية البارزة تتميز فيها أكثر من
ستين وجهاً احتفظ بها في حالة جيدة تماماً . ومن الصعب تعديد المائيل
الأخرى التي تمثل كائنات حية وقد احتفظ بها في القسطنطينية بخلاف
تلك التي توجد في الكنائس الكاثوليكية . هي قبة أيا صوفيا كانت وجوه
الرسائل المصنوعة من الفسيفساء قد غطيت بطبقة من الألوان ورسم عليها
أشكال عربية من الزهور . أما بشارة العذراء فقد غطيت فقط بغطاء (٢٣) .

(٢٣) إن إعادة حالة كنيسة أيا صوفيا على ما كانت عليه قد قام على تنفيذها اليوم السادة الإخوة
فوساني . وأعيدت حالة لوحات الفسيفساء حسب الرسوم التي وصفها مسيو فورناري .
ونعم بحث شيق عن تلك الإعادة بقلم مسيو نوجيس Mr. Nogues (ملاحظة جيرار) .
والأمر يتعلق هنا ولا شك بفرنسوا نوجيس رئيس تحرير جريدة القسطنطينية Journal de
Constantinople .

وفى كنيسة الأربعين شهيدا التى تقع بالقرب من قناة فالنسيا
Valens لم تمس اللوحات الفسيفسائية رغم أن المبنى قد تحول إلى
مسجد .

ولكى انتهى من الحديث عن الرسوم التى يسمح بعرضها للجمهور
أذكر ملهى ليليا يقع فى طرف يبرا على حافة الطريق الذى يفصل هذه
الضاحية عن قرية سان - ديمترى . وهذا الطريق كونه مجرى أحد
الأحراش حيث كانت تنساب مياه جدول صغير يتحول إلى نهر فى الأيام
العاصفة . والموقع من أجمل المواقع التصويرية بفضل الأفق المتغير بسبب
التلال التى تمتد من ساحة الموتى الصغيرة إلى الشاطئ الأوربى للبوسفور .
وتمة منازل مطلية محتلطة بالحضرة قد كرس معظمها لأن يكون حانة ريفية
أو مقاهى ترسم بالثلاث على قمم وسفوح المرتفعات . ويندفع جمهور
محتلط من مختلف الألوان حول هذه الأبنية المتنوعة فى حى الحانات الريفية
الإسلامية حيث يضم أذنك باعة الفطائر والمقليات والفاكهة والبطيخ
بصياحهم العجيب . فتسمع اليونانيين مهم يصيح : a dka Paras (أى
١٠ بارات والبارة أكثر قليلا من الفلس) ؛ ثم ترى أهرامات من سنابل
الذرة المسلوقة فى ماء مضاف إليه الكركم . ولندخل الآن إلى الحانة : إن
داخلها شاسع المساحة شمة أروقة عالية ذات درابزين من الخشب
الخروط تحيط بالقاعة الكبيرة . وإلى اليمين يوجد عداد صاحب الحان ،
وهو مشغول دوماً فى صبب أنبذة تينيدوس Tenedos فى أكواب بيضاء

ذات يد يتلألاً فيها السائل العنبرى . وفى عمق القاعة توجد أفران الطبخ الغاصة بطائفة كبيرة من التوابل . ويجلس الرواد للعشاء على كراس صغيرة بلا ظهر أمام موائد مستديرة لا ترتفع إلا إلى ارتفاع ركبة الساق . ويجلس من لا يرغبون إلا فى الشراب بالقرب من الباب أو على مقاعد وضعت بطول دوران القاعة .

وهنا يبدو اليونانى بطربوشة الاحمر والأرمنى بذقنه الطويلة . والكلبك Kalpak الأسود واليهودى ذو العمامة الرمادية يبدون تحرهم من تعلمات محمد . ومن مكملات تلك اللوحة الزخارف المحلية التى أردت التنويه بها والتى تتكون من طائفة من الوجوه والأشكال التى رسمت على لوحة كبيرة على حائط الحان . إن اللوحة تمثل متزها للمجتمع ويرجع حسب ماتدل عليه الملابس إلى نهاية القرن الماضى . ترى على اللوحة قرابة عشرين شخصا ذوى أطوال طبيعية بملابس مختلف البلاد يسكن أبنائها القسطنطينية . فتجد فيهم الفرنسى بملابس حكومة الديركتوار مما يدل على التاريخ الدقيق الذى رسمت فيه اللوحة . والألوان مازالت محتفظ بها والتنفيذ مرض جداً بالنسبة لرسم من العهد البيزنطى الحديث . وعمة لمحة ساخرة تحتوى عليها اللوحة تدل على أن من قام بها ليس رساماً أوربياً ذلك أنك ترى فيها كلباً يرفع قدمه للعبث بجوارب الرجل الأنيق الذى يحاول بلا جدوى أن يصده بدرهم . تلك فى الواقع هى اللوحة الوحيدة التى يتمثل فيها أشخاص وتعرض للجمهور والتى استطعت اكتشافها فى القسطنطينية . وهكذا نرى أنه لس من العسير على أى فنان أن يعرض

(٢٤)
مواجهه على أصحاب الحانات كما كان يفعل لتارا Lantara ولم يبق أمامي
إلا الاعتذار عن طول هذه المذكرة التي يمكن الاستفادة منها على الأقل في
تخطيط فكرتين أورييتين خاطئتين وذلك بإثبات أنه توجد في بلاد الأتراك
لوحات وحانات . والكثير من فنانينا يعيشون هناك حياة طيبة للغاية برسم
وجوه القديسين للأرمن واليونانيين .

(٢٤) رسام هولندي (١٧٢٩ - ١٧٧٨) هو بطل مسرحية لفرليه لباريه Barre باسم لانتارا أو رسام
الخان (١٨٠٩) . ويتحدث عنه أرسين هوسى a. Houssay صديق جيرار في رواق الوجوه
في القرن الثامن عشر Galerie de Portraits du XVIII .

خطاب عمرو

كانت قصة الخليفة الحاكم بالنسبة للمؤلف ذريعة لاتمام وصف القاهرة الحديثة بوصف للقاهرة القديمة الخاصة بذكریات أجمل العصور التاريخية .

ونمة مستند لا ينبغي نسيانه كأول انطباعة عن مصر بعد أن أصبحت إسلامية ، ذلك هو الخطاب الذى كان قد وجهه عمرو إلى الخليفة عمر الذى كان قد طلب إليه بعض التفاصيل عن ذلك الذى أتم غزوه منذ قليل . وهذا الخطاب هو (٢٥) « من عبد الله ابن العاصى ابن فاى (Vail) السحامى (كذا) إلى خليفة رسول الله الذى أولاه الله السلام والرحمة . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأحد الخلفاء المتبعين للطريق القويم ، الذى تلقيت خطابه وقرأته ومهمت ما يطلبه . ولذا طأى أريد أن

(٢٥) هذه ترجمة لما زعم جبرار بأنه الخطاب الموجه من عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ومسئولية صحة هذا الكلام من عدمها تقع على جبرار وحده .

أنتزع من فكره سحابة الشك بصدق حديني . وإن القوة والسلطان من الله وكل شيء مآله إلى الله واعلم يا مولاي أمير المؤمنين أن بلاد مصر ليست إلا أراضى سوداء ونباتا أخضر بين جبل معبر ورميل محمر . وبين جبلها ورميلها توجد سهول رفعت ومرتفعات خفضت . ويحيط بها منحدر يمنحها ما تتعيش به ويمتد من أسوان حتى آخر الأرض وإلى شاطئ البحر . مسيرة شهر بالنسبة لرجل على صهوة جواده . وفي وسط البلاد يهبط نهر مبارك في الصباح وترعاه السماء في المساء ينساب وهو يزيد وينقص حسب دورة الشمس والقمر . وله زمن تنفتح له فيه ينابيع وعيون الأرض بأمر خالقها الذي يحكم سر يانه ويطلقه لكى يمنح للإقليم ما يتعيش منه فيجرب حسب ما يؤمر حتى تنفتح مياهه وتدور أمواجه في صخب . وحين تصل أمواجه إلى أقصى ارتفاعها لا يستطيع سكان القرى المرور من قرية لأخرى إلا بالقوارب الصغيرة فترى الزوارق تلف وتدور وتدو كجمال سوداء وبيضاء في بحيلة رائيتها . وحين يصل إلى تلك الحال يبدأ في الدوران إلى الحلف وإلى الانحسار في محراه كما خرج منه من قبل حين ارتفع شيئا فشيئا . وحينئذ يستعد أنشط الناس وأكسلهم للعمل . ويتشرون في الريف في فرق منها رجال القانون الذين يحرسهم الله والحلفاء الذين يحجبهم الناس . تراهم يسرون كالثمل بعضهم ضعيف وبعضهم قوى أمام المهمة التي انيطوا بها . وتراهم يشقون الأرض وما تشرب منها ويلقون فيها بجميع أنواع الحبوب التي يطلبون مضاعفتها بعون الله . ولا تتأخر الأرض قط في أن ترتدى بعد سواد سهادها حلة خضراء وتنشر رائحة ذكية طيبة

أنتبتها للسيقان والأوراق والسنابل فيكون منظراً هيبجاً وأملاً طيباً حيث إن
الندى يروها من عل وتغذى الرطوبة نتاجها من أسفل . وفي بعض
الأحيان تأتي بعض السحب بمطر قليل وفي بعض الأحيان لا تسقط إلا
قطرات من الماء وفي بعضها لا يسقط شيء قط . وبعد ذلك يامولاي أمير
المؤمنين تعرض الأرض زخرفها وتستعرض محاسنها وتسعد سكانها
وتطمئنهم على أنهم لا بد حاصدو ثمراتها لغذائهم وغذاء مطاياهم ولنقل
بعضها إلى الخارج ومضاعفة مواشيتهم . وهي تبدو اليوم يامولاي أمير
المؤمنين كأرض مقفرة ثم لا تلبث أن تتحول إلى بحر أزرق أو لؤلؤة بيضاء
ثم كطمي أسود ثم كبساط أخضر ثم كوشى مختلف الألوان أو كدائب
الذهب الأحمر . وحينئذ يحصد قمحها ويضرب لاستخراج الحبوب التي
تمر بين أيدي الرجال فيأخذ منهم ماله ويأخذ منهم ما ليس له . وهذه
التفاصيل تعود كل عام كل حال في وقته بأمر الله القادر وقدره : فالحمد
لله العظيم وتبارك أفضل الخالقين . أما عن ما هو ضروري لصيانة هذه
الأعمال مما يجعل البلاد أكثر سكاناً وأفضل زراعة والحفاظ عليها في حالة
طيبة ودفعها للتقدم لما هو أفضل فحسب ما قال لنا العالمون بأمورها ممن
كانوا يمسكون بزمام حكمها بين أيديهم فقد لاحظنا بصفة خاصة ثلاثة أمور
أولاً هو عدم تقبل الحبيث من القول الذي توجهه الغوغاء ضد أعيان
البلاد حسداً منها وجحوداً للخير الذي يقدم إليها . والأمر الثاني هو
استخدام ثلث الجزية التي تجبي في صيانة القناطر والطرق ، والأمر الثالث
هو ألا تجبي الجزية عن نوع إلا إذا كان في أوج نضجه . ذلك هو وصف
مصر يا مولاي أمير المؤمنين الذي تستطيع منه أن تعرفها كما لو كنت قد

رأيتها بنفسك . ليحفظك الله في حسن تصرفك ومجمل حركاتك
لامراتورك سعيداً ويساعدك في تحمل المسئولية التي فرضها عليك .
والسلام عليك والحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه » .

ديانة الدروز^(٢٦)

سؤال : هل أنت درزى ؟

جواب : نعم يعون سيدنا ومولانا القدير

سؤال : وما هو الدرزى ؟

(٢٦) ديانة الدروز هذه عبارة عن تركيبة من مصادر مختلفة أهمها سيلفسر دى ساس (عرض لديانة الدروز ١٨٣٨) والديانة التي نشرها الشيكاليه رينو Regnault في نشرة للجمعية الجغرافية (يناير ١٨٢٧) ويقال حول تاريخ السباية للبارون دى بولك de Bock ١٧٨٨ (أنظر ج ريشيه G. Richer مجلة تاريخ فرنسا الأدنى يناير - مارس ١٩٥٣) وجدير بالذكر أن المكتبة الأهلية تلك هطوطاً بالعربية عن ديانة الدروز (معرض مرقال ١٩٥٥ رقم ١٨٩) وقد يكون هذا النص هو الأصل الذي ترجمه مرقال لأنه قريب منه . وهذا يعمل حل الإحتقاد بأن جيرار قد يكون إسمعان كذلك بتصوص عربية . ونذكر في هذا العدد أنه حكى في « رحلة إلى الشرق » كيف أنه إرتبط بالصدقة لدى مغادرته لصر بأرضى إستخدمه بعد ذلك بإشأ عكا كمنزجم (نساء القاهرة ٧ - ٤) .

جواب : هو الذى كتب الشريعة وعبد الخالق

سؤال : وما هو الذى أمرك به الخالق ؟

جواب : الصدق ومراعاة دينه ودين الأحوال السبعة

سؤال : ما هى الواجبات الصعبة التى اعفاك منها المولى وألغاها ، وكيف تعرف أنك درزى حق ؟

جواب : بالبعد عن الحرام وإتيان ما هو حلال

سؤال : وما هو الحرام والحلال ؟

جواب : الحلال ما هو خاص برجال الدين والزراعة والحرام هو ما يتعلق بالأماكن الوقتية والمرتدين

سؤال : متى وكيف ظهر مولانا القدير ؟

جواب : سنة ٤٠٠ من هجرة محمد . وكان يقول وقتئذ أنه من نسل محمد إخفاء لألوهيته .

سؤال : ولماذا كان يريد إخفاء ألوهيته ؟

جواب : لأن ديانتهم كانت مهمة وكان عدد من يعبدونه قليلا .

سؤال : ومتى ظهر مبدىا ألوهيته ؟

جواب : سنة ٤٠٨

سؤال : وكم من الوقت مكث على هذه الحال ؟

جواب : سنة ٤٠٨ بأكملها ثم اختفى سنة ٤٠٩ لأنها كانت عام نحس . ثم عاد فظهر في بداية سنة ٤١٠ وظل ومكث طوال عام ٤١١ وأخيرا في بداية سنة ٤١٢ اختفى عن الأعين ولن يعود إلا يوم الحساب .

سؤال : وما هو يوم الحساب ؟

جواب : هو اليوم الذى يتجلى فيه الخالق بوجه بشر ويحكم العالم اجمع بالقوة والسيف

سؤال : ومتى يحدث هذا ؟

جواب : هذا أمر غير معروف . إلا أنه ستكون له دلائل تنبئ عنه

سؤال : وما هى هذه الدلائل ؟

جواب : حين يتغير الملوك ويتفوق المسيحيون على المسلمين

سؤال : وفى أى شهر يحدث ذلك ؟

جواب : فى شهر دجهاز (كذا) وشهر رجب^(٢٧) حسب التاريخ الهجرى

(٢٧) رجب كتبها جبرار رجد - هنا يضيف جبرار ملاحظة عن النصارى أو الأنصارى والمتولية وأنها شوب من لبنان من مقاطعتى طرابلس وصيدا .

سؤال : وكيف يحكم الله الشعوب والملوك؟

جواب : سوف يتجلى بقوة السيف ويسلبهم الحياة جميعاً

سؤال : وبعد موتهم ماذا يحدث؟

جواب : سوف يولدون من جديد بأمر القدير الذى سوف يأمرهم بما يشاء

سؤال : وكيف سيعاملهم؟

جواب : سوف يقسمون إلى أربعة أقسام هى: المسيحيون - اليهود - المرتدون وعباد الله المخلصون

سؤال : وكيف ينقسم كل دين من هذه الديانات؟

جواب : المسيحيون سينشأ عنهم مذهب النصراني والمتولية^(٢٨) ، واليهود سوف يخرج منهم الأتراك . أما المرتدون فهم الذين تركوا دين الله .

سؤال : وكيف يعامل الله من يعبدون وحدانيته؟

جواب : سوف يعطيهم الامبراطورية والملكية والسلطة والأموال والذهب والقبضة . وسوف يبقون فى العالم أمراء وباشوات وسلاطين .

سؤال : والمرتدون؟

(٢٨) انظر الملاحظة فى الصفحة السابقة .

جواب : إن عقابهم لفظي . ويتلخص في أن غلاءهم حين يريدون أكلًا أو شربًا يصبح مراكمًا أنهم سيصبحون عبيداً ويتمرضون لأقصى المتاعب لدى عباد الله المخلصين . وسوف يتحمل اليهود والمسيحيون نفس ألوان العذاب إلا أنها ستكون أخف كثيراً .

سؤال : كم مرة تجلى فيها مولانا في صورة بشرية ؟

جواب : عشر مرات تسمى « محطات » . والأسماء التي حملها هي على التوالي : العلي - البار - علي - المعلي - القيم - الماص (كذا) - العزيز - أبوزكريا - المنصور - الحاكم .

سؤال : وأين كانت أولى المحطات أى محطة العلي ؟

جواب : في مدينة من مدن الهند تسمى رشين - مارتشين - Rhine-- ma - Tchine .

سؤال : وكم مرة ظهر حمزة وكيف تسمى في كل مرة ظهر فيها ؟

جواب : لقد ظهر سبع مرات في القرون المتتابعة ابتداء من آدم حتى النبي الصامد . وكان في قرن آدم يسمى شاتنيل chattinl . وفي قرن نوح كان يسمى فيثاغورث . وكان داود هو الاسم الذي حملته في زمن إبراهيم . وفي زمن موسى باسم شعيب وفي زمن عيسى تسمى باسم المسيح الحق أو لازار وفي زمن محمد كان اسمه سليمان الفارسي . وفي زمن سيد كان اسمه صالح .

سؤال : اخبرنى عن أصل كلمة درزى

جواب : هذا الاسم مشتق من طاعتنا للحاكم بأمر الله ، وهذا الحاكم هو سيدنا محمد بن اسماعيل الذى كان يتجلى نفسه بنفسه ولنفسه .
وحين يتجلى كان الدروز بأمره يدخلون فى طاعته مما جعلهم يسمون بالدروز لأن الكلمة العربية اندرز أو اندرج لها نفس معنى دربب darbeb (كذا) ومعناها يدخل . ومعنى ذلك أن الدروزى قد كتب الشريعة وتشيع بها ودخل فى طاعة الحاكم .
ويمكننا أن نجد أصلا آخر بكتابة كلمة درزى بالسین وحینئذ يكون أصلها درس يدرس ويكون معنى ذلك أن الدروزى قد درس كتب الحاكم وعبد الله القدير كما ينبغى له أن يعبد .

سؤال : وما هى نيتنا حين نعبد الإنجيل ؟

جواب : لتعلم أننا نريد من ذلك تعظيم اسم ذلك الواقف بأمر الله وهو حمزة لأنه هو الذى نطق بالإنجيل . وعلاوة على ذلك فن الملائم أن نعترف بديانة كل أمة . فنحن نعبد الإنجيل لأن هذا الكتاب يركز على الحكمة الإلهية وأنه يحمل العلامات الأكيدة للدين الحق .

سؤال : ولماذا نرفض أى كتاب آخر غير القرآن حين نسأل فى هذا الموضوع ؟

جواب : لأننا فى حاجة إلى ألا نعرف على ما نحن حين نوجد وسط معتق

مذاهب الإسلام . فمن المناسب إذن أن نعرف بكتاب محمد .
ولكى لا يساء الحكم علينا اعتنقنا جميع الشعائر الإسلامية
بما فيها الصلاة على الموتى وكل هذا فى الظاهر فقط حتى نظل
مجهولين .

سؤال : وماذا نقول عن هؤلاء الشهداء الذين يجد المسيحيون كثيرا
شجاعتهم وكبر عددهم ؟

جواب : نقول ان حمزة لم يعترف بهم قط حتى ولو كان جميع المؤرخين قد
شهدوا بوجودهم .

سؤال : ولكن إذا أتى المسيحيون وقالوا لنا إن دياباتهم ليست موضع شك
لأنها تستند إلى براهين أقوى وأكثر مباشرة من أقوال حمزة فماذا
نحجب ، وكيف اعترفنا بعدم قابلية وقوع حمزة فى الخطأ ، هذا
العمود من أعمدة الحق الذى يأتينا السلام عن طريقه ؟

جواب : بالشهادة التى أدلى بها هو نفسه عن نفسه حين قال فى قصيدة
باب الحكم والدفاع : « إني أولى خلق الله . إني صوته
ومقصده ، وإن لى العلم بأمره . إني القلعة والبيت المشيد إني سيد
الموت والبعث ، إني من سينفخ فى الصور وإني سيد الكهنوت
وسيد النعمة الإلهية ، البانى والهادم للعدالات ، إني ملك العالم
وهادم الشهادات إني النار المتهمة »

سؤال : وما هو الدين الحقيقى للقساوسة الدروز ؟

جواب : إنه ضد كل عقيدة لأية أمة أخرى أو قبيلة وكل ما هو حرام لدى الآخرين نعتقد نحن فيه كما ذكرنى باب « الحديعة والنذير » .

سؤال : ولكن إذا تعرف شخص على ديانتنا واعتقد فيها وسار بمقتضاها فهل ينقد ؟

جواب : أبدا : فالباب مغلق واتهى الأمر وكسر القلم . وبعد الموت سوف تلحق روحه بأمته الأولى وديانته الأولى .

سؤال : ومتى خلقت جميع الأرواح ؟

جواب : خلقت بعد الحبر حمزة بن على . فبعده خلق الله من النور جميع الأرواح وعددها محدد لا ينقص ولا يزيد حتى نهاية القرون .

سؤال : وهل ديننا العظيم يقر مبدأ السلام بالنسبة للنساء ؟

جواب : بلا شك لأن مولانا قد كتب فصلا عن النساء ولقد أطلعن لغوهن كما هو مذكور فى باب قانون النساء وكذلك فى باب البنات .

سؤال : وماذا نقول فى بقية الأمم التى تؤكد أنها تعبد الله خالق السماء والأرض ؟

جواب : مهما قالوا ذلك فهو قول خاطيء مهما عبدوه حقا وإذا كانوا يعرفون أن المولى هو الحاكم نفسه فإن عبادتهم خرق للدين .

سؤال : من من القدامى علم حكمة الخالق إلى هؤلاء الذين أقروا أسس ديانتنا ؟

جواب :إنهم ثلاثة وأسماؤهم هي : حمزة وإسماعيل وبهاء الدين

سؤال : وإلى كم قسم ينقسم العلم ؟

جواب : إلى خمسة أقسام : قسمان منها يتميان إلى الدين واثنان آخران للطبيعة . أما الجزء الخامس وهو أكبرها جميعا فلا ينقسم إطلاقا . إنه العلم الحقيقي ، علم الحب والله .

سؤال : كيف نعرف أن هذا الرجل أو ذاك أخ لنا يرعى الدين الحق إذا ما صادفناه في الطريق أو إذا اقترب منا وهو يمر بنا وقال إنه درزي ؟

جواب : هو ذاك : بعد الهجمات العادية نقول له : « هل يزرعون في بلادك حبوب الأهلilig (نبات هندي ذو ثمر) ؟ » فإذا أجاب قائلا : نعم إنهم يزرعونه في قلب المؤمنين « حينئذ نسأله عن ديانتنا ، فإذا رد ردوداً صحيحة فهو مواطن لنا وإذا لم يفعل فهو ليس إلا غريبا

سؤال : ومن هم آباء ديانتنا ؟

جواب : إنهم أنبياء الحاكم وهم : حمزة وإسماعيل ومحمد والكليم وأبو الرهير^(٢٩) وبهاء الدين

(٢٩) ربما يقصد أبا هريرة (للترجمة) .

سؤال : وهل الجهلاء من الدروز يحصلون على السلام من قبل الحاكم أو يكون لهم عمل معين لديه إذا ماتوا وهم في هذه الحالة من الجهل ؟

جواب : ليس ثمة سلام بالنسبة لهم على الإطلاق وسوف تضرب عليهم الذلة والعبودية لدى مولانا إلى خلود الخلود .

سؤال : وما هو دوماسا Doumassa ؟

جواب : إنه آدم الأول ، إنه أرخنور Arkhnour ، إنه هرمس ، إنه إدريس ، إنه يحيى ، إنه إسماعيل بن محمد التيمى ، وفي عصر محمد بن عبد الله كان يسمى بالمقداد

سؤال : وما هو القديم والخالد ؟

جواب : القديم هو حمزة والخالد هي الروح أخته .

سؤال : وما هي أقدام الحكمة ؟

جواب : إنهم المبشرون الثلاثة

سؤال : ومن هم ؟

جواب : يحيى ومرقص ومتى

سؤال : وكم من الوقت ظلوا يبشرون ؟

جواب : احدى وعشرين سنة بشر كل منهم منها سبع سنوات .

سؤال : وماهى هذه الأبنية فى مصر التى يسمونها الأهرام ؟

جواب : هذه الأهرام بناها الله القدير لبلوغ غرض مملوء بالحكمة عن له فى قدرته الإلهية .

سؤال : وماهو هذا الغرض المملوء بالحكمة ؟

جواب : هو أن يحتفظ فيه إلى يوم الحساب حيث تكون أوبته الثانية ، بالحجج والإبراءات التى حصلت عليها يده الإلهية من جميع المخلوقات .

سؤال : ولأى سبب تجلى لدى كل قانون جديد ؟

جواب : لإشعال الحماس فى عبيد دينه الحق حتى يثبتوا عليه ويعلموا أنه هو الذى يغير إرادته العدالة وحتى لا يؤمنوا بأحد غيره .

سؤال : وكيف تعود الأرواح إلى الأجسام ؟

جواب : كلما يموت رجل يولد آخر وهكذا نشأ العالم .

سؤال : وكيف يسمى المسلمون ؟

جواب : التتزيل

سؤال : والمسيحيون ؟

جواب : التأويل . وهاتان التسميتان يعنيان بالنسبة للمسيحيين أنهم
فسروا أقوال الإنجيل ، وبالنسبة للمسلمين القول الشائع بأن
القرآن نزل من السماء

سؤال : وماهى إرادة الله فى خلق الجن والملائكة الذين تحدث عنهم
كتاب الحكمة لحمزة ؟

جواب : الجن والأرواح والشياطين مثلها مثل نظرائها من البشر الذين لم
يستجيبوا لدعوة مولانا الحاكم . والعفاريت هى أرواح أمام
المجسدين . أما الملائكة فيجب أن تتمثلهم كالعباد الحقيقيين لله
الذين لبوا دعوة الحاكم وهو المولى الذى يعبد فى جميع ثورات
العمر

سؤال : وماهى ثورات العمر ؟

جواب : إنها عدالة الأنبياء الذين ظهوروا الواحد تلو الآخر واعترف بهم
معاصروهم بنبوتهم مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد
وسيد . وكل هؤلاء الأنبياء ما هم إلا روح واحدة مرت من
جسد إلى آخر ، وهذه الروح وهى الشيطان الحارس اللعين
لابن ترماح Ebn * Termahh وكذلك شيطان آدم العاصى
الذى طرده الله من الجنة أى أن الله حرمه من التعرف على
وحدانيته .

سؤال : وكيف كان استخدام الشيطان لدى مولانا ؟

جواب : لقد كان عزيزا عليه إلا أنه شعر بالغرور ورفض طاعة الوزير حمزة ولذلك فقد لعنه الله وطرده من الجنة .

سؤال : وما هم هؤلاء الملائكة الذين يحملون عرش الله ؟

جواب : هم الخمسة الأول الذين يسمونهم : جبريل وهو حمزة وميكائيل وهو الأخ الثاني وإسرافيل سلامة ابن عبد الوهاب ، وعزرائيل بهاء الدين ، ومتatron على ابن أحمد وهؤلاء هم الوزراء الخمسة الذين يسمون بالسابق والثاني والجسد والريثة
ElRathh (٣٠) والقيال (٣١) . ElFhial

سؤال : وماهى النساء الأربع ؟

جواب : إن اسماءهن هى : اسماعيل ومحمد وسلامة وعلى وهن : الكلمة والنفس وبهاء الدين وأم الخير .

سؤال : وماهو الإنجيل الذى أنزل على المسيحيين وماذا نقول نحن عنه ؟

جواب : إن الإنجيل قد صدر حقا من فم الله مولى المسيح الذى كان اسمه سلمان الفارسى فى عصر محمد . والمسيح هو حمزة ابن على . أما المسيح الدجال فهو الذى ولدته مريم لأن هذا المسيح هو ابن يوسف .

(٣٠) جبرار يشرح هذه الكلمة على أن معناها الفتحة .

(٣١) جبرار يشرح هذه الكلمة على أن معناها الفارسى وربما يقصد الخيال .

سؤال : وأين كان المسيح الحقيقي حين كان هذا مع حواريه ؟

جواب : كان بين هؤلاء الحوارين . وكان يعلم الإنجيل ويعطى التعليمات للمسيح ابن يوسف ويقول له : « افعل هذا وذاك طبقاً لتعاليم الدين المسيحى وكان ابن يوسف بطيعه . ومع ذلك فقد أضمر اليهود الكراهية للمسيح الدجال وصلبوه .

سؤال : وماذا حدث بعد صلبه ؟

جواب : لقد وضعوه فى قبر . وأتى المسيح الحقيقى وأخفى الجسد من القبر ودفنه فى الحديقة ثم أشاع أن المسيح قد بعث حيا .

سؤال : ولماذا تصرف المسيح الحقيقى بهذه الطريقة ؟

جواب : للإبقاء على الدين المسيحى ومنحه القوة .

سؤال : ولماذا جبد الكفر كذلك ؟

جواب : حتى يستطيع الدروز أن يتخفوا تحت غطاء من الدين المسيحى فلا يعرف أحد أنهم دروز .

سؤال : ومن هو الذى خرج من القبر الذى عاد إلى الحوارين والأبواب مغلقة ؟

جواب : إنه المسيح الحى الذى لا يموت أبداً وهو حمزة .

سؤال : وكيف حدث أن المسيحيين لم يتحولوا إلى دروز ؟

جواب : لأن الله أراد ذلك .

سؤال : ولكن كيف يقبل الله الشر والكفر؟

جواب : لأن عاداته المستديمة هي أن يصلح البعض ويهدى البعض الآخر كما قيل في القرآن « أعطى الحكمة لمن يشاء وحرم منها من يشاء » (٣٢)

سؤال : ولماذا أمرنا حمزة بن علي بإخفاء الحكمة وعدم كشفها؟

جواب : لأنها تحتوي على أسرار وإبراءات مولانا ولا ينبغي أن يكشف لأحد عن أشياء يمكن فيها سلام الأنفس وحياة الأرواح .

سؤال : إننا لاذن مصابون. بالأثرة إذا كنا لا نريد الخلاص للجميع؟

جواب : ليس ثمة أثر في ذلك على الإطلاق لأن الدعوة غير قائمة ، والباب مغلق والكافر هو الكافر والمؤمن هو المؤمن وكل شيء كما ينبغي أن يكون .

والصيام الذي تقرر منذ القدم قد ألغى ولكن إذا صام الرجل في غير الوقت المحدد لذلك وعذب نفسه بالصيام فإن ذلك أمر حميد لأنه يقربنا من الذات الإلهية .

سؤال : لماذا ألغيت الصدقة؟

(٣٢) هذه بالطبع هي أقوال جبار وليست آية من القرآن .

جواب : ان الصدقة لدينا نحو إخوتنا الدروز مشروعة ، إلا أنها جرمعة
بالنسبة لأى أحد آخر ولا يجوز ارتكابها

سؤال : وما هو الغرض الذى يبنى المنزلون الذين يعذبون أنفسهم بلوغه

جواب : هو أن يستحق كل منهم حين أوبة الحاكم أن يعطيه وزارة أو
ولاية أو حكومة كل حسب عمله .

أسطورة سليمان

لا ينبغي أن ندهش للاتجاه الفلسفى . وإذا شئنا . الفولتيرى لهذه القصة . فإن أغلب القصص العربى والفارسى قد تشكل بهذه الروح . بل غالبا ما تؤخذ الأمور الغريبة على عمل الجذ : ومثال ذلك أننا نجد فى سوريا آثارا عديدة للديانة القابيلية أو ديانة أبناء قابيل (٣٣) .

ولقد هاجم القرآن فى مواقع عديدة غرور سليمان وارتكابه المحرمات فى الفترة الأخيرة من حكمه (٣٤) . وغى عن الذكر أن بعض أجزاء تاريخ التوراة تتخذ آفاقا جديدة بمرورها عبر العبقريّة العربيّة . وربما لا يدرك الأوروبيون إلا بصعوبة ما يقصده الشرقيون بالأجناس قبل الآدمية . فهم يفترضون أن الأرض قبل أن تصبح ملكا للإنسان كان يسكنها لمدة سبعين

(٣٣) لا سببا لدى الفريديين (ملاحظة جبرار) .

(٣٤) لا يذكر القرآن سليمان إلا بالتقدير الكبير وتلك الملاحظة من عندنا جبرار .

ألف عام الأجناس الأربعة التى خلقت فى بدء الخليقة حسب ما ورد فى القرآن « من مادة سامية دقيقة ومضئئة » (٣٥) .

وهذه الأجناس الءفف (٣٦) Les Dives والحن والعفارىء والبرى (٣٧) التى تنتمى أصلاً للعناصر الأربعة مثلها فى ذلك مثل حورىاء الماء والأقزام من ساكنى بطن الأرض وجنىاء الهواء والسمنءل كما وردت فى أساطفر الشمال . ونمة عءء كبفر من القصائء الشعرفة الفارسفة تتحدث عن التارىخ التفصفى للأسر الحاكمة قبل الآءمة .

فبعء أن ترك الله هذه الشعوب البءائفة تحتل الكرة الأرضفة لمءة تزفء عن ائنى عشر ألف من السئف وتعب من مشهء حرورها وگرامفاءها وانتاج عبقرفئها الهشة أراد أن فخلق جنساً جءفءاً ففصل بالأرض اتصالاً وثفقا وفحقق بشكل أفضل التزواج العسفر بففن الماءة والروح . ولءلك قفل فى القرآن : « لقف خلقنا آءم جزءا من الأرض الرملفة وجزءا من الطفن . ولكن بالنسبة للجن فقف خلقناها وشكلناها من نار حامفة جءاً » (٣٨) .

(٣٥) ذلك النص الذى فءهى جفرار أنه من القرآن من فءتلاف عفلته .

(٣٦) جنس أسطورى تنسب فلفه القداسة .

(٣٧) جنىاء أسطورفة فارفسفة قابلة للتشكل بمءطفف الأشكال .

(٣٨) هذه الآفة من فءتلاف جفرار .

ولذا فقد شكل الله قالباً يتكون أساساً من هذا الرمل الدقيق الذى اتخذ من لونه اسماً لآدم (اللون الأحمر) . وحين جف الوجه عرضه على أنظار الملائكة وجنس الديف المقدس حتى يقول كل رآيه فيه . وأنى إبليس . الذى يسمى كذلك أزال . وهو نفسه الشيطان لدينا . أنى يلمس النموذج وضربه على بطنه وعلى صدره ولاحظ أنه أجوف . فقال : « هذا المخلوق الأجوف سوف يتعرض للإمتلاء » وللإغراء طرق كثيرة للولوج إليه » . ونفخ الله الحياة فى خياشيم الإنسان وأعطاه رفيقه هى ليليت المعروفة التى تنتمى إلى جنس الديف . وقد أصبحت فيما بعد . وبناء على نصيحة إبليس . خائنة . وقطعت رأسها .

وأدرك المولى أنه أخطأ بإدماج طبيعتين مختلفتين فقرر أن يستخلص المرأة هذه المرة من ذات المادة المكونة للرجل . فأغرق الرجل فى سبات عميق وأخذ ينتزع أحد ضلوعه كما ورد فى الأسطورة التى نعرفها .

وهنا ترد قصة على شئ كبير من الطرافة . فبينما الله مشغول فى إغلاق الجرح وتحولت عيناه عن الضلع الممين الذى وضعه على الأرض بجانبه . أنى قرد . أرسله إبليس . فالتقطه بسرعة واختفى فى أعماق الغابة المجاورة . وتضايق الخالق من هذه الدعابة السخيفة . وأمر أحد ملائكته بملاحقة الحيوان . وتوغل الحيوان بين أغصان مترايدة الكثافة . ويمكن الملك من الإمساك بذيله . إلا أن الذيل انفصل وبقي فى يده وكان هذا هوكل ما استطاع العودة به إلى سيده وسط الضحكات المتعالية للجمع . ونظر الخالق إلى هذا الشئ بشئ من الامتعاض وقال : « لا علينا .

ما دمنا لا نملك شيئاً آخر سوف نحاول التصرف » . وربما يكون قد خضع دون تفكير لاعتزاز الفنان بفنّه فحول ذيل القرد إلى مخلوقة جميلة من الخارج ولكنها من الداخل مليئة باللؤم والحسة .

نرى أنكنتى فى تلك القصة بسداجة الأسطورة البدائية أم نجد فيها نوعاً من السخرية الفلسفية التى ليست غريبة على الشرق ؟ وربما كان من المستحسن . من أجل تفهمها أن نرجع إلى عصور التطاحن الأولى بين أديان التوحيد المختلفة التى كانت تنادى بسقوط منزلة المرأة وذلك تعبيراً لكراهية تلك الأديان للديانة السورية متعددة الآلهة التى كان المبدأ السائد فيها هو سيطرة المرأة التى كان اسمها على التوالى استارتيه Astarte وديكريتيو Decrio وميليتا Mylitta .

وترجع تلك الأديان المصدر الأول للشر والحطيئة إلى ما قبل حواء نفسها ، إلى أولئك الذين رفضوا فكرة الله الخالق الأوحد دواماً . وتحدث عن جريمة كبيرة ارتكبتها الزوجة الإلهية القديمة لدرجة أن عقابها عليها اهتز له الكون وحرم على أى ملك أو مخلوق أرضى أن ينطق باسمها أبداً . ولا تحتوى المعلومات الغامضة عن نشأة الكون الأولى على شيء أكثر هولاً من هذا الغضب الإلهى الذى حطم كل ذكرى لأُم العالم .

وتمتلئ آلاف من الأساطير العربية بهذه المفاهيم الغريبة التى اشتملت على طائفة كبيرة من الكفر . وقصة آدم وحواء هى قصة طويلة من قصص المعارك التى خاضها الرجل الأول ضد جنس الديف الذى كان ينافسه على ملك الأرض ؛ وقد هزم آدم آخر أباطرتهم مما حقق له الخضوع التام

لجميع الأجناس قبل الآدمية .

وفى أحد أروقة جبل قاف تجمعت صور الأباطرة السبعين أو
السلمايين الذين حكموا قبل خلق الإنسان . وأقدمها بشعة الشكل
ولاعلاقة لها ببعض سلالات الحيوانات . وربما يكون علم تسلسل الآلهة
لدى العرب قد استقى فكرة هذه المخلوقات الأسطورية من أشكال الآلهة
الهندية والأشورية والمصرية . ويمكننا أن نرجع فى جميع تلك النقاط إلى
المكتبة الشرقية لهريلو Herbelat .

يلاحظ كاتب أحد الكتب التى ظهرت حديثاً (١٨٥١) عن
تركيا . السيد أوبيسينى Ubicini . بحق أنه رغم اختراع السفن البخارية
والتقدم الإحصائى الحديث فإن معرفتنا بالشرق ليست أكثر وضوحاً اليوم
مما كانت عليه خلال القرنين الماضيين أو من المؤكد أنه وإن كان عدد
المسافرين إلى الشرق قد زاد فإن العلاقات التجارية التى كانت قائمة
فيما مضى بين مقاطعاتنا الجنوبية ومدن الشرق قد ضعفت كثيراً والسواح
العاديون لا يقيمون مدة طويلة تتيح لهم التغلغل إلى أسرار المجتمع الذى
تخفى عاداته وتقاليده بعناية على النظرة السطحية لأى مسافر . كما أن النظم
التركية قد تغيرت تماماً ابتداء من المؤسسة الحديثة التى تسمى « التنظيمات »
والتي حققت الانجاز الذى طال انتظاره فى هاتى - شريف فى قصر جول
هانه (٣٩) . فتركيا اليوم تعيش آمنة فى ظل حكومة نظامية مبنية على المساواة

(٣٩) هذا الاسم هو اسم فناء قصر السلطان فى القسطنطينية حيث وقع الأمر بالتصديق على جملة

المطلق بين مختلف رعايا الامبراطورية^(٤١) .

إن الخطابات وذكريات الرحلة التي جمعت في هذين الجزءين وكانت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في جزأين لم تكن سوى سرداً لمغامرات حقيقية ولذا فلم تستطع أن تعطي القارئ انجاء بانتظام الحدث والعقدة وحلها كما يحدث في الأشكال القصصية . والواقع لا يعطى أكثر من حقيقته ، ولذا فقد بدأ الجزء الأول من هذا الكتاب كما لو كان يستقى نجاحه أساساً من الإثارة التي أحدثتها قصة الجارية الهندية التي اشترتها في القاهرة من الجلاب عبد الكريم . إن الشرق أقرب إلينا مما نتصور . ولما كانت تلك الفتاة مازالت على قيد الحياة فقد كان لابد من تغيير اسمها في القصة المنشورة . وهي الآن متزوجة في إحدى مدن

== الإصلاحات التي سميت بـ « تظلمات غيرى » (٣ نوفمبر ١٨٣٩) هذه هي أحدث الأرقام التي يمكن تطبيقها على الوضع في الإمبراطورية التركية :

(٤١) المجلس العثماني ١١٧٠٠٠٠٠ نفس .

أما الشعوب الأخرى بمختلف أجزاء الإمبراطورية من يونانيين وسلافيين وحرب وأرض ألغ فيكون عدد رعايا الإمبراطورية وهم ٣٥٠٠٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠٠٠ نفس . وسكان القسطنطينية يبلغ عددهم ٧٩٧٠٠٠٠ منهم ٤٠٠٠٠٠ من المسلمين والباقى يتكونون من أرض يونانيين ألغ .. وميزانية الدولة هي ١٦٨ مليوناً .

ويتكون الجيش النظامي من ١٣٨٠٩٨٠ جندياً قد يصل عددهم بالإحتياطى إلى أكثر من ٤٠٠٠٠٠ رجل (ملاحظة جبرار) . وهذه الأرقام مستقاة من « خطابات من تركيا للكاتب أوبيسينى التي نشرت في المونيتور بيبا كان جبرار دى نرقال بعد الطبعة النهائية لرحلة إلى الشرق (١٨٥٠ - ١٨٥١) .

سورية ويبدو أنها تنعم بالاستقرار والسعادة . والمسافر الذى ألقى نفسه ، دون تفكير منه ، يغير مكان حياة هذه الإنسانية لم يهدأ بالأل بالنسبة لمستقبلها إلا بعد أن علم أن مصيرها الحالى من اختيارها وحدها . وقد ظلت تلك الجارية على الدين الإسلامى رغم أن ثمة جهوداً بذلت لتحويلها إلى الأفكار المسيحية . ولن يستطيع الفرنسيون بعد اليوم شراء الجاريات من مصر فلن يجازف أحد اليوم بأن يلقى بنفسه فى مضايقات تجر عليه شيئاً من المسئولية المعنوية .

على هامش رحلة إلى الشرق

نقوم هنا بجمع بعض النصوص التي وإن كانت لا تتصل اتصالاً مباشراً « برحلة إلى الشرق » إلا أنها توضح بعض الأسباب التي دفعت جيران إلى الاهتمام بالشرق أو سوف نلاحظ في تلك النصوص ظهور تلك الموضوعات الخفية أو الشاعرية التي لم تكن تلاحقه (مثل القابيلية) . وفي نفس الوقت سوف نرى إلى أى حد تقترب « رحلة إلى الشرق » من الأحلام لدرجة أنها لم تلبث أن بدت وكأنها انحدار لهذه الأحلام ، وتلك التجربة هي التي جعل منها مارسيا بروسيت فيما بعد نقطة انطلاق « بحثه عن الزمن الضائع » . كما لم يلبث أن ظهر الشرق الساحر وموضع تعلق الكثير من الرومانسيين ، ظهر خلداعاً وعجيباً للآمال بحيث يحتاج إلى إعادة تقييمه باللجوء إلى مختلف مصادر الأدب والأحلام .

وحينئذ لاشك أننا سندرك بطريقة أفضل لماذا كانت القصة الخالصة لرحلة إلى الشرق ، التي خضع فيها جيران كثيراً لتأثير الرومانسية كما

أوحى له شيطان الأدب التابع في نفسه ، قد تغيرت واستبان معالمها
بفضل تلك القصص الشاعرية القرية التي يتخذ وجودها في السرد قيمة
رمزية .

ولن نجد هنا النص الكامل لمذكرات رحلة إلى الشرق التي نشرها
لأول مرة بيرمارتينو Pierre Martino في مجلة الأدب — المقارن Revue de
btterature Comparee (يناير — مارس ١٩٣٣) والتي أعاد الناشران
بيجن وريشييه Beguin et Richer نشرها في مكتبة لابلبياد
Bibliothèque la Bleiade (في جزئين سنة ١٩٥٦) . ولقد رأينا أن نشر
نص جزئي كمستند بدون أي إعداد لا يتفق مع روح هذه الطبعة التي تعنى
بالأ تقدم للقارئ إلا مؤلفات بالمعنى الأدبي الخالص للكلمة . ومع ذلك
فلم نقصر في الرجوع عند الاقتضاء إلى هذا المستند في مقدمتنا وفي
ملاحظاتنا الهامشية وإنا لنقدم منه هنا بعض المقتطفات المميزة .

ديوراما^(٤١)

إن أشد ما جذب جمهور المسرح هذا الأسبوع هو إعادة افتتاح الديوراما وعرض المسرحية القوية الجديدة ، مسرحية الطوفان وهي مسرحية خيالية في استعراض كبير . ويقوم بتمثيلها العناصر الأربعة الهواء والماء والتراب والنار ، تلك الشخصوس العتيقة التي تحولت في العصور الحديثة إلى كائنات أسطورية تتصارع من أجل السيطرة على العالم فتراها تندفع خلال فصول المسرحية الأربعة في رباعى مروع ومثير للغاية . إلا أن طبيعة الموضوع نفسها تعطى للماء الدور الرئيسى ، عنصر الرطوبة الهائل

(٤١) طهر هذا النص في مجلة الأرتيست EL Artiste (١٥ سبتمبر ١٨٤٤) بعد عودة جيرار من الشرق ببضعة أشهر . وكان بوتون وداجير Bouton de Daguerre قد اخترعا الديوراما وحققا نجاحاً كبيراً . وهى تشكل تحسناً للباورامات التى كانت منتشرة في بداية هذا القرن وتعد من العناصر السابقة للسينما واتى أعدت لها .

الذى جعل منه طاليس مصدر وغاية كل شيء والذى يهدد بإفناء الخليقة
التي ما زالت شابة والقضاء على الأجناس الحية فيما عدا الأسماك وحدها .

وقد كان الموقف خطيرا وكم كان بودنا أن نعرف ماذا يقول باريسيو
الغد لو تجددت تلك الظاهرة بالنسبة لنا ، وكما حدث لسكان مدينة إينوك
المأدبة حين نمرض المطر من الطل إلى الوابل إلى الشلالات التي عرضها
علينا مسيو بوتون في تلك اللوحة !

إن مدينة إينوك أو هينوك السابقة للطوفان ، مدينة الحبات الأولى
التي لا تذكر عنها التوراة إلا كلمة واحدة قد بناها قابيل وسماها باسم ابنه .
ولا ينبغي أن نخلط بين هذا الابن وبين هينوك الآخر ، حفيد ست ، الذي
يسميه الشرقيون إدريس والذي يشترك مع إيليا ودلشيزويك في ميزة
الاختفاء من الأرض بدون موت . وكانت مدينة هينوك هي أهم مقر هذا
الجنس المهجن الذي فاق ظلمه ظلم البشر ، ومازلنا نجهل ما إذا كانت
تلك الكائنات الغريبة من انتاج الملائكة أم الشياطين باختلاطها ببنيات
البشر .

فالنص ليس واضحا في هذا الصدد والتراجم تتغير حسب عقائد
من قاموا بها . فنجد في العبرية بنى إلوام Bnieloim وبنى معناها أبناء
وإلوام معناها الآلهة ، وهذا هو ما يراه فيلون Philon والغنوصيون (من
يبحثون في تكوين الآلهة) والقبليون (العالمون ببواطن التوراة) ، وهذا
هو ما يراه كذلك كورت دى جيلان Court de gebelin وفابر دوليفيه
Faler d Olivet ولاكور Lacour مؤلف الكتاب المثير الذي يسمى

« إلوام أو آلهة موسى » Eloim ou les Dieux de moise . ومن أجل تفسير تلك الآية التي تحتاج لدقة متناهية افترض البعض أن اسم الوائيم Eloim أى « من الآلهة » كان يطلق على الأرواح الرئيسية وكذلك على الله الأعلى الذى يسمى كذلك أدوناي . ويرى البعض الآخر أن هذا الاسم يطلق على الله القدير بصفته شخصية متعددة حينما ادعى فريق آخر أن موسى كان يعتقد فى تعدد الآلهة ما دام لا يذكر الخالق أبداً إلا فى صيغة الجمع . وهذا الفريق يرى أن « الإلوام » هم آلهة آمون المصورة على الآثار المصرية على أنها هى التى قامت بعجن وتشكيل الخليقة كلها بناء على أمر أول إله فيهم .

ولم تقم الكنيسة قط ، على الأقل كنيسة روما ، بالتصديق على هذه الخرافات الكافرة . ولقد انغمست فى الغرور الكهنوتى حين ترجمت الجمع بالمفرد فقالت : « إن أبناء الله حين رأوا بنات البشر جميلات اتخذوا من أحببهن منهن زوجات » ونقول التفسيرات الكنيسة إن أبناء الله « بالمفرد » هم جنس هايل وأن البشر هم أبناء قابيل^(٤٢) . إلا أن هذا

(٤٢) انظر سفر التكوين (١٠٦ - ٢) ولرجع هنا إلى تفسير آخر ترجمة رومانية للتوراة ، توراة أورشليم (النظر دى سير Duerf ، باريس ١٩٥٦) « إنه جزء صعب رجع فيه الكاتب المقدس إلى أسطورة شعبية عن العاقلة اللين خلقت من التزاوج بين نساء قانيات من البشر وبين مخلوقات ساوية .. وترى اليهودية التى تلت ذلك وجميع الكتاب الكنسيين فى أبناء الله هؤلاء ملائكة ملئيين . ولكن ابتداء من القرن الرابع بدأ الأبحار بالإجماع يفسرون أبناء الله على أنهم سلالة ست وبنات البشر مثل سلالة قابيل » . أما عن الجمع فى كلمة

الجنس يصدر عنه مجرد رجال ونساء فكيف نفسر إذن الآية التالية التي تقول إن هذه الروابط قد نتج عنها العالقة ؟ وقد ترجم البروتستانتيون أبناء الله بالملائكة ونحن ندين لهذا التفسير بغراميات الملائكة لتوماس مور و « بقايل » Cain للورد بايرون .

وهذه التفاصيل مهما بدت غريبة فلا نعتقد أنها وصفت في غير مكانها المناسب لا من وجهة نظر النقد ولا من وجهة نظر الفن . فالرسم والشعر يعيشان على هذه القضايا التي يتوجه فيها العقل البشرى في ارتياح إلى القصص القديم يستفسره . ومن بين الكتب المزيفة عن التوراة ثمة كتاب يسمى « كتاب إينوك » وهو الذي ندين له « بالفردوس المفقود » لميلتون و « سقطت الملائكة » للامرتين . وهو ليس إلا قصة النضال بين الأرواح الثائرة ضد الله القادر الذي تساعده جوقاته المقدسة . ويقص الأب كيرشيه Kircher جزءا كبيرا من ذلك الكتاب مترجما إلى اليونانية واللاتينية . وهو مصدر ينبغى للرسميين الذين يمالجون موضوعات دينية أن يرجعوا إليه . ولو أن مسيو بوتون قد تصور أن أنصاف الآلهة قد ساهموا في بناء مدينة إينوك فرما كان ذلك يدفعه إلى إعطائنا مشهدا أكثر تعقيدا وأكثر روعة . وبفضل معرفة لامرتين للمصادر الدينية فقد جعل من

= Elohim ففهم اليوم بالإجماع على أنها اللاهية متعددة الحواسب لله الواحد والجدير بالملاحظة أن نمة إتفاق على أن التوراة تجمع بين شكلين تقليديين من أشكال التوحيد اليهودي يرمز إلى كليهما باسم الله وهما التقليد اليافسى Yahviste وتقليد الإلهرى Elahiste اللذين يبرزان أحدهما شخصية الله والآخر لا هاية الله

سكان مدينة إينوك أناساً أكثر تقدماً منا أنفسنا فيما يختص بروائع الحضارة . فقد توصلوا حتى إلى فن الملاحة الجوية التى يشرح الشاعر فيها العبقري^(٤٣) . وفى هذا المجال الحق يتحول الإنسان إلى إله لمهارته وفنه فيوقفه الله ويبين له أن الإنسان لا ينبغي له أن يرتفع إلى الله إلا بالروح والحب^(٤٤) .

ومع ذلك فقد شيد مسيو بوتون مدينة غريبة بالقدر الكافى وذات طابع بدائى أسطورى جميل . فهى تمتد بشكل رائع فى واد شاسع وتغمس فى الأفق أقدامها المرمية فى البحر . وثمة سور كبير ذو باب شاهق مبنى بلا ملاط يحيط بالمدينة الشيطانية حيث نشاهد هنا وهناك المسلة والحرم . وتنتشر القصور الشاهقة يمينا ويسارا وإلى اليسار نرى قنطرة مهدمة . ولاريب أنها فكرة شاعرية تلك التى جعلته يظهر الأطلال فى مدينة ناشئة . ومما يثير الانتباه بصفة خاصة هو بناء شاسع لم يتم ، وهو المحاولة الأولى لبناء الأبراج البابلية التى تكاد ترتفع بحلزوناتها إلى السماء^(٤٥) .

(٤٣) انظر سقطه الملك Chute dun Onge .

(٤٤) تمه شىء ما يذكرنا هنا بالقابلية التى إهتم بها جبرار كثيراً أو بعقدة الذئب التى تلعب دوراً هاماً فى قصته Ceurelia .

(٤٥) كان موضوع المدينة الأسطورية شائعاً فى الوقت الذى كان جبرار يكتب فيه هذه السطور . فكتب عنه ييكفور Beckford وصورة جون مارتين فى كثير من لوحاته التى تمثل بابل (وهى

ويتغطى الأفق تدريجياً وتأخذ السحب لونا داكنا وتصيب بلمحة حمراء ، ويلمع البحر بتأثير أشعة الشمس البالغة فى الغروب ، وتسيل المياه على الجدران وتمتلئ الميادين والشوارع بمياه فائرة تلهبها العاصفة بسياطها . وتمتلئ الأفنية فتفيض مياهها من فوق أسوارها كما لو كانت أوان امتلأت عن آخرها ، ويلجأ السكان إلى الأسطح والأبراج والجبال ثم يختبئ كل شيء تحت كثافة السحب وأعمدة الماء المتعمة التى تغطى السحب محدثة ضوضاء شديدة .

وثمة حادث حرمنا من المشهد الثالث الذى يمثل اللوحة الهادئة للطفوفان والسفينة العائمة فوق الماء . ثم سم إصلاح العطب ولن يفقد الجمهور شيئا . أما المشهد الرابع فنرى فيه الأرض وقد انحسر عنها الماء جزئيا ومازالت رطبة^(٤٦) وقد عجبتنا وشققنا المياه وهى تنحسر وتترك وراءها القواقع والخلفات . وجثت أسرة نوح على قمة جبل أرارات وشاهدت قوس قزح علامة العفو السماوى يخط قوسه الشاسع على الضباب الأخير للطفوفان .

== لوحات معروفة وواسعة الانتشار نرى فيها برج بابل . ولم يكن جيرار يجهلها وقد تحدثت عنها الكسندر دوماس فى الكونت دى مونت كريستو) بل لقد أثر هذا الموضوع فى بناء المدن الحديثة وهى أحد مصادر الطراز البابل الذى لفت نظر جيرار فى أحد أسفاره إلى لندن .

(٤٦) ربما كان ذلك هو مصدر البيت المشهور لفيكتور هوجو فى مقطوعته المعروفة « بو عز النائم » ... الأرض ... كانت ما تزال مبللة ورطبة من الطوفان ... » .

وإن الملاحظة الوحيدة التي يمكن أن نوجهها لمسيو بوتون هي أنه جعل شخوصه أطول مما ينبغي لاسيما في اللوحة الأخيرة . فإن الإنسان من التفاهة على هذه الأرض بحيث يصبح من المستحيل أن نصور الأفق المتسع دون حاجة إلى أن نجعل منه كائنا لا تكاد العين تراه . ولقد قال دافيد يوما لباور لورميان Baour Lormien : « كم أنت سعيد لكونك شاعرا ، إنك تريد أن تصور الحب في جبال الألب فترسم عشرين صفحة للمحبين وعشرين صفحة للجبال وكل هذا يبدو متلامما تماما بعضه مع بعض . أما أنا فعلى العكس من ذلك فحين أريد أن أرسم لوحة فلأما أن أصور المحبين كبيرى الحجم والجبال صغيرة جداً أو الجبال عملاقة والمحبين ليس أكبر حجما من هذا » وأشار بأصبعه المختصر . ولقد بدا لنا جبل أارات أصغر كثيرا من طول نوح . ويستطيع مسيو بوتون أن يرد على ذلك بأن أناس هذا العصر الذين كانوا يعمرون ألف عام كان حجمهم يبلغ عشرة أضعاف حجمنا . وربما كان على حق . ومع ذلك فلوحاته رائعة وتتم بالحقيقة المدهشة في تصوير طبيعة إلى حد ما مثالية والسموات بدت ذات ضوء يضيف كثيرا إلى الصورة الخيالية وكذلك تغير التأثيرات الضوئية والظل وكذلك التغيرات التي حدثت في الأرض نتيجة انحسار المياه جعلت من تسلسل هذه المشاهد عرضا مسرحيا رائعا بمفاجآته وتأثيراته وكل ما أثاره من اهتمامات .

- ٢ -

رسالة إلى تيوفيل جوتييه^(٤٧)

إلى صديقي تيوفيل جوتييه

أى سعادة تلك فى أن تكتب لى من خلال إحدى الصحف لا عن طريق الخطابات ! فالرسالة كانت ستنام إلى هذه الساعة فى أحد أدراج البريد المنتظر فى القاهرة الكبرى التى غادرتها أو كانت مازالت تعدو فى إثر صديقك الطائر من هذا السلم إلى ذاك من سلام المشرق .

أما الجريدة ، وهذا مالا بد أنك توقعته ، فهى تصل فى وقت واحد إلى جميع الأماكن التى يحتمل أن أكون فيها ، ولقد لقيتني فعلا فى

(٤٧) هذه الرسالة نشرت فى جريدة القسطنطينية Journal de Constantinople فى ٧ سبتمبر ١٨٤٣ ثم فى مجلة Le Sylphide (١٨٤٣ الجزء ٨ ص ٢٨٤ - ٢٨٥) فهى إذن رسالة أدبية إنه شكر يوجهه جيرار لصديقه الذى كان قد أهدى له البالية الصامت من فصلين الذى يدعى « اليرى » فقد عرض فى الأوبرا فى ١٧ يولييه ١٨٤٣ . وقد بشر إهداء جيرار فى مسلسل ليتونيل نشر فى Le Presse فى ٢٥ يولييه .

القسطنطينية حيث أنا الآن . كما أن العالم جد صغير والصحافة جد كبيرة
لذا فسوف أستطيع الرد عليك بعد عشرين يوماً في جريدة البوسفور
أكثر الصحف انتشاراً في باريس ولي فيها أصدقاء قدامى يجعلون صفحاتها
رهن إشارتي . وقد لا يكون هذا موضع سرور إدارة البريد بل ربما كان
مصدر قلق بالنسبة لها . أما عن الجمهور فربما كان على أتم استعداد لكتمان
أسرارنا : أو بصفة خاصة أسراى أنا .

ولكنك تحدثنى عن أمر يهمهم كما يهمنا ولا ينبغي أن يكون أقل شعبية
في استامبول عما هو في باريس ، مادام العمل الأدبى الذى أنتجته ،
حسب ما تقص على ، يعتبر مشرفاً لخيال الشاعر المسلم الحقيقى .

واليرى هى فى ذات الوقت باليه وقصيدة شعرية ، قصيدة مثل
مجنون ليل وباليه كأمثاله من الباليات الساحرة العديدة التى رأيتها ترقص
لدى بعض الشخصيات الشرقية من الكرام الظرفاء . ولن تدهش هذه
الشخصيات فى هذا البالية إلا من شئ واحد : ذلك أنه لابد فى باريس
إذا أراد المرء رؤية باليه ما أن يذهب فيتكدس وسط ألوف غيره فى قفص
من الخشب المذهب بالنحاس وقلما توجد فيه الأرائك ، وحيث لا توجد
لا نرجيلة ولا شوك ولا قهوة ولا مرطبات .

أما الشخص الميسور هنا فيستطيع جمع أصدقائه على وسائل مريحة
وتجلس نساؤه خلف حاجز من القضبان ويتم رقص باليه اليرى بواسطة
راقصات أو راقصين حسب ذوق الداعى . وإنى على يقين أنه سيستفيد
جداً من تكوين هذا الباليه هذا وسوف تعجبه جداً التفاصيل التوقيعية التى

زخرف بها الراقص التوقيعى كورلى Corlay الباليه . ومع ذلك فسوف تنقصه كارلوتا الساحرة^(٤٨) التى تمسك بها الأوبرا بنحيط من ذهب . ولكن من يدري ؟ ربما حلت محلها جنية «بيرى» حقيقية بناء على دعوة ذلك المؤمن الهام ، ومع ذلك فلانى أقول ان الشرق لم يعد أرض المعجزات ولم تعد الجنيات يظهرن فيه منذ أن فقد الشمال حورياته وجنيات الهواء المحاطة بالضباب . ولن يكون فى القاهرة على وجه التحديد قدوم فتيات السماء تلك بحثا عن الهوى العذرى والقلوب الوفية بناء على معتقدات الحجاز العتيقة . وربما فسر البوليس الصارم ماديا الاستخدام الالهى لهذه السيدات فيبعث بهن بالقرب من الشلال الأول ووسط أطلال إسنا بحثا عن المعجيين .

إيه أيها الصديق ! لقد طلبت منى تفاصيل محلية تصويرية عن «عالم» القاهرة ورقصاتهن التى طالما تغنى الشعراء بها . وقد انهمكت فى أبحاث حول رقصة النحلة وغيرها من الرقصات المحلية . وكنت أأمل أن أقوم بدور فى الرقص التوقيعى يشبه اللور الذى قام به شارل تكسييه Charles Texier^(٤٩) وليسيوس Lipsius^(٥٠) فى مجال الآثار ، كمراسل

(٤٨) كارلوتا جريزى (١٨١٩ - ١٨٩٩) التى لعبت دور الجنية البيرى .

(٤٩) عالم آثار فرنسى (١٨١٩ - ١٨٩٩) .

(٥٠) مستشرق ألمانى كان على رأس بعثة للآثار إلى مصر وقد ذكره نزال فى «نساء القاهرة» و«الأهرام» من أبواب هذا الكتاب .

لأكاديمية الموسيقى . ولقد دهشت لأننى بدلا من أن أستجيب لمهمة سهلة ولطيفة مثل تلك التى طلبت إذا بى أصف لك الملابس الإنجليزية وثياب الإفرنج الرثة وأثمان الفلاحين ...^(٥١) بالأسف ! ففى الوقت الذى كنت تربط فيه كل ما فى الأوبرا من فخامة بالقاهرة التى رسمتها فى مخيلتك كنت أنا لا أربط بالقاهرة الحقيقية إلا العناصر التى لا تخضع لأية قاعدة كما فى تمثيلات الممثل الصامت ديورو Debourau .

وإذا كنت لم أحدثك بشيء عن رقصات القاهرة فذلك لأنه كان من الخطير فى ذلك الوقت انتزاعك من أوهامك . فقد كانت أول رقصة رأيتها فى مقهى لامع من مقاهى الحى الإفرنجى الذى يسمى شعبياً بالموسكى . وكنت أود أن أجسد لك بعض الشيء هذا المشهد إلا أن الديكور لا يحتوى لا على أوراق النقل ولا أعمدة صغيرة ولا على ثريات جانبية من الصينى ولا على بيض النعام المعلق . إنك لا تجد تلك المقاهى الشرقية إلا فى باريس . ولتتصور مكانا حقيرا مربعا مبيضا بالجير كل ما فيه من زخارف عربية هو تكرار صورة ساعة حائط موضوعة وسط أحد

(٥١) انظر خطاب إلى تيوميل جوييه (دمياط مراسلات جبرار ، سبق ذكره ، رقم ٩٧) : « أحسنت صمما بإظهار القاهرة فى بابه قبل أن تراها والأفضل وصف العصر المملوكى لا العصر الحاضر إلا إذا لجأت فى الأدوار الثانية إلى إنجليز من الكاوتشوك بقميعات من القطن ونهار أخضر ، أو فرنسيين يثيرون الدهشة يرتدون موديلات ١٨١٦ أو أتراك يثيرون الضحك بالملابس المميزة للإستامبول .

المراعى بين شجرتين من أشجار السرو . أما بقية الزخارف فتتكون من المرايا المطلية بلون واحد والغرض منها عكس ضوء نجفة معلقة على عصا من جريد النخيل ومحملة بقناديل الزيت الحافة التى تعطى مع ذلك تأثيراً طيباً . وأمام الأرائك المصنوعة من نوع من الخشب الصلب والتى تحيط بالغرفة توجد أقفاص من جريد النخيل تستخدم كسنايات لأقدام مدخنى التبغ أو متعاطى الحشيش . هنا يستسلم الفلاح بصديريته الزرقاء ، القبطى بعمامته السوداء والبدوى بمعطفه المقلم إلى الأحلام التى تتناقض تماماً مع أحلامك . ربما كانوا يحملون بوطن بدون نخيل ولا جمال أو بأنهار خالية من التماسيح وساء يحف بها الضباب وجبال من الثلج وجنة لا يكون

محمد على هو إلهها . أما الجنيات « اليرى » التى تظهر لهم حقيقة وسط غبار دخان التبغ فقد استأثرن بمشاعرى لأول وهلة لبريق طواقهن الذهبية التى تعلق شعورهن المصفرة . إن كعوبهن التى تضرب الأرض بينما تكرر الأذرع المرفوعة صدى تلك الضربات الشديدة تجعل الجلال فى الخلاخيل ترن بينما ترتعد الأرداف من تلك الحركة التى تشبهها وتبرزها لدينا حركة الرقص الرومانى . كان الوسط يبدو تحت المسلمين بين الصديرية والحزام الفخم المرخى كما لو كان حزام فينوس . ولا نكاد وسط الدوران السريع نميز ملامح تلك الفتيات الفاتنات اللاتى يتحركن بقوة على النغمات البدائية للطبول والمزامير . وكان من بينهما اثنتان غاية فى الجمال يتميزان بمحيا فخور وعينين عربيتين زادتهما الأصباغ حيوية والحدود الممتلئة الرقيقة الملونة تلونا خفيفا .

أما الثالثة ... ولماذا لا نقول ذلك فوراً ؟ الثالثة ، وهى جنية من الطبقة الأقل فتكشف عن جنس أقل رقة تدل عليه ذقن طولها ثمانية أيام ! وأنا ، الذى كنت استعد لتقديم أقنعة مغطاة بالقطع النقدية الذهبية لمن حسب التقاليد الشرقية الأصيلة ، فقد وجدت أن من الأولى العدول عن هذه المجاملة الرقيقة بالنسبة لوجهى الراقصتين الأخريين اللتين تنصبان عرقاً فهما ليستا بعد الفحص الدقيق ، إلا اثنتين من «العوالم» المذكور . وتبسط على أن تفهم الآن أنه لم يعد لدى أى ميل لأن أطلب إليها تنفيذ رقصة النحلة التى يقولون إن نجاحها فى الأوبرا لم يكن كاملاً إلا لأن كارلوتا لم تقم بتنفيذها بالكامل وبجميع تفاصيلها .

وسوف تسألنى لماذا نلتقى فى القاهرة ، وربما تحت مظاهر خداعة جداً أحيانا ، بالحقيقة النهائية وهى أن العامل المسكين كان بلا عمل ... وأرد على ذلك بقول ، بعد التقصى الدقيق للحقائق ، إنه من أجل الحفاظ على الأخلاقيات العامة نفت الحكومة إلى إسنا العوالم الحقيقية وغيرهن من غانيات الدلتا . وهذه الأخلاقيات التى أفلحت فى إحلال جنس مكان الآخر قد احتفظت لسكان القاهرة بنوع من التعويض التوقعى سوف يكون من العسير على إعطاؤك فكرة ملائمة عنه .

ولكى تذهب من ميدان الأزرابية فى الموسيقى (الحى الإفرنجى) فإنك تتبع شارعاً طويلاً وملتوياً وعلى شئ من الاتساع ومزدحماً بالشحاذين والحمارين وبائعى البرتقال وبائعى قصب السكر . وإلى اليسار تمتد أسوار الدراويش الدوارة حتى حظيرة سيارات السويس التى يعلو

بابها تمساح محشو بالقش . وإلى اليمين توجد بعض المنازل الجميلة والمقاهى والمعارض الزجاجية بل وحتى حان إيطالى . وبالقرب من هذا المكان نسمع رنين آلات النفخ المصاحبة لفرقة من الراقصين التوازنيين اليونانيين .

والمكان ، كما تستطيع أن تتصور مأهول جداً شديد الضوضاء وغاص ببائعى المقلبات والفطائر والبطيخ . ويوجد كذلك بعض منشدى الأغاني الحزينة ، والمصارعين والمشعوذين الذين يعرضون القروء والثعابين . وهنا يدور علنا المشهد الذى أريد الحديث عنه والذى يحقق أكثر الصور التى صورها رابليه فى قصصه غرابة . والشخصية الرئيسية ، وجسمها مربوط بخيط يوصله بركبة شخص مسن مرح يجعلها تتكلم وترقص وتتحرك ليست كما تتوقع ، إلا القراقوز الخالد هذا الكاريكاتير القديم الذى اخترعه قاض من القاهرة كان يعيش فى عصر صلاح الدين . ولم أكن قد سمعت عنه إلا على أنه نوع من خيال الظل إلا أنهم فى مصر يعطونه حياة تشكيلية للغاية . ولن أقض عليك المسرحيات التى تمثل كلاما وغناء وحركة ورقصا وسط دائرة شديدة الانبساط من النساء والأطفال والعسكريين . إن هذا المشهد كلاسيكى فى الشرق والرقابة المحلية لم تقص أو تلغى منه شيئا كما يقال إن رقابتنا تفعل فى مدينة الجزائر . وبعد هذا المشهد الساذج ازدادت صعوبة فهمى لنفس تلك العوالم المسكينات اللاتى يضطرون إلى إفساد طيبة بحجة الحفاظ على أخلاقيات القاهرة وتلك هى عينات منها .

إيه يا صديقى ! لكم نحقق نحن الاثنان أسطورة الإنسان الذى

يعدو وراء الثروة وذلك الذى ينتظرها فى فراشه^(٥٢) . وليست الثروة هى
التي ألاحق ولكن المثل الأعلى واللون والشاعرية وربما الحب ، وكل ذلك
لك أنت الجالس فى مكانك ويهرب منى أنا الذى أعدو . ولم يحدث إلا
مرة واحدة ، أيها المتهور ، حين أفسدت رحلتك إلى أسبانيا ثم كنت بعد
ذلك فى حاجة إلى مهارة كبيرة وقدرة على الاختراع ليكون لك الحق فى
عدم العودة منها .

أما أنا فقد فقدت مملكة تلو مملكة وولاية بعد ولاية وأجمل شطرى
العالم وبعد قليل لن أدرى أين تسكن أحلامى . إلا أن مصر أكثر من
غيرها هى التى آسف على طردها من مخيلتى وإسكانها بشكل حزين فى
ذكرىاتى ! ...

وأنت مازلت تعتقد فى طيور أبو منجل وفى زهور اللوتس الحمراء
القانية والنيل الأصفر ، وتعتقد فى شجرة النخيل الزبرجدية والصبار
الهندي وربما فى الجمل ذى السنامين .. يا للأسف ! إن أبا منجل ماهو
إلا طير برى واللوتس من الأبصال المتذلة ، ومياه النيل حمراء ذات
إشعاع اردوازى والنخيل يبدو كريشة ضعيفة والصبار الهندي ليس إلا
صباراً عادياً ، والجمل لا يوجد إلا بستام واحد ، والعوالم من الذكور ،
أما النساء الحقيقيات فيبدو أن المرء يكون سعيداً بعدم معرفتهن ؟

(٥٢) انظر آفاصيص لافوتتين ٧ - ١٢ .

كلا ، لن أفكر فى القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة دون أن أذكر الانجليز الذين حدثتك عنهم وعربات السويس المعلقة ببغاوات الصحراء ، والأتراك الذين يرتدون الملابس الأوروبية والإفرنج الذين يلبسون الملابس الشرقية وقصور محمد على الجديدة المبنية كالثكنات ومؤتنة وكأنها مراكز ريفية بمقاعد كبيرة وأرائك من الأكاجو وموائد بلياردو وساعات حائط ومصابيح ذات ضاغط ولوحات زيتية للسادة أبنائه فى ملابس المدفعية ، أى كل ما يشكل المثل الأعلى للرئىسى الثرى ! ..

إنك تتحدث عن القلعة . إن مناظر الديكور التى أعدها لك فى الأوبرا لابد أن تظهر أعمدة الجرانيت الأحمر لقصر صلاح الدين القديم . أما أنا فقد وجدت فيها بناء شاسعاً مربعاً يشرف على المدينة ويبدو وكأنه سوق لبيع الغلال ويدعون أنه سوف يصبح مسجداً بعد إتمامه : حقاً إنه لمسجد كما أن المادلين كنيسة . إن الحكومات الحديثة تعنى بأن تشيد لله بيوتا يمكن استخدامها فى أغراض أخرى حين يكف الناس عن الإيمان به !

أه ! كم أتوق لأن أرى فى باريس تلك القاهرة كما صورها رساما المسرح فيلاستر وكامبون^(٥٣) . وإنى على يقين من أنها ستكون قاهرته التى كنت أتصورها فى الماضى ، تلك التى رأيتها مرات عديدة فى أحلامي

(٥٣) من بين مهندس الديكور الذين كان تيوفيل جوتييه يسمهم : هدى لاکروار وديكاف وماريللا فى مجال الرسم المسرحى .

لدرجة أنه خيل إلى ، كما خيل إليك ، أنني عشت فيها في زمن ما ربما في عصر السلطان بيبرس أو الخليفة الحاكم ! .. هذه القاهرة كنت أصورها أحيانا وسط حي مقفر أو مسجد مهدم وكان يبدو لي أنني أطبع شكل قدمي على آثار أقدامى الماضية . كنت أمضي وأقول في نفسي : حين أدور حول هذا الجدار أو أمر أمام هذا الباب سوف أرى هذا الشيء أو ذاك ، وكان يحدث أن أرى ذلك الشيء متهدما ولكنه حقيقة .

لنكف عن التفكير في ذلك ! إن هذه القاهرة ترقد تحت التراب فروح العصر والاحتياجات الحديثة قد انتصرت عليها كما ينتصر الموت . وما هي الا عشر سنوات حتى نرى الشوارع الأوربية تقسم الى زوايا قائمة المدينة القديمة المغيرة الصامته ، التي تهدم في هدوء فوق رأس الفلاحين المساكين . أما ما يلمع ويتلألأ وينمو فهو الحي الافرنجى ، مدينة الانجليز ولباطنيين وفرنسيي مرسيليا . أه ! إننى لم آت لأرى هذه المدينة تأكل الأخرى ، هذا الوكر لتجارة الهند ، هذا المحل التجارى المزدهر الذى يملكه التاجر الوحيد في مصر ، هذا الدكان الذى يملكه المنتج الوحيد فيها ، سوف تفقد فكرة تطير الجنيات الساحرة فوق جبين أحد المسلمين الطيبين النائمين في سعادة . لاتأت لرؤية النيل التى تتصارع فيه الحيوانات الأسطورية ، ولا الصحراء التى خططتها العجلات الإنجليزية ولا جزيرة الروضة التى حولها إبراهيم إلى حديقة انجليزية وأمدتها بأنهار صناعية ونجلى وكبارى صينية . تصور أن ضاحية شبرا تضاء بالغاز وأن المقطم ملء بطواحين الهواء ويتحدث الناس عن تغيير حالة الأهرام ، من الجيزة حتى

دارفور وتحويلها إلى أعمدة تلغراف !.. أه ! لتبق في باريس وليت نجاح
الباليه الذى تقدمه يستمر حتى عودتى ! فسوف أجد فى الأوبرا القاهرة
الحقيقية ، مصر النقية ، الشرق الذى يهرب منى والذى ابتسم لك بشعاع
من عينيه المقدستين . أيها الشاعر السعيد لقد بدأت فى تنفيذ مصرك
الخاصة بواسطة الأوراق والكتب . أما اليوم فإن الرسم والموسيقى والرقص
التوقيعى تسارع لإيقاف كل ما تصوره فى أحلامك عنها بحيث إن جنيات
الشرق لم تكن أبداً فى مثل تلك القدرة . إن أعمال الفراعنة والخلفاء
والسلاطين تختفى كلية تقريباً تحت غبار الحماسين أو تحت معارك الحضارة
الثرية . أما تحت أنظارك أيها الساحر ! فإن شبحها يحى وينهض
ويتحقق بالقصور والحدائق التى يكاد المرء يتصورها حقيقة ، والجنيات
الرائعة ! إننى أومن بمصر الخيالية هذه لا بالأخرى ، ولذا فقد انصرفت
الأشهر الستة التى قضيتها هنا ولم يبق منها شيء . ولقد رأيت الكثير من
البلاد التى تدفن تحت خطوات أقدامى وكأنها ديكورات مسرحية ، فماذا
بقى لى منها ؟ صورة مختلطة كصور الأحلام : إن أفضل ما عجده فيها
مازلت أعيه عن ظهر قلب .

ذكريات من الشرق

على هامش رحلة إلى الشرق اكتشف مسيو جيلبير روجيه Gilbert Rouger في متحف الأسر Musée des Familles وهي مجلة منافسة لمجلة الحانوت التصويرى Magasin Pittoresque ، عددًا من المقالات التي نشرت فيما بين ١٨٤٤ و ١٨٥٩ وبتوقيع لا يمكن في واقع الأمر إلا أن يكون اسماً مستعاراً وهو ج . دى شاتوفيل C.de chatouville . ونذكر أن إحدى قصائد ديوان جبرار المسمى Pdelettes وهي Gaiete (المرح) تحمل في المخطوط عبارة :

كتبت في شاتو أمام منزل ميرى Mery^(٥٤) . ومن جهة أخرى ففي خطاب إلى جرفيه شاربنتيه Gervais Charpentier ناشر رحلة إلى

(٥٤) قال جبرار كذلك في إحدى رسائله إلى فرنسيس وي Frencis Wey (مراسلات رقم ٨٨) : « سوف أذهب هذا المساء إلى شاتو ... » (وربما كان والده يقيم هناك) (الناشر) .

الشرق . كتب جيرار التوضيح التالى : « لقد نشر متحف الأسر أمس مقالاً ويقصد بذلك التعليق على « مشاهد من الحياة الشرقية » وهو مقال كتبه رئيس تحرير هذه المجلة . ولا شك أنه من الواضح أن هذا الاسم المستعار كغيره مثل « لورد بيلجرم » و « الفنان » ، هذه الأسماء كانت مألوفة لعدد من المجموعة الأدبية التى كان جيرار ينتمى إليها . إلا أنه من الواضح كذلك أن النصوص التى نوردتها فيما يلى ، بعد أن نشرها مسيو جيلبير روجيه ، والتى نشرت بتوقيع ج . دى شاتوفيل هى بلا مرأى من كتابة جيرار ، بل أحياناً من جيرار فى أفضل صوره .

ابراهيم باشا ابن محمد على (٥٥)
كم من الثورات توجد في هذا الخبر البسيط :

«لقد سافر ابراهيم باشا ابن والى مصر وبطل عكا ونزيب ، سافر إلى فرنسا للاستفادة من مياه البرانس» ! وكما يذهب الآلهة والملوك يذهب كذلك الأتراك والعرب أو بالأحرى يأتون إلينا .

ومنذ أربعين عاماً كانت كلمة باشا ترسم في مخيلتنا رجالاً هو أشبه شيء بكاهن لامى (بوذى) مغطى بالذهب والأحجار الكريمة ومختف فى أعماق الحرم مع مائة امرأة وألف جارية وهو يستقبل كل صباح وسط سحب من دخان الترجيلة قبيلة بأسرها من رؤوس أعدائه يصبها الجلاد تحت قدميه . إن كل هذا لم يعد له وجود إلا فى ألف ليلة وليلة . أما باشوات هذه الأيام فيتدثرون مثلنا بمعاطف ضيقة وبنطلونات ذات بطانة للأقدام . وقد فكوا رباط عمامتهم الكشميرية لكى يغطوا رؤوسهم

بأغطية الرأس اليونانية وهم يسرون فى شوارع سان - دينيس . لانهم
مغرمون بمواسير المداخن التى ترتديها نحن على أنها أغطية للرأس . وهم
يدخنون على أسفلت الأفاريز سيجارا بخمسة وعشرين متيما ويأكلون ،
بدلا من رموس المسيحيين ، رموس العجل المسلوقة . وهم يتزوجون من
أول حى فى القسطنطينية أو فى القاهرة .

وهم أوفياء لزوجاتهم مثل وفاء أثرياء حى الماريه Marais ويربون
أطفالهم حسب طريقة جاكوتو Jactot ، ..

ولقد كان الشيطان اللذان يرتاع لها محمد هما شرب النبيذ والاحتفاظ
باللوحات فى البيت . ولنتظر الآن إلى سكرتيرى السفارة التركية وهم
يحتسون أنبذة مقاطعة شمبانيا الفرنسية بعد ضربها بالثلج ! وهم فى ذلك
لا يفعلون إلا أن يقلدوا سيدهم السابق السلطان عمود الذى انتقل من
النبيذ إلى ماء الحياة ومن ماء الحياة إلى الكحل ومن الكحل إلى الإثير .

وهم يقولون : « حين يأخذ المرء بأسباب الحضارة فإنه لا يدرى
كيف ينهل منها » . أما عن اللوحات فإن رشيد باشا السفير العثماني ، وهو
اليوم رئيس للوزراء ، فقد كان يجلس عشية سفره أمام مسيو مكسيم دافيد
رسام الصور المصغرة المفضل لدى كبار الشخصيات . ولما كان فخامته

(٥٦) جان جوزيف جاكوتو (١٧٧٠ - ١٨٤٠) وهو صاحب نظرية التعلم العالمى الذى تلجأ
بصفة خاصة إلى الإرادة والإتباه والذاكرة .

يعرف في التحف الفنية فقد أمر بطبع ثلاثمائة نسخة من صورته
بالليتوغراف لكي يوزعها في القسطنطينية وفي باريس ! ولو أن رشيد باشا
قد خطرت له مثل تلك النزوة منذ عشرين عاماً فإن السلطان العظيم لا بد
كان سيرسل له حبلاً من الحرير مع الأمر بتعليق نفسه به ...

الحلاقون الأتراك وحوانيتهم

حين تدخل لدى الحلاقين الأتراك (وإن محلانهم لمزدحمة منذ أن بدأت اللحى تتساقط بعد إصلاحات رشيد باشا) تبدأ بمخلع حذاءك أو نعليك (شهبشك) ثم تجلس القرفصاء على حصير أو تتسلق منصة خشبية مفروشة بالصفة . وهنا يحضرون إليك غليوناً وقدحا من القهوة . والغليون كبير الحجم بقدر قدح القهوة ما هو صغير الحجم . وتدخن الغليون عدة مرات وتملأ قدحك ما طاب لك ذلك . والمسلمون يتعجلون في بقاء مثلهم في ذلك مثل بجنة الأقصوة . ومنهم من يقضى ساعتين في استنفاذ الشيبوك ويستعين في قطع ذلك بخمسة عشر قدحا أو عشرين من القهوة .

وحين نفرغ من شرب القهوة والتدخين يقترب منك غلام وهو يسن موساه على قطعة من الجلد معلقة في حزامه . وتسلم له رأسك فيتصرف فيها كسيد مطلق . وبالنسبة لأهل البلاد فهذه عملية غاية في البساطة . وبالنسبة للأوربيين فتلك مسألة عادية أو غير عادية . ويفرق الحلاق

وجهك بالماء والصابون . وحذار حينئذ من فتح عينك وتنفس من أنفك إذا كان ذلك ممكناً . أما إذا كان ذلك غير ممكن فلتختنق في بطنك : لديك الوقت كله لذلك لأن القائم بالتنفيذ متسم ببرود يتناسب مع بطنه . وتراه يأخذ بعد ذلك موساه في جلال ويروح ويحيى به فوق بشرتك بنفس البرود الذى يدركه إذا كان يضرب تمثالاً « دمية ، مانيكان » . وهو يمسك بك من أنفك أو من شاربك أو من شعرك ، ويضرب رأسك في الحائط ويسنده على ركبته إلى اليمين وإلى اليسار وإلى الأمام وإلى الخلف . وهو يشد خديك ويضغطها ويلاحق الذقن حتى يغور في اللحم وهو يروح ويحيى على الرغبة الوردية اللون ، ولا يقلق أبداً إذا ألقى الدم على وشك التدفق مثله في ذلك مثل الدباغ المهلك في دبغ جلد إحدى الدواب . وإذا تأوهت فهو أصم لا يسمع ، وإذا صحت فهو لا يشعر بأية شفقة ، وإذا عصلجت فهو أعمى وإذا عنفته فهو أبكم . إن كل ما سوف تحصل عليه منه هو أنه سيمسك بك بطريقة أقوى ويسيطر عليك في صلابة ومعشطك بطريقة أكثر إيلاماً . وأخيراً تخرج من هذه الملزمة ذات الألف سلاح وترى جلادك وهو راض عن نفسه كل الرضى بخفف موساه بين السبابة والإيهام . وهو يحبك تحية صغيرة وهو بهز أصابعه وقد يحدث أن يلطخك برذاذها . وبعد ذلك يسحب أداة أخرى من جعبته ويمسك بأذنك ، ويثنيها ويفتحها وينفخ فيها لدرجة قد تصيبك بالصمم ، ثم يسلكها من الداخل كما تنظف الطباخة قدراً صدناً .

وبالنسبة للأوربي تكون الأزمة هكذا قد انتهت ، وليس أمامه إلا أن ينظر في مرآة صغيرة يقدمونها له وأن يريح أخيرا عضلاته المنقبضة وهو يدخن غليونه الأخير ويساعد التدخين ببعض رشقات من القهوة .

أما بالنسبة للمسلم فالعملية لم تبلغ سوى منتصفها . فبعد الوجه لا بد من حلق الرأس . وأنت ترى في الصورة^(٥٧) هذا القمع الأنيق المستدير المعلق فوق رأس الزبون . ويقوم الحلاق بإسالة الماء الدافئ من هذا القمع فتسقط كالدش على أم رأسك ووجهك ورقبتك وكثيرا ما تسقط كذلك على ملابس العملية . فإذا غرق المسكين فتلك هي مشكلته هو ! لأن الصبي قد وضع له صحنًا كان عليه أن يجمع فيه هذا الشلال بقدر المستطاع . إلا أنه مادام مضطرا لإغلاق عينيه إغلاقا محكما فيحجبها من حمام الماء والصابون الكاوي فإن الخزان المزعوم لا يتلقى إلا بعض قطرات من الماء في حين يمتص قفطانه وجبته بل وحتى حذاؤه ما شاء لها الامتصاص . إلا أن المسلمين يستسلمون لكل شيء ! ماداموا يقولون : هذا أمر مكتوب ! إن هذه الكلمة تقف حجر عثرة أمام التقدم لديهم وكأنها سور أبدى .

وحين تم حلاقة الرأس بالطريقة التي رأيتها يقوم الحلاق بتعطيرها بزيت معطر ويعطيها لحة حمراء وكأنها رأس دمية جديدة . ويتوج الغليون والقهوة هذه العملية ويعتقد التركي أنه الآن في جنة محمد .

(٥٧) صورة بالحفر على الخشب الإرنست بريتون « حاولت الحلاق » بالقرب من القنطرة الجديدة بالقاهرة .

وإن من يعرف الصخب الذى يسود مقاهينا الفرنسية وثرثرة
حوانيت بيع الشعور المصطنعة (الباروكات) فإن هذا السكون وهذا
البرود يشكلان تناقضا مضحكا .

والأتراك الذين تربوا فى أوربا لا يتخلون لحظة واحدة عن برودهم
فى الشرق إلا لينغمسوا فيه بشكل أقوى .

وذات يوم ، فى القسطنطينية ، هرع أحد الإنجليز الذى انتزعوا له
شعره إلى ضابط الشرطة الذى كان يدخن فى صمت وبلا حركة فى أحد
المقاهى . وتحدث الجنى عليه عن شكواه . لا جواب . ورفع صوته ،
وأقسم وهاج وماج ... لا جواب . ومع ذلك فقد كان الضابط يفهمه
جيدا لأنه كان يكلمه بالفرنسية وكان التركى ممن تربوا فى باريس . وأخيرا
بلغ الأمر بالإنجليزى أقصى مداه فأعلن أنه سوف يبلغ سفير بلاده وأن
الأمر سوف يبلغ السلطان وأنه لابد من تقديم ترصية لبريطانيا العظمى !
ولكن لا جواب كما كان الأمر من قبل .

كل ما فعله الضابط هو أنه فتح فاه بين نفختين من نفخات دخان
غليونه وأفلت بضع كلمات ليبن للإنجليزى أنه فهمه تماما وبتعبير فرنسى
فقال له : « إني لأهزأ من ذلك » .

ثم عاد إلى بروده . وكان هذا التعبير الفرنسى هو أحسن ذكرى
احتفظ بها فى الشرق من ثقافته الباريسية .

وأسقط فى يد الإنجليزى فانصرف وهو يعدو .

ذكرى من شبرا (القاهرة) (٥٨)

منذ سنين زرت فى القاهرة مقر والى مصر ، وهو مقر جميل فى شبرا
جعل منه محمد على جنة شرقية . وكان مرشدى فناناً أرمينياً يعرف القاهرة
كما لو كان هو بانها . ووصلنا إلى شبرا عن طريق الممر الكبير الذى لا مثيل
له فى العالم حيث يتجول حول الملاهى الظليلة جميع الذين يقضون وقت
فراغهم من سكان القاهرة : فترى فرقا بأسرها من الضباط ، ومسلمين
يتبعم حاملو غلايينهم ، ونساء وجاريات ذوات خمر طويلة والأنيقات
والمتغندرون من الحى الإفرنجى ... إلخ . ولتتصور مكانا تحف به أشجار
الجميز والأبنوس الشاهقة وتكون قبابا لا تنفذ الشمس إليها وفيها يتناقض
تماما مع ما إلى يمينه من رمال ملتهبة . وإلى اليسار يروى النيل الحدائق
الشاسعة ويضئ هذا المنتزه بالانعكاسات الحمراء للأمواج .

(٥٨) أكتوبر ١٨٥٠ .

وبطل القصر على النيل ذاته فى مواجهة سهل إمبابة الذى شهد
المعركة الشهيرة التى هزم فيها المماليك . ونقلنا الكشك القائم فى المدخل
بأروقته المطلية والمذهبة بكثرة إلى جوف ليلة وليلة : فثمة أكشاك للطيور
تفص بالطيور من جميع الألوان ، وحمامات تسيل فيها المياه بصفة
مستديمة ، وقاعات للاستقبال مذهبة على الطريقة التركية ومهيأة بالأثاث
الأوربى الذى تتضاهل فخامته أمام بريق الرسوم .

ولقد أدهشتنى اللوحات بطرافة طابعها الإسلامى . إنها لوحات
جانبية أو أعلى أبواب أو منحويقات سقف مرسومة بالبيضة . ولا ترى فى
هذه الرسوم ، حسب القاعدة التى وضعها القرآن ، أى كائن حى اللهم
إلا بعض الحيوانات الخيالية مثل أبى الهول والتنين والحيتان . والرسام
المسلم الذى يصور كائناً حياً يتصور أنه سوف يحكم عليه فى محكمة النبى بأن
يمنحه روحاً . ومع ذلك فإن مواقع معارك إبراهيم البحرية فى اليونان قد
صورت فى رسوم شبرا . إلا أنك لا ترى على السفن بحاراً واحداً ،
وكذلك لا ترى على القلاع جندياً واحداً . وتتقابل القذائف والقنايل كما
لو كان ذلك بفعل ساحر . وقد يظن الراى أنه ثمة آلات من الحجارة
أو الخشب تتصارع بواسطة زمبركات غير مرئية . ليس ثمة ما هو أغرب
ولا أطرف من هلع الحرب حين تترجمه الطبيعة الجامدة .

وفى قاعة العدل الخاصة بالباشا لاحظت عبارة مكتوبة تعتبر غريبة

بالنسبة لمحمد على تقول : إن سبعين ساعة من الصلاة لا تعدل ربع ساعة من التسامح^(٥٩) .

ونظرت إلى مرشدى وأنا أفكر فى مذبحة المالك^(٦٠) وسألته عما إذا كان الفنان الذى قام بأعمال الديكور كان يقصد هجاء الباشا . فأجابنى وقد أحمر وجهه :

« إنها لقصة مؤثرة . وأستطيع أن أقصها عليك لأننى أعرف جيداً هذا الفنان . لقد قدم إلى القاهرة شاباً إلا أنه كان مشهوراً فى الرسم بالبيضة . واستخدمه محمد على فى شبرا فاستأجر منزلاً جميلاً فى المدينة واستقر به مع ثلاثة من الخدم . إلا أنه ابتداء من اليوم التالى طرده صاحب المنزل حفاظاً على الفضيلة وقال له :

أنت تعيش بلا نساء ، وفى سنك كان ينبغى أن يكون لك منهن ست . وأهتر إيمان الرجل بسبب هذه القاعدة القرآنية . فغادر المنزل واستشار أحد أصدقائه الذى أرسله إلى أحد « الوكلاء » (وسيط زيجات) يقوم بنفس عمل مسيو فوا Fay . فى باريس . وأخذ هذا الرجل يتجول به

(٥٩) إن نص الفقرات الثلاث السابقة يكاد يكون مطابقاً حريفاً لما قاله الكاتب فى رحلة إلى الشرق (ساء القاهرة ٣٠٣) .

(٦٠) فى أول مارس ١٨١١ دعى المالك لحضور تنصيب ابن محمد على ، طوسون باشا . الذى عين على رأس حملة صد الوهايين . إلا أنهم ذبحوا فى القلعة فى القاهرة بأمر من الوالى .

من حريمات البيوت إلى أسواق الجوارى ويعرض عليه عشرين زوجة في اليوم بمعدل يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ فرنكا للرأس الواحد . ولما كان يرفضها الواحدة تلو الأخرى فقد ضرب الوكيل جبهته وواتته فكرة تفوق صاحباتها وصاح قائلا : أقسم لك بمحمد أن لدى طلبك . إنه خادم تركى على استعداد لأن يتزوج من أجلك أى عدد من الزيجات تطلبها منه أمام الشيخ والقاضى والقسيس القبطى وحتى أمام القنصل . وهذا « المتزوج » الشجاع يمارس تلك المهنة من أربعين عاماً فى خدمة الإنجليز الذين يضطرون لملك إلى احترام التقاليد . وهو لا يتقاضى إلا مائة قرش (عشرين فرنكا) عن كل زيجة . وكما ترى أنه مبلغ تافه . فإذا أمرنى بكلمة منك آتيك به وتستطيع هكذا أن تعود إلى بيتك الجميل . وأمام هذه المشاهد التى تسمى إلى دينه كان ثمة ما يدعو هذا الرسام إلى أن يدوس عمامته بالأقدام . وقرر أن يظل أعزب ويظل ينتقل كل يوم من بيت إلى آخر . إلا أنه وجد مأواه لدى أسرة مسيحية وجد لديها زوجة ساحرة أوحى إليه بمتعة الزواج الحقيقى وسموه ، ووجد بجوارها أختا لها أكثر سحراً ترسم مثله ، بل ربما أحسن منه ، وانتهت بأن محبت من نفسه كل سحر للقرآن . وباختصار فبعد شهر تبادل الفنان والمسيحية الحسناء خواتم الزواج فى دير الفرنسيسكان . لقد ارتد الفنان عن الاسلام ولم يحتفظ هو وزوجه من الإسلام إلا بغطاء الرأس التركى ذى الشراطة الطويلة والطرבוوش الأحمر ذى الضفائر الحريرية . ولكن لسوء الحظ إن الأسرار تنتشر فى القاهرة كما تنتشر فى باريس . ووصل ارتداد الرسام عن دينه إلى مسامع محمد على الذى أمر بحمله من قصره الصينى ووضعه فى سجن

المرتدين المظلم . وعلى الفور حلقوا له رأسه ولم يتركوا له إلا خصلة من الشعر لكى يعرضوا الرأس على الجمهور يوم قطعها . وما كان هذا اليوم ليتأخر لو لم يكن الله الذى لجأ إليه أكثر قدرة من النبى .

فى اليوم التالى لاعتقاله تقدم فنان شاب من الوالى لاكمال المهمة التى انقطعت . وكانت لحيته من القلة بحيث ظنوه طفلا ولكنه أراهم عينات جميلة من عمله حتى أنهم عهدوا إليه ببقية أعمال الزخارف . وتفوق على سلفه وأصبح مقربا من الباشا . ولم يكن للباشا من مأخذ يأخذه عليه إلا أنه فى كل يوم كان يغادر عمله فى منتصف النهار تماما . وفى تلك الساعة بالذات كان محمد على لدى خروجه يرى امرأة باكية تأتى فترتمى عند قدميه وتصيح فيه قائلة :

— « اعف عن المرتد » .

وانتهت هذه الدموع الملحة التى لا تكل ولا تمل بأن هزته . فأجاب المرأة ، قائلا : « سوف استخير الرسول فى الصلاة » . وأجل تنفيذ حكم الاعدام فى السجين إلى اليوم الذى يتم الرسام الذى تلاه فيه عمله . ياللمعجزة ! فقد كان هذا الرسام يواصل عمله مادامت الشمس ساطعة وأنهم زخارف قصر شبرا فى أسبوعين ! وسر الوالى أيا سرور وطلب منه للفور أن يطلب المكافأة التى يريد . فصاح الرسام وهو يترامى على ركبيته : « العفو عن المرتد » . وفى هذا الوضع وبهذا الصوت المتوسل شمت التخنفى الذى خلدع الناس جميعا تعرف الباشا على المرأة التى طالما استمع إلى توسلاتها أنها زوجة الفنان السجين المسيحية ! وقد أرتة آخر ما

خطته ريشتها ، وهى تلك العبارة التى كنا نقرأها منذ قليل بشيء من
الدهشة : إن ستين ساعة من الصلاة لا تعدل ربع ساعة من التسامح !
وأسقط فى يد محمد على وأنهض المرأة الشجاعة وأرسلها لتأخذ
زوجها من السجن ...

وأضافت سيدة من الحى الافرىجى كانت قد لحقت بنا فى تلك
اللحظة وهى تزيع خمارها :
وهاهما الاثنان أمامك !

وأخذت أضغط على يد هذا الرجل ذى القلب والعبقريّة وواصلت
فحص أعماله وأعمال زوجته التى كانا هما الاثنان يشرحانها لى وسط اعجابى
الشديد .

إن تحفّتها الفنيّة بلاشك هى السراشق المرسوم إلى أعلى^(٦١) .
ولاريب أن خلفاء قصة ألف ليلة وليلة لم تكن لهم أبداً مثل هذه
الاستراحة اللذيذة . ولتحكم بعينيك على التأثير الأثيرى الساحر لهذه
الخيمة ذات الكتابات العربية على الطراز البيزنطى وهذه الأعمدة التى
تحف بمناظر بقدر ما تستطيع العين أن ترى ، وهذا التسلسل من المآذن
التركية والنافورات اليونانية والنافورات المتدفقة والأحواض الرقراقّة
والقنّوات التى تخططها القوارب الذهبية والأغصان التى تصدر شرارات

(٦١) هى لوحة عمورة على الحشب لبريتون : نافورة وكشك شبرا قصر صيق بالقاهرة .

من الضوء إلى جانب ثمار الليمون والبرتقال والتي تنعكس في مياه النيل الصافية النائمة تحت جذورها . أضف إلى ذلك الستائر الذهبية والحريرية التي ترفرف بين أكاليل الحضرة والزهور . ولتتخيل ذات مساء جميل حريم الوالى المنعم يعبر هذه الممرات تحت أشجار الليمون المقصوفة في أشكال مغزلية وأشجار الموز المشعة كالزبرجد الشفاف والمعتم في وقت واحد . ولتتبع هذه المجموعة ذات الزينات المبهرة حتى الحمام المرمى الأبيض الذى لاتتوانى تماسيح النافورة العالية أن تمد أفواهها إليه .

ماهى هذه الضجة الشبيهة بخلية من الطيور تغوص وسط الأمواج ؟
إنهن جاريات الحرم اللاتي يلقين بأنفسهن إلى حمام السراىق الفسيح وهن مرتديات برانسهن الحريرية .

وماهى هذه الهمهمة التى تتناقص فوق القناة التى تفوح عطرا ؟ إنه قارب الباشا المذهب الذى تقوده عشرون من النساء المسلحات بالمجاديف المطلية وكأنها أجنحة الشعار الملكى .

وغنى عن الذكر فى تلك الساعة الخفية يغلق قصر شبرا للجمهور .
إلا أن ما يستطيع الجمهور أن يراه طوال اليوم ويستمتع به هى تلك الروائع الشرقية التى وصفتها لك وهذه الحقائق التى لا مثيل لها التى تحيط بالمقر الجميل حيث تتكاثر الزهور والتفاح الذهبى لدرجة أنه يتساقط كالمطر تحت الأقدام ، وإن أوربا كلها لاتملك من الورد مثل ما تملك حدائق محمد على وحفيده عباس باشا .

- ٤ -

مذكرات رحلة الى الشرق (مقتطفات)

ص ٧

إن الذى بنى بوابة النهر هو الحاكم بأمر الله ثم هدمت فى عهد السلطان بيبرس . وفى غرة محرم ٦٧٢ صدر أمر بهدم احدى بوابات القصر المقابل الكلية، الكامل من أجل الاستفادة بأعمدتها فى مبنى آخر . واكتشفوا صندوقا فى الحائط وجد به قناع من النحاس الأحمر موضوع على عرش شبيه بأحد الأهرامات ارتفاعه شبر ويستند إلى أربع عجلات . وكان التمثال جالسا القرفصاء وقد عقد ساقبه . وكانت يدها تحملان موسيا يبلغ محيطه ثلاثة أشبار وقد وضعت عليه عدة أشكال وجوه بارزة . وفى الوسط رأس بلا جسد حوله كتابات بالخط القبطى والخط الكوفى Kolfatyry وعلى أحد جانبيه هذا الرأس ثمة وجه بقرنين ويشبه الشكل الذى يتمثل فيه شعار العذراء . وعلى الجانب الآخر يوجد وجهان على أحدهما صليب فوق رأسه والآخر يمسك بيده عصا ويضع على رأسه صليبا . وعلى الأقدام توجد أشكال طيور تعلوها كتابات . وقد وجد

كذلك لوح ملمع كما لو كان يراد استخدامه لتعليم الأطفال الكتابة فكان
أحد وجهيه أبيض والآخر أحمر .

ص ٢٩

إننا فعلاً الآن على ضفتي التيجر (النمر) : ألا تريد أن تشرب ؟ -
فقلت له : « إني أفعل كل ما ترغب فلم أخلق إلا لطاعتك » . فأحضر
كأساً كبيراً من النبيذ التي أعرف أنها تعجبه . فقال لي :
- ألا تريد دعوة أحد ليرد عليك ؟ » فقلت له :

- « هذا ليس ضروريا بالنسبة إلى » . ومع ذلك فقد أصر على
دعوة إحدى الأنسات التي كان يحيطها بالتقدير وتسمى ديجاف Degafe
وهذا الاسم معناه الضعيفة مما جعلنا نتشائم من هذا الاسم لاسيما في الحالة
التي كنا فيها .

وقال لها : « غنى » .

فأخذت تغني تلك الأبيات للشاعر نابيج لي جيجاديت Nabegue
le gegaerite : « إنني في نهاية حياتي . إن معظم أهل وأقاربي المقربين
يطلبون الثأر » .

فقال لي : « خذ فالك من هذا » . ثم قال لها : « غنينا شيئا آخر »
فبدأت بهذا القول : « لتبك يا عيني ، لتبك لرحيلهم فإن فقد الأصدقاء
يستأهل ذرف الدموع » فقال لها :

« ليلعنك الله ، ألا تعرفين من الأغاني غير هذه ؟ » فقالت :

- يا سيدى ، إننى لم أغن إلا ما رأيت أنه سيلقى استحسانا منك ،
ولم أكن أقصد أبداً أن أضايك .

ثم غنت تلك الأغنية الأخرى : « يا إله الراحة والحركة ، ما أسرع ، ما
تبلغنا أقدارنا ! إن الليل والنهار ودوران الكواكب فى مسراها لا تتغير
أبداً ؛ إلا أن الملكية قد ترك ملكا لتلحق بآخر ثم آخر . أيها الإله الكبير
الذى تملك عرشك الذى لا يتزعزع دواماً دون أن يكون لك خليفة ولا
رفيق .. »

فقال لها : « إليك عنا لتلحق بك اللعنة .
هذهبت : وأثناء انصرافها ضربت بقدمها كأساً من البللور جميل الصنع
كان يحبه كثيراً فكسرتة .

فقال « المخلص » : « يا للأسف يا إبراهيم ، ألم تر ما فعلته هذه
الفتاة ؟ وما حدث للكأس ؟ وحق الله لا أظن أن موضوعى سيتم على
خير .

فقلت له : لينحك الله طول العمر والعهد السعيد ومحطم
أعداءك ! »

ولم أكد أتم كلامى حتى سمعنا صوتا من فوق « الثمر » يقول :
« إن الأمر الذى يهمكما أنتم الاثنين قد أفرغ »
فقال « المخلص » : « ألم تسمع شيئا يا إبراهيم ؟ »

فقلت : « لاشيء على الإطلاق » . ومع ذلك فقد كنت سمعت جيدا ما قيل ، بل واقتربت أكثر من حافة النهر . ثم أعيدت العبارة نفسها وبصوت أكثر ارتفاعا : « إن الأمر » .. وظل بعض الوقت ثابتا في مكانه وهو يفكر في حزن ، ثم امتطى صهوة جواده وعاد إلى قصره في المدينة . ولم يمض يوم أو يومان حتى قتل ...

(هذه بعض ملاحظات جانبية من المذكرات تتصل بأهم الموضوعات التي كانت تهم نرفال) .

أحس بالحاجة إلى احتواء الطبيعة كلها (النساء الأجنبية) وثمة ذكريات بأني عشت فيها .

إني أتبع نفس الملامح في نساء مختلفات .

إني عاشق لنقط معين لا يتغير .

آل مديتشي ، ماري دي مدنسي (القديس دنيس) . بالنسبة لي إنها إحدى آل مديتشي .

قرين سيتمان : أفضل أجزائه كان يبعث الحياة في الآخر (طرفي النقيض)

العالم اللا عالم

البطل ابن قابيل

الإله الذي يتمتع بجميع النساء في الحلم .

القرين : ابن السماء

ابن النار
الذى يفرض أن يكون كل شخص إله عالم أحلامه .
يتبعه قرينه أو جنيه الداخلى . الملوك .
أشباح النيبذ . ما يشرب وما يؤكل ، الروح الشريرة تأكل لحم
ملائكتها الثائرة .

اختيار لبعض النصوص المتغيرة

حسب عادة جبرار طعت «رحلة إلى الشرق» قبل الطبعة النهائية التي صدرت سنة ١٨٥٩ عدة طبعات جزئية . ولذلك فإن اختيار عدد متميز من النصوص المتغيرة يجعل الناشر في حيرة . بل إن فكرة النص المتغير في حد ذاتها كانت موضع جدل . والواقع أن جبرار لم يكن يكتفي بمراجعة بعض التفاصيل أو تحسين العبارة الأدبية بل كان يحدث أن يعدل مجموعات بأسرها وأن يمحذف أجزاء هامة . وكان يحدث له كذلك أن يمحذف ، في الطبعة النهائية ملاحظات اعترف المؤرخ الصحفي أنها من مصادر ومراجع أكيدة رفض الروائي - القاص أن يفرد لها أى مكان .

ولذا فسوف يجد القارئ هنا اختياراً غزيراً نوعاً ما للنصوص المتغيرة الهامة وأكثرها دلالة مرتبة حسب الفصول والموضوعات التي كثيراً ما كان جبرار يشترها منفصلة . وسوف نجد على رأس قائمة لهذه النصوص المتغيرة مراجع هذه الطبقات .

مقدمة : نحو الشرق

ص ٩

من الخير أن نعرف اليوم بأن أوروبا معروفة تماماً للناس جميعاً ولذا فإن المسافر لا يمكن إلا أن يكتب سلسلة لما رآه في طريقه وقصة مغامراته ، وقد يستطيع إذا انقضى الأمر نقل بطاقة عشائه كما كان يفعل لويس الثامن عشر في أكثر كتب الرحلات إمتاعاً وإثارة . أليس من المثير مثلاً أن نعرف أن من العسير جداً الحصول على سمك التروته في جنيف وأن هذا النوع من الأسماك من الندرة في بحيرة ليمان بحيث يذكرنا بندرة المحار في أوستاند والشبوط في نهر الراين ؟

ولقد كنت أدهش على مائدة في مانهايم ، بأنني لم آكل الشبوط أبداً في تلك المدينة رغم حبي الشديد له (لا بد أن أضيف أنني لم أستطع أبداً الحصول على شراب التفاح في روان ولا فطيرة الكبد في ستراسبورج بحجة أننا في غير الموسم) . ورد على أحد الألمان من سكان هذه المدينة الطيبة مانهايم : أنتظن أنهم يصطادون الشبوط هكذا في نهر الراين ؟ فرددت عليه في برود قائلا : لقد رأيت لدى كورسليه ولدى شيفيه بعض

هذه الحيوانات التي تدعى أنها عاشت في هذا النهر . فأجاب الألماني :
اننى لا أقول يا سيدى أنه لا توجد أشباط في نهر الراين ... - بل قل
ذلك ، لو شئت يا سيدى ، فنحن نسمى ذلك في باريس أمرا خارقا
للعقل ، أما هنا فقد يكون الأمر صحيحاً تماماً . فقال الألماني : إن أشباط
نهر الراين جميلة جداً ولذا فهى الصحن المفضل للرءوس المتوجة . وهم
يعرفون قيمتها ، وصيادو الراين الذين يكونون نقابة قد تقاسموها منذ مدة
طويلة . إنهم يعرفونها وحين يصادف صياد إحداها فإنه يقول : «حسن
إنه شبوط فلان» ويعيدها في شرف الى الماء ، وأظن أن ثمة ترويات
بهذه الطريقة في بحيرة إيمان .

٢ - الملحق بالسفارة

ص ١٠

أنت لا تؤمن باللصوص ولا أنا كذلك ، فلم أر أحداً منهم قط وإن
كنت تخيلت منهم الكثير) . حسن ! إن ثمة أناسا هنا يصدقون ما يروى
عنهم ، وتؤكد لنا الصحف أن بفاريا ملغمة بهم . أما عن الجليد فهم
يقصون عنه قصصاً مروعة . فنسمع أحيانا عن مرشد يخفى تحت أنظار
المسافر الذى يرشده ، كما يخفى الشبح في فتحة الباب ، وأحيانا أخرى
عن عربة مسافرين تظل مدفونة في الجليد سبعة عشر يوماً ، ويضطر
المسافرون إلى أكل لحم الخيول ليتغذوا بها . وهناك مسافر انجليزي ذهب

الى ايطاليا بحثا عن الربيع فضل وسط الثلوج ولم ينقذه أى كلب من
كلاب جبل سان برنار لأن مسرح الأمبيجو Ambigee أهمل إعادتها الى
مراكزها الا أن قصص الفيضانات أشد من ذلك هولاً .

ص ١٣

وسافر بعربة وتمني أن يصادف عربة أفضل من تلك التى نقلتني
الى فرني Ferney وبعد ذلك فقد يومان هباءً بالنسبة للبرقيات ، ومن
يدري أية تعقيدات حدثت بسبب ذلك بالنسبة لمشكلة ما ... أتريد أن
تعرف الآن اسم الملاحق ؟ انه ابن عمى هنرى ، الذى سافر من باريس فى
نفس الوقت الذى سافرت فيه منها وصادف من المتاعب أكثر مما صادفت
فى العربات المتواضعة التى التقيت بها .

ص ١٤

لست أجد فى نفسى أية رغبة لتسليتك بالأخطار التى صادفتها
والمتاعب التى لقيتها كما حدث لكاتب « رحلة الى سان كلو » المعروف (٦٢)
ومع ذلك فلن تمنعنى من الأسف على هذه الأسفار الصعبة فى فرنسا
العتيقة كما نقرأ وصفها فى « سيرانودى برجرأك »

وفى كتابات الشيفالييه داسوسى بل حتى فى الجولة الذواقة التى قام
بها باشومون وشابيل . أتذكر مغامرات البارون دى فينست المرححة حيث

(٦٢) إنه لويس بلترار بيل (١٧٤٨) .

كان يعنى بتعويض نفقاته من الفنادق التى كان يتزل بها بأن يستولى من غرفته على الأقل على المناشف والأمشاط أو حتى قدر الماء لو كان من المعدن ؟ وفى الفصول الأولى من قصة ماريان أية رحلة تلك التى كانت تقوم بها عربة بوردو الضخمة التى كانت تقضى ثلاثة أسابيع للوصول الى باريس وتجنح من خمس الى ست مرات فى الطريق وتصادف على أقل صدمتين من صدمات هجوم اللصوص !

تلك متع فقدناها كما فقدت قصص الأسفار الحديثة منها مصدرا كبيرا للإمتاع . وما أن يجد المسافر نفسه خارج فرنسا حتى يحدوه الأمل فى العثور مرة أخرى على هذا العرق الطيب للمتعة لاسميا فى البلاد الجبلية . لكن بالأسف ! كم أصبح غير المتوقع نادرا ، حتى فى سويسرا حيث يسافر المرء معظم الوقت سيراً على الأقدام وغير المتوقع هو سيل يحول عربتك الى سفينة (إنك لم تنس بعد قصة الملحق) أو اعصار يتلعك أو دب من برن يأتى ليشم رائحتك فى طريقه أو موجة من بحر الثلج تنكسر تحت أقدامك . أو ربما (إذا كنت من المحظوظين جداً) مغامرة صغيرة مع اللصوص .

معذرة ، لقد ابتعدت كثيراً فأنت لا تؤمن باللصوص واللصوص فى الواقع لا وجود لهم فى أى مكان . وأنت تعرف كما أعرف أن المرء يضطر الى دفع النقود الى بعض التعساء لكى يعترفوا بأنهم مذنبون حتى يتمكن القضاة ورجال النيابة والمحامون والشرطة المحلية من أن يبرروا وجودهم يتقاضوا رواتبهم وحتى تعمر سجون الأشغال الشاقة والسجون . انها

مسرحيات هزلية صغيرة تلعب فى وضع النهار بين الأرواب السوداء
والثياب المثقبة ويمكننا أن نرى بقراءة أوراقنا القضاية كم يذل فيها من
اختراع وفن .

ولكن اذا لم توجد المغامرات ، فما زال أمام السائح الأديب مهمة
الوصف . فهو يعد أحجار الآثار وأوراق الغابات ، ويخلق الأراضي
الخلفيات العابرة والآفاق . ويأتى التصوير فيسد أمامه الطريق . وفى كل
مدينة تصادف من المصورين اثنين أو ثلاثة لا يتظرون إلا شعاع شمس
ليبدءوا فى العمل . ولكن الشمس نادرة فى هذا الفصل وليس أمام
مصورى المناظر الميكانيكيين إلا الذهاب والبحث عنها فوق السحب
باللجوء الى عمليات صعود خطيرة .

ذلك أنها جبال الألب العالية هى التى يكتشفونها فى كل جانب من
الأفق . واعترف أننى لم أكن قد عرقها بعد . وكان بعضهم قد ادعى فيما
سبق أنه أراى إياها فى ليون من أعلى فورفيير Fourvières ؛ وفى نيس من
فوق جبل يشرف على المدينة . ولكنى لم آخذ من ذلك الا فكرة ضئيلة أو
غامضة للغاية . وهأنذا فى مواجهة الجبل الأبيض Mont Blanc . وكم أود
تذكر الأبيات العشرين التى قالها لوكونت دى ليل والتى جعلته شهيراً
ولكنى لم أذكر الا الأبيات التى خلدت القهوة :

وتخيلت ، وقد شعرت بصحوة العبقريّة ،

أننى أحتسى مع كل نقطة شعاعاً من الشمس ! .

ولكن هذه الأبيات لا تنطبق إطلاقاً على تلك الحالة .

ومن المؤكد أنه كان شاعراً مريحاً ذلك الذى دق على كل منظر لوحة جميلة من البحر الطويل . وهكذا فإن الطبيعة بأسرها أصبحت تحمل لافتات وكأنها حديقة نباتات . ويرى رجال المجتمع فى ذلك لونا من الحماس المعد مسبقا مثل مجاملات رأس السنة . ولا يزال فى جنيف كثير من المعجبين بدى ليل .

لقد ظلمت إذن طول السهرة أبحث عن الجبل الأبيض . ولقد تتبع شواطئ البحيرة وصعدت إلى أعلى الأسطح فى المدينة ، ولففت حول الأسوار .

ودخلت إلى المسرح ، وهو كبير نوعاً ما ، ولكنه يبدو قليل الازدهار من الداخل . وكانت الفرقة التمثيلية تقدم ثلاث مسرحيات من نوع الفودفيل . وكان الممثلون من مشوهى الحرب الذين لم استطع الاعجاب كثيرا بمواهبهم . وقد وقعت جنيف فى ذات السوءة التى وقعت فيها بلجيكا إذ وجدت نفسها فرنسية دون رغبة منها فى ذلك . وهذه البلاد الضالة لابد أن تكون تعسة سواء إذا قبلت التبعية الذليلة أو ادعت الاستقلال . ومنذ سنة ١٨٣٠ قدمت فرنسا يدها لمساعدة إحداها وأعطت ضربة قدم للأخرى وتسبب عن ذلك أن أصبح الفرنسيون مكروهين فى كلا البلدين . وقد رأيت فى جنيف كما رأيت فى بروكسل رسوماً كاريكاتورية كثيرة عنا معشر الفرنسيين وكلها من عهد التهديدات

بالحرب سنة ١٨٣٦ . وأحدها يصور جندي مشاة فرنسا يتقدم على الحدود وقد بدا في هيئة حامل السيف المتوحش . ومن ناحية الحدود السويسرية يوجد في الرسم متطوع من جنيف ، قصير القامة ، ولكنه شجاع . وهو يصيح في الفرنسي مستشهداً بذلك البيت لشهير !

صحيح أنني شاب ، ولكن بالنسبة للنفوس طيبة النشأة الخ ... وقد راغنى أن هؤلاء السادة قد وجهوا إلينا بدل المدافع بيتين من الشعر لكورنى . ومع ذلك فلنعترف بأن هذا أقل مرارة من الرسم الكاريكاتورى الشهير الذى نراه على مدخل فرانكيلون Franquillons فى بلجيكا .

ص ١٦

ولما كنت لا أدري كيف أقضى بقية السهرة حتى رحيل عربية بريد ، فقد جلست فى أحد المقاهى حيث وجدت نفس أعداد الصحف الفرنسية ، الدستور والقرن ، التى صدرت يوم سفرى ، وهذا ما دفعنى إلى أن اندفع نحو الصحف المحلية . إن سياسة هذه البلاد الصغيرة مسلية من ناحية أنها تتسم بنفس النغاث ونفس التقسيمات ونفس ألوان الغضب ، ونفس الشعارات المبتذلة التى تتسم بها سياستها إنها ثورة فى كوب ماء إذا كان يمكن أن نقول ذلك . وما زالت الخلافات الدينية تضيف هناك تعقيدات لم يعد لها مكان لدينا ، ويبدو من جريدة لوزان Le Pr ewier lousanne التى أراها تحت عيني أن الاستراوسيين يعانون من المكانة الأقل فى أماكن كثيرة . فحزب ستراوس الذى هزم فى زيورخ قد رفع رأسه فى لوزان . وقد ضرب المجلس الكبير ضربة كبيرة فقد كان ثمة

أستاذ متحيز لحزب ستراوس يدعى شير Scherr كانت المدينة تعطيه كما تعطى بقية الأماتذة خمسين جنينا ذهبيا بخلاف المسكن والحديقة فلكى يعاقبوه على خطبة غير معتدلة ألقاها انتزعت منه الحديقة فإذا تحدث ثانية انتزع منه الحشب وهكذا .

وهذه الطرق الهادئة هي أفضل ولأريب من إشهار السلاح في زيورخ وأنسب لإقناع الانفصاليين . ولو حدث ذلك في الماضي لعملوا بقسوة في نفس هذه المقاطعة التي أمر فيها كالفان Calvin بشوى ميشيل سيرفيه Ichel Servet بالحشب الأخضر حتى يستمر التعذيب مدة أطول . أما اليوم فيكتفى بانتزاع الحشب منهم . وبدلا من حرقهم في ميدان عام فلأنهم يتركونهم يتجمدون من البرد في منازلهم .

وأنا هنا في حالة تعطل تام بحيث اننى انتقل من السياسة إلى الإعلانات ، حيث أجد منها ما هو شيق للغاية ، وهذا هو أحدها : للإيجار رقم ٢٤ ميدان البالود La Polud شقة كاملة مكونة من صالون يشكل مطبخا وغرفة نوم . وإنى لسعيد إذ استطيع الترويج لهذا الإعلان . والإنذارات القضائية تكتب بهذه الصيغة :

مدير المرافعات Les Delats (ولنلاحظ أن الأمر لا يتعلق بمسيو برتان ولكن ربما بقاضى التحقيق في البلاد ، الذى يكتب في الجريدة إلى المحرم العاصى : «إليك يافرنسوا بن برنار الذى يعمل عادة خياطا وهو الآن هارب بموجب القرار الصادر في ١٧ أكتوبر ننذرك بأنك في سوق يوم ٩ الجارى وجهت طعنة في البطن إلى السيد برسون Persond . والآن

نندرك بأن تسلم نفسك إلى سجن أفانشر Avanches وعلى السجنان إذا تقدمت إليه أن يقوم بسجنك . توقيع كاتب المحكمة بورنان « Bornand »
(٢) إليك (وهنا لم يذكر الاسم لأنه غير معروف) نندرك بأنك سرقت من غرفة السيدة ميليك خمسة تماثيل ذات دماء مختلطة ، وبخلاف ذلك فقد فتحت « بوفيهها » وأخذت مختلف الأشياء التي تلامك الخ . ونحن نوصي بصيغة « الرسالة » هذه إلى قضاة التحقيق لدينا فهي كفيلة بتوفير الكثير من رجال الشرطة . ولو كان المجرمون يقرأون الصحف لتأثروا ولاريب بهذه الإعلانات المهذبة .

ألس أنا الذى قلت أخيرا ان جميع نساء جنيف فى سن الأربعين ؟ ويأتى هذا بلاشك من أنه ، بسبب جاهلن المفرط ، فإن باريس تحتفظ بهن فى ريعان شبابهن ولا تعيدهن إلى وطنهن إلا بعد أن تكون قد أذبلتن قليلا وحطمتن قليلا ...

وهنا يمكن بضع سنوات فى حالة أوهام ضائعة . ثم يذهبن ليعكسن جوارهن الزرقاء فى البحيرة الزرقاء . إنها المدرسة التى مازالت قوية مدرسة روسو ومدام دى ستال وبلزاك (وبنجان كونستان) . ثم لما تبدأ الأعوام الأربعون ، التى تعنى بالنسبة لهن الثلاثين ، تقترب من نصف القرن تعبر هؤلاء الجميلات من جنيف إلى لوزان عن طريق بحيرة لي مان الهادئة . وهنا تكون مدرسة سينانكور ومدام كرودر وسانت ييف - الخ مما يخلق ملائكة ساقطة ومخطمة ومدفونة فى هوة سحيقة للدرجة غير عادية . فهل يستطيع بلزاك أن ينهضها يوما بأنفاسه القوية !

إن المرأة في سن الحمسين في حاجة إلى أن تستند إلى عصا صديقنا ، وأنا لا أفعل إلا أن أنقل إليه هذه الرغبة وأخبره كم هو محبوب في هذا البلد وموضع الآمال .

ص ١٨

فمثلا لابد أن أقول إننى أطلب بفتيك خوفا من أن يكون من لحم الدب وقد علمت من صديقنا أنه في « الشاليهات » وهى مقر إقامة الكرم ، فإن فنجان اللبن يباع بأربعة فرنكات ، وقد رفضت لذلك تناوله . ولذا فإن تجارب رحالة الماضى ليست عديمة الجدوى وهذا ما يشفع لهذه الرسالة من قبلكم .

وهكذا فحين تغادر برن وتقضى يوماً ملولاً في عبور غابات الصنوبر والسندر المزدانة بالشاليهات المتواضعة وقريتين مكتنظتين بسكان أقل جمالاً من جمهور الأوبرا فانك تكون سعيدا لو تناولت عشاءك في الساعة الحادية عشرة في آرو Aarau في بيت مضيئة رائعة الجمال عارية الصدر جداً وترتدى الثوب الوطنى . وهناك ، وبعدد معقول من عملة الباتز Batz تناول وجبة لا ينقصها شئ وتظهر فيها أخيرا تروته البحيرات والسيول ، التروته الزرقاء المنقطة ، فراولة الجنس الحيوانى ، البسيطة الرفيعة المعطرة التى ينبغى ألا نخلط بينها وبين تروته جنيف التى ، لو سلمنا جدلاً بأنها مازالت موجودة ، ماهى إلا إحدى سمكات السلمون المتخفية .

وجدران غرفة الطعام مزدانة بمناظر مدينة آرو التي تلاحظ بينها منظر
نزل زوك Zchookke الروائي المشهور . ومن الحزن أن تضطر أخيرا إلى
مغادرة هذا الحان اللطيف التي نحب أن تقضى الليل فيه لاعتبارات كثيرة .
وتودعك المضيئة بتحية رقيقة ومحمر وجهك وأنت تدس في يديها لحظة
رحيلك النقود المتواضعة التي تسميها سويسرا باتز .
وسوف نعود للحديث عن هذه العملة بخصوص الكروتزر
Krutzers الألمانية وهي ليست أقل خداعا من الأخرى بالنسبة للرحالة .

ص ٢٥

إن كل حكومة من حكومات ألمانيا تحتكر المرور ، ولا بد من استثناء
بلاد الاتحاد الألماني الصغيرة التي تخططها شبكة المراكز الاقطاعية التي
تنتمي لأمر الجولات وسيارات التاكسي . وهذا الأمير ، ولا بد أنك
سمعت اسمه يتردد ، هو المركيز دى كاراباس الألماني . فإذا سألت لمن هذا
القصر ؟ قيل لك لأمر الجولات والتاكسي . لمن هذه الجياد والعربات
والصحف الخ فتتلق نفس الإجابة (لأنه يمتلك أيضا بعض الصحف في
مختلف البلاد ، باسم الاقطاع ، لاسيما جريدة Gazette des Posts
وجريدة هرنكفورت) . وهذه الاقطاعات الصناعية لا حصر لها . وهذا
الأمير والإمارة التي لا تكاد تبيينها العين له دخل أكبر الملوك المطلقين
نفوذا . وشعبه المكون من رجال محطات الأسفار والكتاب والعمال يبدو
سعيدا في حياته تحت قوانينه في مساحة قد لا تعدو مائتي فرسخ من الشمال
إلى الجنوب . وعلاوة على ذلك فهو سعيد الحظ إذ يحتفظ دائما بطبيب

إلى جوار شخصه وقد جعل منه أحد وزرائه ، فإذا نظن قد حدث أخيراً ؟ إنه الطبيب الذى مات . وقد بكاه أمير الجولات والتاكسى ولم يشأ الحصول على آخر . إن هذا الرجل لن يموت أبداً ومع ذلك فالناس ينتظرون موته لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية التى تعوق حقوقه الإقطاعية إقامتها من كل جانب .

ماذا أقول لك عن البلاد التى أجوها فى هذه الساعة ؟ إنه طريق واحد الوتيرة وسهول وجبال أو على الأصح أكبات ، وتجد أشجار الصنوبر فى كل مكان . إن الجزء الأكبر من ألمانيا على هذه الشاكلة وهذا ما يجعلها خضراء يانعة فى أغانى الشعراء . لنسرع الخطا إذن للوصول إلى أوجسبورج ، وهى مدينة جميلة لا مثيل لها فى هذه الجهات ، تذكرنى بمدن شاطئ نهر الراين الجميلة . إن هذه المدينة تستحق أن يكون لها نهر أو بحيرة لسقيا جدرانها ومع ذلك فليس لها حتى ولا جدول صغير . والكاتدرائية جميلة جداً والشوارع ساحرة ببيوتها الكبيرة المطلية باللوحات الضخمة من أعلى إلى أسفل . وهنا يوجد رسامون مجهولون فى مهارة كارافاج وميكل أنجلو لأن الأمطار تقلل من قيمتهم كل يوم . إنها أروقة لا نهاية لها من اللوحات الضخمة الدينية أو المدنية تعترضها الأبواب والشبابيك كالثقوب وتمع منظرها عين المار . ومعظم هذه الرسوم من طراز الروكوكو الذى ساد القرنين الماضيين ، وتجميلها أحياناً التماثيل والألوان المذهبة الزاهية . وفى أكبر الشوارع ، وهو تقريباً ميدان طويل ، نرى مقر البلدية التى يشاهدها الأجانب الغرفة الذهبية الشهيرة

التألق بالذهب والحشب المنحوت والتي ينبرها عدد لا حصر له من النوافذ . وثمة نافورة كبيرة من المرم والبرونز على طراز عصر النهضة تزين الميدان المجاور لهذا القصر وهى من أثرى وأرشق النافورات التى رأيتها مما يشيع التحجل فى مجموعات النافورات الصغيرة من الزهر التى تزين ميادين باريس بطريقة اقتصادية .

وبعد أن أعجبت بكل هذا الجمال وزرت مكاتب جريدة أوجسبورج أولى صحف المانيا ، أردت إكمال سهرتى فى المسرح . ورأيت إعلانين فى كل جوانب الشارع أحدهما يعلن عن مسرحية «برسيوزا» وهى أوبرا لفير Weber والآخر عن مسرحية دكتور فوست فى مسرح العرائس . وكان من سوء حظى أن أهملت فرصة رؤية الدراما الساذجة التى أوحى إلى جوته بتحفته الخالدة وحجزت مكانى فى الاوبرا . وعرض أولاً فصل مترجم لفودفيل فرنسى . وهكذا تبدأ العروض المسرحية فى ألمانيا بأسرها . ثم كان لابد من سماع مغنية فيينا الأولى أثناء الاستراحة . والواقع أنه ماكاد الفودفيل ينتهى حتى فتح الباب الداخلى وبدأت امرأة ضخمة مرتدية الملابس السوداء . وغنت المقطع الأول بصوت رائع منخفض النبرات . أياكون هذا رجلا متخفيا ؟ إطلاقا فقد غنت المقطع الثانى بصوت سوبرانو أكثر حدة من صوت الآنسة بيجازيه Bejazet .

ماهو هذا الوحش الموسيقى ؟ وفى المقطع الثالث غنت البيت الأول بصوتها منخفض النبرات والثانى بصوتها المتوسط وهكذا . وبعد هذا الجهد غير المعقول ارتفع حماس الجمهور وانهاالت الزهور على المرأة البدينة



وكان الأمر يحتاج لكمية كبيرة من الزهور لتغطيتها . ثم بدأ عرض برسيوزا .
ولكن لم ألبث أن لاحظت شيئاً هو أن الممثلين كانوا لا يفعلون سوى قراءة
الآبيات الشعرية بطريقة تمثيلية بينما الأوركسترا يعزف موسيقى فير Weber
بصوت يصم الآذان . وأسرعت بالخروج من المسرح على أمل أن أجد
منسرح العرايس مايزال مفتوحاً ولكنى لم أصل إلا لأسمع الأنغام التى
أغرقت الدكتور فوست فى الجحيم .

ص ٢٩

إنى أرتى كثيراً لملك هذه البلاد الذى يدافع مع ذلك عن نفسه بأنه
ملك دستورى وأنه فرض على نفسه عادة استقبال ثلاثين شخصاً مرتين فى
اليوم فى سكنه الخاص . وحين يغادر المائدة يجد أرضياته الخشبية وأثاثه
وقد تلوث بآثار مجهولة ؛ وإن ما يلمسه قد لمسه الآخرون للتو والهواء
مازال مليئاً بأنفاس غير نقية . وقد حفر بعض الإنجليز سراً أسماءهم على
المرايا وعلى رخام « الكونسولات » . من يدرى ماذا أخذوا وماذا تركوا ؟

وهذا يذكرنى بأننى قد رأيت يوماً فى التريانون حوض الدوق دى
نيمور بجوار حوض جوزيفين وقطعة صابون صغيرة كان الأمير قد استعملها
فى آخر مرة قضى ليلته فيها فى التريانون .

وسوف امتنع عن الوصف المفصل لقصر ميونخ الذى طالما عدد
مرشدو المسافرين ثرواته الفنية .

إني أبعد ما يكون عن محاولة الإقلال من قيمة جمال المقر وذوق ملك بافاريا للفنون التشكيلية لا يتيح أى لون من الاستهزاء . ولكنى أتساءل ما اذا كان صحيحا أن السيد كورنيليوس حين قدم إلى باريس منذ بضع سنوات لم تدهشه ثروات قصر فرساي وأنه تحدث عنها كما فعل الجاسكونى الذى رأى أن قصر اللوفر يشبه حظائر قصر والده . ونحن نعتقد أنه رجل ذواقه وحسن النية بحيث لا يمكن أن تكون تلك القصة صحيحة لاسيما أن قصر ميونخ يحتوى على نواح من الجمال لا جدال فيها وهى نقطة لا تهم إلا مواهب السيد كورنيلبوس . كما يتوقف علينا وحدنا أن ننسب إليه هذا المجد .

أنتصرون أيها الباريسيون أن أسبانيا وإيطاليا تنقصها الزبد تماما ؟ وربما لم يحدث لكم أبداً أن أوليتم اهتماماً كبيراً إلى هذا العنصر المتواضع المسمى بالزبد . حسن ! فحين توقفت السفينة البخارية القادمة من نابولى لدى نيس كانت الفكرة الأولى لدى المسافرين هى أن يهرعوا إلى المقهى الملكى فى الميدان الكبير وأن يتناولوا بشراة إفطارا من الزبد واللبن ، اللبن !

وهل تعرفون كيف تصنع السيدات الايطاليات قهوتهن فى الصباح ؟ إن هؤلاء التعتسات يذبن بياض البيض فى القهوة السوداء ، لعدم وجود اللبن ، ويشربن هذا الخليط . هذا ما لا يعرفه أحد .

وميونخ ينقصها المحار وطبعا أسماك البحار ، ونييذا متواضع وغالى ثمن ولكنها تطرى البيرة التى تنتجها وهى تتمتع فى الواقع بسمعة كبيرة فى لمانيا بأسرها . ولا ينبغى الحديث عن بيرة ميونخ أمام المسافرين الذين ذوقوا البيرة البلجيكية والإنجليزية . والقارو واللامبيك هى أنواع من لبيرة لا يعرف عنها أحد شيئا حتى فى باريس . إنها حقا مثل أنبذة الشمال لى تجعل المرء مرحا وتسكره أسرع من التبيذ نفسه . والبيرة الامبراطورية والملكية فى النمسا وبافاريا لا علاقة لها بهذه المشروبات الثيلة . ولذا فهى تنافس التبغ فى ميزة تخدير وتنويم هذا الحسد الكبير جسد الشعب الألمانى .

وسوف يغفرلى القارئ فاتحة الشهية هذه التى لا تخلو من فائدة ذلك لأن المسافرين جائعون كالأبطال والطعام من انطباعات السفر التى لا جدال فيها .

ص ٣٩

مادمننا نتحدث عن الآذان فلتكلم فوراً عن المدافىء . والمدافىء البافارية أجمل مدافىء فى العالم وبنافها هندسى وزخارفها نحوت حقيقة . ولو عرفوا فى باريس المدافىء الألمانية لزهذوا فى مدافئهم . إنها أجمل قطعة أثاث . وهى تلائم غرفة النوم كما تلائم قاعة فى قصر . وقد رأيت مدفأة ألمانية فى قصر رستاد وقد جمعت بالرسوم والقيشاني يقدر ثمنها بمائة ألف فلورين . وأجمل هذه التحف تحتفى شيئا فشيئا من ألمانيا لأن الأمراء

وكبار السادة قد تبنوا في كل مكان المدافىء الفرنسية . إلا أن البورجوازية مازالت تتمسك بمدافئها القديمة وإنها لعلى حق .

ص ٣٢

لنا إذن الحق في رفض ذوقنا الباريسى الرديء لاسيما إذا عينا بملاحظة أن ملك بافاريا في زخرفة قصوره ومتاحفه قد ابتعد دائما عن الذوق السقيم الذى ازدهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويبدو لنا أن هذا موجه ضد قصر فرساي وثمة تلميحات كثيرة لا توجد الآن تحت يدى تؤكد لى صحة هذه الفكرة .

وقد استسلم الرسامون في أسقف الجليثوتيك Glyptothek إلى عدم الاعتدال في اختيار الألوان مما نحن أبعد من أن نؤيده . وإن الرسوم البارزة السفلية الرائعة لفيدياس والتحف المرمية النقية لكانوفا Canova التي نلتقي بها إذا خفضنا النظر كان ينبغي أن تحجل التكوينات المتحدقة للرسامين الجرماني . ومع ذلك فنحن نستثنى رسوم السيد كوريليوس التي ماهى في الواقع إلا تكوينات مادام لم يقم هو برسمها ، وقد حدث أن قام بزخرفة قاعة بأسرها بموضوعات مستقاة من الإلياذة وقد رأينا تلك الرسوم في باريس . ولست في حاجة لتكرار ما يعرفه الناس جميعا هذه الأيام من أن الرسوم التي ترسل إلى هنا كنسخ للوحات الكبيرة في مدرسة ميونخ لا تعطى إلا فكرة خاطئة عن تأثير الرسوم الحقيقية : ولا يوجد مسافر واحد لم يبد تلك الملاحظة .

هذه الأخيرة قطعة يفخر بها أهل مدينة روان . والمعروف أن سهم روان القديم الذى ينافس سهم مدينة ستراسبورج وأنفوس قد أحرق منذ عدة سنوات . وقد قرر مجلس بلدى روان إعادة بنائه من الحديد الأجوف وقد تم ذلك . والآن سوف يعيش هذا السهم أكثر من الكنيسة نفسها . فهو خفيف واقتصادي وغير قابل للاحتراق ويمكن حكه ويبيعه بالوزن . ولكن إذا نظرت إليه من أسفل فإن برج الجرس يبدو هزيلا سقيما . إنه برج العنكبوت ويشبه دفة مزدانة بجبالها . إنه سهم ضامر هزيل مما يسيء إلى مظهر مدينة روان التى تحملت من قبل الإساءة فى الكوبرى الحديدى ورصيف المنازل الجميلة .

حين دخلنا إلى المدينة صادفنا آثارا جديدة عديدة كقيلة بتخليد مجد بافاريا فى كل صوره . ونلاحظ بصفة خاصة مسلة تشبه مسلتنا تماما ولكنها كلها من النحاس الأحمر مثل تمثال مكسيمليان . وهى مهداة الى الآلاف الثلاثة من البافاريين الذين فقدوا حياتهم فى حملة روسيا . ونحن لا نعترض على ذلك .

وكان ثمة عرض مسرحى لفودفيل مترجم وعرض ليلودراما نثرية ، ميديا ، تقوم بتمثيلها مدام شرودر - ديفريان وهى على حد قولهم ممثلة التراجيديات الأولى فى ألمانيا . وقد ذكرتنا تلك الممثلة بالآنسة ديشنوا فى أيامها الأخيرة . وكانت المسرحية هزلية وملينة بالمعارك المدبرة والحرائق

والقتل وانتهت بعرض ضوئى بلهب البنجال . هل هذا هو كل ما وصل
إليه الفن التمثيلى فى ألمانيا ؟ ولكن على الأقل ممثلونا فى المسارح الشعبية لا
يختارون الموضوعات الكلاسيكية . وإذا عرضت ميلودراما باسم ميديه
medee فى مسرح بورت - سان - مارتان Porte Saint mortin لما
صادفها التوفيق .

الحب فى فيينا

ص ٣٥

نأمل أن نقدم قريبا بقية مقال السيد جيرار دى نرفال الذى ننشر
منه اليوم الجزء الأول . فقد أصيب الكاتب فجأة بمرض حاد رأى
أصدقائه الذين استسلموا بسرعة للانزعاج أنه غير قابل للشفاء ولكنه
سوف يستطيع فى خلال بضعة أسابيع أن يستأنف هذا السرد الذى تبدو
فيها عادات فيينا وتقاليدها تعيش فى استسلامها ومرحها البريء . ونحن
نشتر فرصة هذا المقال لطمأنة الأشخاص الذين يهتمون بفكر هذا الكاتب
المرح الرقيق . فقد زال الخطر وما هى إلا أيام قلائل حتى يعود السيد
جيرار دى نرفال إلى أصدقائه واهتماماته .

... منذ اللحظة التى تنازل فيها السيد وزير الخارجية بناء على
توصيتك القوية بأن يفتح أمامى باب العمل الدبلوماسى بتعيينى فى سفارة
السويد أستطيع القول بأن يوما جديدا قد طلع بالنسبة لى ! وقد كبر

فكرى بفضل نصائح تجاربك وأراد أن ينفرد بشكل واسع في هذا المجال الذى حققت أنت فيه فيما مضى انتصارات جميلة . ورغم أننى ينبغي لى ، بناء على نصحك ، أن اكتفى فى الوقت الحاضر بكتابة البرقيات بشكل يقرأ والملاحظات والمذكرات والمؤتمرات الخ ... مما يقدم لى صورة منه ، وأن أقدم التصديقات والتأثيرات فى غياب المستشار وألخص التقريرات وافتح المظاريف وأكون أختام الشمع فى استدارة كافية فلانى أشعر أننى لن أتوقف كثيرا لدى هذه البدايات للفن الديبلوماسى التى لا ينبغي بلاشك أن تهمل إلا أنها تغطى بستر خفايا السياسة العميقة التى انحرق شوقا لتعلمها فوراً .

ولكن ، بما أنك سمحت لى بأن أقدم لك ملاحظائى الشخصية بكل ما ينبغي من حذر فلانى انتهز فرصة بريد غير عادى لكى أبعث إليك بهذه الرسالة التى لن تقرأ فى البريد مثلها مثل تلك التى سوف أرسلها لك بالطريق العادى فى خلال سفرى .

ألا تدهش وأنت تعرف أننى سافرت إلى بلاد السويد الباردة بأن ترى خطائى مؤرخا من فيينا عاصمة النمسا ؟ فأنا نفسى مازلت مندهشا لذلك ولا أستطيع أن أنسب ما حدث لى إلا إلى التعقيدات الحديدية التى ظهرت فجأة فى المسألة الشرقية .

منذ سبعة أيام بالضبط ذهبت للاستئذان فى السفر من رؤسائى لكى أسافر فى مساء اليوم نفسه إلى مقر عملى . وكنت قد اخترت طريق البر بسبب تقدم الموسم ونويت أن أتوجه رأسا إلى فرانكفورت ثم إلى

هامبورج وأن أستريح في كلتا المدينتين إذ لن يتبقى أمامي ، كما تعرف ، إلا عبورا صغيرا للبحر من هامبورج إلى استوكهولم . وقد درست مائة مرة الخريطة في انتظار استقبال الوزير لي . إلا أن هذا الأخير كان قد قرر أمراً آخر . وفخامته كان في ذلك اليوم مشغولاً بشكل واضح . ولقد استقبلني بين زائرين بعد صعوبات كثيرة وقال لي :

« أه ! أهذا أنت ياسيد بريجاس ؟ إن عمك مازال في صحة طيبة ليس كذلك ؟ - بلى يا سيدى الوزير إلا أنه يشكو المرض قليلا ... أى أنه يعتقد أنه مريض - إنه ذكاء جميل يا سيدى ! أهذا هو نعط الرجال الذين مازلنا في حاجة إليهم ، الذين قال عنهم بونا بارت : إنه جنس لا بد من خلقه ! وقد قام بخلقه . ولكنه هاهو ينطفئ كغيره » وهمت بأن أردد قائلاً إننى آمل أن أخلفك في كل شيء حين دخل مدير مكتبه وقال للوزير : « لا يوجد بريد ! وهذا الذى حضر من أسبانيا مريض ؛ والآخرون قد سافروا أو لم يصلوا بعد . والطرق رديئة للغاية !

وقال الوزير : حسن ! لدينا الآن السيد دى بريجاس فاعطه خطاباتك . وينبغى أن يصلح الملحق لشئ - وقال لى السكرتير : هل تستطيع السفر الآن ؟ - كست أنوى السفر هذا المساء - أى طريق سوف تتبع ؟ سأسافر عن طريق تريف وفرنكفورت - حسن ! سوف تحمل هذه اللفافة إلى هينا - وقال الوزير فى طيبة : سوف يكلفك هذا بعض اللفات ولكنك سوف تدرس ألمانيا فى الطريق وهذا أمر مفيد ... لعلك حجزت لنفسك عربة سفر ؟

- نعم يا سيدى الوزير - إنك تحتاج لسته أيام - فقال السكرتير ربما ستة أيام ونصف بسبب الفيضانات - حسن إن اليوم هو يوم الخميس وسوف يصل السيد دى بريجانس يوم الخميس القادم ، وكان ذلك هو آخر ماقاله الوزير وسافرت فى هذا المساء نفسه .

ولتحكم على فرحتى إذ أراى حاملا لرسالة من رسائل الدولة !
ويا لها من نصيحة طيبة تلك التى أعطيتنى إياها بشراء عربة نقل وجدها عمى غالية جداً ! ولقد قلت لى إن الملحق الذى لا يملك عربة نقل هو ... أظن أنك استعملت هذه المقارنة : إنه حلزون بلا قوقعة ؛ وأرى أن التشبيه صحيح فيما عدا السرعة التى لم تكن قط من صفات الحيوان الذى أشرت إليه .

إنى أحب المزاح ولقد كان لى الكثير من جنونيات الشباب . إلا أننى أفكر فى مهنتى تفكيراً جاداً واهتم بمستقبل وأتبع فى ذلك نصائحك الطيبة . ولكن لسوء الحظ ان جميع الشبان لا يفكرون بنفس هذه الطريقة . من تظن قد التقيت به على مائدة فندق انجلترا ؟ ...

لقد سمعت أحدهم ينادينى من طرف المائدة المقابل فالتفت وظننت أننى أخطأت ... ولكن على الإطلاق . إنه ابن عمى فريتر الذى سافر من باريس قبل سفرى بثانية أيام وسافر لزيارتك فى أرضك فى مقاطعة بريجورد .

وأنت تدرك يا عمى أن الفكرة ليست من عنده ولكن من إبحاء

أبيه الذى يظن دائماً أننى أتقرب إليك على حساب ابن عمى . ولـ
رحمه الله فأنت تعلم أننى لم أذكره بسوء قط . وإذا كان قد رفض
عمل معقول أو انخرط فى أعمال تافهة كثيرة ، وإذا كان قد بدد كل أمـ
والدته وثالث إقطاعيتنا وإذا كان قد تجول فى العالم مع أذواقه الفنية واد
الحذق فى القول وغرامياته الجنونية ونزواته الكثيرة التى تصطدم بجميع ا
الموروثة ، فأنت تعلم يا عمى أن كل ذلك لا يشغلنى كثيراً . ومع ذ
فإنى اعترف أنه ليس من الأمور اللطيفة بالنسبة لى أن التى بطائش ،
هذا فى المجتمعات الراقية التى يدعونى إليها مركزى .

ولم يصل الأمر بعد إلى هذا الحال فهازلنا على مائدة فندق ميونـ
ولا أدرى لماذا لم أطلب أن يقدم لى الطعام فى جناحى مما كان يعفىنى
هذا اللقاء . وفى كل مرة لا يتصرف فيها المرء كرجل ممتاز يلتقى ما يلوم :
نفسه . هذا هو أحد مبادئك التى لن أنساها وهذا هو الحديث الذى
على بعد بيننا ؛ وتتصور طبعاً أننى لم أكن أرد إلا بكلمات من مقـ
واحد . ولم يكن حول المائدة إلا مسافرون من الانجليز والألمان ولكـ
كانوا يفهموننا جيداً ، كان يمزح معى ، بخفة دمه التى تعرفها عنه حـ
مركزى الديبلوماسية الجديد ويسألنى ما إذا كنت أحضر السلم أم الحرب
وغير ذلك من ألوان الجنون . وأشارت إليه أن ليس من الحذر أن يتـ
بهذه الطريقة . وفعلاً علمت بعد ذلك أن كان ثمة جاسوس برومـ
وجاسوس انجليزى إلى هذه المائدة . وأنا نفسى كانوا يعتبروننى جاسوـ
فرنسيا رغم لقبى كملحق . ويجهل الألمان ، أولاً يريدون الاعتراف بـ

حكومتنا لا تلجأ إلى مثل هذه الوسائل ، وأنتا لا تمارس أبداً إلا سياسة صادقة ودستورية .

وانتهى بي الأمر أن نهضت وأخذته على انفراد وأفهمته كل ما في تصرفه من مظهر فاضح لى . وقلت له : «إننا لم نعد من الشبان المحبولين ، وإن ثقة الحكومة قد خلقت لى لقباً وواجبات جدد . وإن عربة النقل التى أقلتني إلى فيينا ربما كانت تحمل أقدار بلد كبير ... فقال لى ابن عمى على الفور : هل لك عربة نقل ؟ - أنا لا أسافر إلا بهذه الطريقة - هذا أمر مريح للغاية إذا لم تكن تريد السفر سيراً على الأقدام . أما أنا فأسافر على الأقدام إذا كان البلد جميلاً - إنها لمنفعة - مثلاً هذا البلد حزين للغاية ، فالريف باهت ورملى وغابات الصنوبر مهمتها تغيير المنظر ، والأنهار بلا ماء والمدن بلا حجارة والحانات بلا نبيذ والنساء ... » وسارعت بقطع حديثه وإلا لفضحني أكثر . وقلت له : «لا بد أن أستاذف السفر ، وأنا لم أتوقف فى ميونخ إلا لتناول الغداء - تقصد تناول العشاء لأشهم يتناولون الغداء هنا الساعة الواحدة ، والساعة الآن الثامنة - وداعاً إذن . ألا تبقى لرؤية السيدة شريدو ديفربان العجوز فى رواية ميدييه ؟ - لدى واجبات أكثر إلحاحاً - إى قادر على القيام بعمل جوفى ... - أعتقد ذلك - هذا هو مركزى . وكنت قد سافرت من باريس لزيارة عمنا واخترت طريق بورجونيا لتجنب طرق وسط البلاد ذات الوبيرة الواحدة . وقمت بلفة لرؤية جبال جورا ثم لرؤية كونسنانس ، مدينة الجامع الدينية (إن زخارف الأورا غير صحيحة

إطلاقاً ، وهى على حق) وأجمل ما فى كونستانس السفينة البخارية التى تبعدك عنها والتى تجعلك تشاهد فى ست ساعات خمس أمم مختلفة . ولم أكن أرغب إلا فى أن أضع قدمى فى بافاريا ولكن فى ليندرو ذكروا لى الأعاجيب عن ميونخ . وجبت المدينة فى يوم واحد واكتفيت منها بذلك إن لديك مكانا شاغرا فى عربتك وأنت ذاهب إلى فيينا ولذا فسوف أرافقك . فأنا متشوق جداً لرؤية هذه العاصمة » .

وظننت أننى أوقفه إذ أسأله ما إذا كان يحمل خطابات اعتماد فأرانى نشرة من أحد أفراد آل روتشيلد توصى به لدى مراسليه . ولا أدرى ما هى قيمة هذه الورقة التى بدت لى مجرد خطاب محاملة . ولكن سوف يحكم على الأمر فى فيينا . وقد علمت من مصدر موثوق به أنهم فى فيينا لا يسمحون للأجنى الذى لا تكون حافظة نقوده مليئة تماماً بالبقاء أربعاً وعشرين ساعة .

ورغم كل شىء فقد تسليت بحديثه أثناء الطريق الذى لم يكن مريحاً لاسيما فى سالزبرج وهى أحد الأماكن ذات الأرض البكر . وفى فيينا نزل فى خان الضواحي مدعياً أنه يريد أن يظل مجهولاً . وقد فرحت لذلك ووددت لو التقيت به بأقل قدر ممكن . ولابد أنه سيكتب إليك ليعتذر عن أنه أخذ طريق فيينا بدلاً من طريق بريجنور . صحيح أن الأرض كروية وليس ثمة ما يمنعه من الذهاب لزيارتك وتقديم احترامه لك خلال العام القادم .

هنرى دى برنجاس

مخاطب من فرتيز

إلى صديقه تيموتيه أونيل فى باريس :

لقد أخذت بنى وعدا يا عزيزى تيموتيه بأن أرسل لك انطباعاتى وكنت أود أن أكتب لك خطابا طويلاً عن فيينا ولكنى تأخرت كثيراً فى ذلك حتى أنى لم أعد أعرف ما أخبرك به ولا كيف أثير اهتمامك . وقد تكون تلك المهمة سهلة بالنسبة لى بعد وصولى بخمسة عشر يوماً لأن كل شىء حينئذ كان يثير دهشتى ، وكل شىء كان جديداً بالنسبة لى ، الملابس والعادات والتقاليد واللغة ومظهر هذه المدينة الكبيرة الواقعة فى طرف أوروبا المتحضرة تقريبا ، الغنية الغرور مثل باريس والتي لا تستعير منها لا جميع مستحدثاتها ولا جميع متعتها . كانت هذه المتناقضات تأسرنى بشدة وكنت كفيلا بالتعبير عنها بحماسة وشاعرية . أما اليوم فإن إقامة ثلاثة أشهر قد جعلتنى أعتاد كل هذه الأمور الجديدة . وهأنذا فى حيرة الباريسى الذى يطلب منه وصف باريس . لقد أصبحت

كأنى من أبناء فيينا تماماً وأعيش عاداتها دون أن أفكر فيها وأبذل جهداً
لأكتشف أوجه الخلاف بينها وبين عاداتنا .

صحيح أننى وقد تغلغت أكثر فى المجتمع فلا بد لى من الهبوط كثيراً
إذا أردت البحث عن الخصوصية المحلية التى لا توجد فى كل مكان إلا فى
الطبقات الدنيا . ولا بد لى من أن أفعل ما فعله هوفمان الطيب الذى خرج
فى ليلة القديس سيلفستر بالمعطف والبنطلون القصير من سهرة المستشار
الخاص حيث شرب الشاى الجميل . وفى الطريق تذكر المخلوق المسكين
الذى يدعى البيرة الصغيرة . وحينئذ ورغم احتقار جمهور من ذوى المكانة
الاجتماعية والخاصة لم يخش الهبوط بملابس الاحتفال على الدرجات
المتآكلة لهذا الحان الشهير حيث التقى على نفس المائدة مع الرجل الذى
فقد ظله والرجل الذى فقد انعكاسه .

لا تدهش إذن إذ حدثتك مرة عن القصر وأخرى عن الحان . إن
صفة الأجنبي تعطينى الحق فى التردد على هذا وذلك والاحتكاك بفلاح
بوهيميا أو سترىا الذى يرتدى جلود الحيوان أو الأمير أو العظيم ممن يرتدون
الفراك الأسود مثلى . أما هؤلاء الأخيرون فأنت تعرفهم جيداً فهم أناس
من مجتمعنا فى باريس وهم يدعون أنهم مواطنون لنا وعلى قدم المساواة
معنا ما استطاعوا ، مثل ملوك الشرق الذين اختالوا زهوا فيما مضى بلقب
بورجوازي روماني . لنبدأ إذن بالشارع والحان ثم فلتوجه بعد ذلك إلى
القصر متى أردنا حين يتجمل ويضاء ويملاً بالثياب الباهرة والفنانين
المتنازين ، وحين يكف لفرط فخامته وثرائه أن يشبه فنادقنا وبيوتنا

إنها مدينة تستحق أن تراها بجميع طوايقها لأنها مسكونة بطريقة غير عادية رغم أن مظهرها لأول وهلة لا يبدو إلا مبتذلاً .

ولكن تلك انطباعة جد متحررة وجد فرنسية لم يعرفها أبداً شعب فيينا السعيد بكل تأكيد . أما أنا فقد تذكرت بضع صفحات من قصة اسمها على ما أظن « فردريك ستندال »^(٦٣) شعر فيها البطل بحزن عميت يوم وصل إلى العاصمة .

... « ليس ثمة مكان هنا إلا للأغنياء والتجار وخدمهم . فالعربات تتقابل بضجة في الظل الذى يهبط سريعاً وسط هذه الشوارع الضيقة بين هذه المنازل العالية . ولا تلبث الحوانيت أن تتألق بالضوء والثروات وتضاء الأبهاء . وثمة سويسريون ذوو أجسام ضخمة وملابس مزدانة بالكثير من الأشرطة ينتظرون تحت كل باب تقريباً الموكب التى تعود شيئاً فشيئاً . إن كل هذا الترف الوقع كان يخيف فردريك ستندال وكان يقول فى نفسه أن لابد من الجرأة للتغلغل فى هذا العالم الفريد فى نوعه المقفى والشديد الحراسة . وأظن أنه ، أثناء تفكيره فى هذه الأمور ، قلبته عربة سيدة جميلة نبيلة أصبحت فيما بعد مرشدته ومصدر سعادته » .

وإذا لم تخفى ذاكرتى كانت تلك بداية تلك القصة التى سقطت الآن فى ظلام النسيان . وآسف لأنى لم احتفظ بانطباعة أخرى لأن هذه الانطباعة صحيحة وحقيقية . كما أنه ليس ثمة ما هو أكثر كآبة منها .

(٦٣) فردريك ستندال أو السنة القائلة (١٨٢٧ ، خمسة أجزاء) بقلم أوجست كبرائى .

٧ - بقية المذكرات

ص ٤٩ .

إن الأمر لا يتعلق هنا إطلاقاً برقص الحواجز لدينا ، تلك الرقصات الصاخبة البسيطة التي ينطلق فيها الباريسى المرح حيث يمثل جندي الحرس دور الحياء ويقف من بعيد لبعيد كعمود في شكل تمثال صارم . أما هنا فجنود الحرس لا وجود لهم (أو من يحل محلهم في فيينا) ، والفالس هو الرقصة الشعبية الوحيدة ، إلا أن الفالس بالطريقة التي يفهمونه بها ينبغي أن يكون رقصة الملذات الوثنية أو السبت القوطي . وكان جوته يتصور هذا المثال أمام عينيه حين رسم ليله « فالبورجيس » وجعل هوست يتقلب بين ذراعي تلك الساحرة المجنونة التي كان فيها يسقط الجرذان الحمراء وسط ثمل اللذة .

وعلى كل فإن هذه الرقصات المجنونة لا تحتوى على أية نوايا أو حركات تحتل اللبس من تلك التي قد يحمر لها خجلا سكان الضواحي المنحطين في بلادنا . إنها رقصات بسيطة وجادة مثل الطبيعة والحب . إنه

فالس عاطفي وليس شهوانيا ، جديراً بشعب حاد المزاج وبسيط لم يقرأ فولتير ولا يغنى بيرانجييه . وإن ما يدهش هو قوة هؤلاء الناس والسحر والهدوء والنضارة الدائمة هؤلاء النساء اللاتي لا يتكلمن واللاتي لا يخشين أبداً أن يظهرن بالنهار ملامح أضناها التعب والذبول . وينبغي أن نلاحظ كذلك أنهن لا يبدين اهتماماً بالراقصين . إنهن يرقصن الفالس مع الرجل وسوف أشرح لك فيما بعد كيف أنهن يبدون كما لو كن يتمادين في هذه السهولة وهذا البرود وهذا الاستسلام .

ص ٥٠

وبعد ذلك يأتي بعض المترجمين فيقدمون أشعاراً يقرأونها بلهجة تمثيلية متصنعة .

وذاث يوم صدم أذني اسم نابليون الذي بدا لي أنه يرن من أعلى هذه القباب وسط هذا الاجتماع نصف السلافي ونصف الألماني . إنها أنشودة سدلتيز الرائعة ، المجلة الليلية التي يتغنون بها هنا . وقد قوبلت هذه المقطوعة الشعرية الكبيرة بالتصفيق والحماس لأن ألمانيا لم تعد تذكر إلا أبحاد الفاتح . ولكن هذا لم يمنع الفالس من أن يستأنف في نشاطه بعد هذه الأنشودة الحزينة مباشرة التي أثارت ذكرى الكثير من الظلال المقدسة من أرض ألمانيا أو من أرض فرنسا ...

... وقد ذكرني بهذا الجزء من « الاعترافات » الذي يصف فيه روسو المتعة الكبيرة التي كان يشعر بها وهو جالس في مقعد وثير أمام نافذة

مفتوحة على أفق شاسع ساعة غروب الشمس ، وهو يقرأ كتابا يعجبه ويغمس بعض البسكويت في كأس من نبيذ شمبانيا . وفى تلك الأثناء تدق أجراس الكنائس من بعيد وترسل له الحديقة أنفاساً معطرة . هل نعتقد أن الانطباعات الكثيرة متجمعة بعضها بعضاً أو تتعب الحواس ؟ ولكن أليس الأصح أنه ينتج عن اختيارها نوع من التناسق ثمين بالنسبة للعقول ذات النشاط الواسع ؟...

... كتبت إليك ... سوف تعتقد أنني مجنون من السرور ولكن كلا
إلى هادىء جداً يا صديقى والأمر كما سأقول لك ... فلنى عشيق سيدة
كبيرة ، إنهن هؤلاء السيدات الكبار كما ترى ! كما كان يقول صديقنا
بوكاج . ربه ! ربما كنت مخطئاً إذ كتبت لك كل ما تقدم . يجب أن
أعطيك تأثير الإنسان التعس ، الأحمق ، الموظف الصغير المتنقل الذى لا
يمثل بلده إلا فى الحانات والذى يقوده مذاق بيرة أو نبيذ الجمر إلى غراميات
سهلة للغاية . ومع ذلك فسوف تخطئ لو حكمت حكماً سيئاً على ألوان
الجمال التى ستمر أمامك . إنهن سوف يحتلن مكاناً جميلاً فى كتالوجى
وإذا كان لابد أن أدون يوماً : فى ألمانيا ، ٢٣٠ ! إننى مازلت بعيداً عن
إصدار حكمى . كانت للمغامرة الأولى نهاية منطقية مرضية ، أما الثانية
فقد طارت من يدي والثالثة .. أه ! آسف لأنى لم أكتب لك عنها .
ص ٥٥

لست أدري ما إذا كانت كل تلك التفصيلات تهمك ، ولكنها
ثمينة بالنسبة لى فى الوقت الحاضر لاسيما أن عدد الصور التى أملكها يقل

من يوم ليوم . ولا تدعنا نتوقف لدى هذا التفصيل ولنذهب لتناول القهوة وسط المدينة بالقرب من ميدان جرابن المتلألئ الذى لا يدل اسمه الكتيب (القبر) على كل هذه الروائع .

ص ٥٦

إنه سعيد ذلك الشعب الذى مازال يسلى نفسه بهذه التفاهات ! وإلى لأتساءل ما إذا كان من الممكن أن تقوم ثورة فى فيينا . إن طرق الجرائيت المنحوتة تحت راثعاً تبدو كما لو كانت ملحومة بالقار وملتصقة إحداها بالآخرى بشكل يبدو معه من المستحيل نزاعها لإقامة متاريس . إن كل طريق قد كلف الحكومة ثروة . فهل يتوصلون بهذه التضحيات إلى تجنب نشوب ثورة ؟

ص ٥٩

لم أدهش إطلاقاً لهذا الاعتراف فقد كنت أعرف أن جميع الرسائل تمر « بمكتب أسود » لا فى النمسا فقط ولكن فى معظم بلاد ألمانيا . فأدركت الحديث ناحية المزاح حتى أنني اكتسبت ثقة البارون دى سى *** الذى سوف يقدم لى هو نفسه موضوعات جديدة بالملاحظة ... ألسنا نحن معشر الكتاب أعضاء فى نوع من الشرطة الأخلاقية ؟ ...

١٤ يناير : بالأمس استدعانى البارون دى سى *** ! إلى منزله وقال لى : « سل نفيسك بقراءة هذا الخطاب » وكانت دهشتى كبيرة إذ رأيت أنه موجه إلى عمى بربجور وأنه نسخة من خطاب ابن عمى هنرى الديبلوماسى الذى غادر فيينا منذ بضعة أيام . وهذا هو الخطاب ...

... هذا هو خطاب الغلام ... فما رأيك ؟ هكذا يقوم الأهل
بخدمة الأبناء . وأوصاني دى سى * * * بالسرية التامة فيما يختص
بتوصيلاته الودية . ولكن ألا ترى أن شرطة فيينا الأبوية تصلح لشيء
ما ... على الأقل حين يكون للمرء أصدقاء ! وسوف أحبطك علماً فيما
بعد بأفكارى .

ص ٩١

أحدهم ، الذى يدعى بعض الأفكار الاشتراكية ، عني بأن يعلن
للأمير دى ولا تنس أنه كذلك صديق للأميرة - إنه يريد أن يبدو
بمجرد مدعو في الحفلة الأولى التى سوف تقام في القصر ولن يلعب بأية آلة .
وقال له الأمير : إن الأمر سهل ، سوف أقول إنك مريض «
- كلا ، إني متمسك بعدم الظهور بمظهر المريض - حسن ! يا
صديقي ، سوف أتحدث إلى أصدقائي « . والنتيجة أن الفنان لم يتلق دعوة
وسافر ثائرا إلى المنزح حيث عوضته الترحيبات الرائعة عن التقاليد السخيفة
لصالونات فيينا .

... ولكي لا تغادر حلقات المتع الشعبية في فيينا ، لأنها أول شيء
يلفت نظر الأجنبي لدى قدومه ، ينبغي أن أحدثك كذلك عن الحفلات
الراقصة سبرل Spetl وبرن Birn التى تتجه في واقع الأمر إلى الطبقة
الأكثر يسرا . وال سبرل Spetl هو مبنى واسع رائع الزخرف كان
ستراوس يقود فيه الجوقة كما كان يقود لانر Lanner جوقه برن Birn .

وهنا النساء أكثر أناقة رغم أنهن لا يتعدين إطلاقاً طبقة العاملات . والجمهور هو نفس جمهور موزار تقريباً ولكن الفالس في نفس قوة وجنون فالس الحانات وسحب الدخان التي يهزها الرقص ليست أقل كثافة . وفي السبرل يتناول الناس العشاء وسط الرقص والموسيقى والجموع تعدو بين الموائد دون أن تقلق من يتناولون عشاءهم . وأول مظهر من مظاهر السبرل ذكرني برقصات موزيكوس musicos في هولندا . وأحب أن أعتقد أن مستوى الرقصات - تمت إلى مستوى أكثر احتراماً من ذلك الذي قدمت جداته النماذج إلى الرسام روبنز Rubens .

ولابد أن هؤلاء الجدات لم تعذبهن حكومة النمسا الأبوية . ويؤكد الأجانب الأذعياء أن هذا النظام أبعد من أن يصلح الأخلاق . ولا يكاد أحدهم شتاء في فيينا حتى يعد لك على الأقل مائتين وثلاثين مغامرة غرامية تكون فيلق ألمانيا في قائمة دون جوان .

ولكن تلك مبالغات سببها سهولة نساء فيينا في الدخول في الحديث مع الفرسان الذين يجلسون بجوارهن في المسارح أو المراقص . فإذا قالوا لك إن السيدات الكبار يتبعن نوعاً ما إلى القرن الثامن عشر في هذا البلد حيث القرن التاسع عشر لم يبدأ بعد فلا تصدق كل ما يردده أمثال كازانوفا من المحدثين ، ولكن لا تنس كذلك أن عدد النساء الجميلات من الكثرة في النمسا بحيث إن معظمهن يتناسب اعتراهن بأنفسهن بمقدار ما يحظى جالهن من تقدير .

إن جمال النساء مازال يستجلب دهشة الأجنبي الذي يمر بـ لينتز
Lintz أولى مدن النمسا من ناحية بافاريا . وقد وصلت إليها يوم أحد
ورأيت نساء الريف يذهبن إلى الكنائس . وكن يرتدين جميعا تقريبا
الملابس الوطنية : وهي أنصاف أثواب ذات ألوان زاهية وميدعات
مطرزة وعقود وغطاء رأس من الصوف المذهب الكفيل بالاستحواذ على
إعجاب السيد ديونشيل Duponchel . كانت هذه النساء بصفة عامة
رائعات الجمال . وإن كتب الأسفار لم تقصر في تحذير المسافرين من ذلك
إن بياناتها ، في هذا الصدد على الأقل صحيحة تماماً . وقضيت اليوم
أجوب الميادين والطرق دون أن أمل من هذا الإعجاب . ومع ذلك في
لينتز فإن نمط الملامح واحد تقريبا :

إنهن نساء طويلات القامة ويتسمن بوجه منتظم هادىء وعينين
زرقاوين . وهن شقراوات بيضاوات البشرة ذوات لون رقيق مشترك بين
الفلاحات وساكنت المدن . ومع الوقت يمل المرء هذا الشكل الموحد
الذى يفسر جمالهن كما يفسر نقاء الدم وروعة المناخ السلالات الطيبة بين
الحيوانات .

أما في فيينا فعلى العكس فالوجوه متغيرة جداً رغم أنه مازال في
الإمكان تصنيفها في عدد قليل من الأنماط المتشابهة . وعلى العموم سواء
أكن شقراوات أم سمراوات فبشرتهن جميعا بيضاء رقيقة وقوامهن مكتمل
وأذرعتهن رائعة . ويمكننا القول بأن الطبقة المتوسطة هي أقل الطبقات
حظا . إلا أن جمال الإيستقراطية التي نراها مجتمعة في السهرات الكبرى

وفى الحفلات الموسيقية ، وجمال الطبقة الدنيا الذى لا ينقص فى
اجتماعات السبرل والفولكس جارتن تتنافس فى فرص متساوية بين الجمال
والنضارة بل حتى الاناقة والجاذبية .

إنها بلاد سعيدة لاسيما إذا فكرنا فى المخلوقات التمسعة التى تملأ مدنا
وريفنا . إنه دليل الحياة الطيبة التى تحياها الطبقة الدنيا والعمل السهل
الذى يكفل لها تلك الحياة . ودون أن أدعى إطرء حكومة النمسا فى
أؤكد أنها أفضل حكومة بالنسبة لسعادة الشعب وسعادة الطبقات العليا
على السواء . أما البورجوازية فنحن نعلم أنها هى التى تكسب فى
الثورات

ص ٦٢

إن أكبر حداثتها العامة توجد على مسافة قريبة فى حى
ليوبولدستار . وحين دخلت إليها كانت ممراتها الطويلة خالية وأرضياتها
مصفرة . ومع ذلك كانت ثمة زهرات مازالت بادية وبعض شجيرات
الورد التى حطمتها الريح قد تركت ورودها تتردى فى الوحل . ومن بعيد
لبعيد نكتشف آفاقا ساحرة . فالجبال التى تعلوها القصور تدل من بعد على
شاطئ الدلتوب . وثمة حديقة أخرى يسمونها حديقة الشعب تقع داخل
الأسوار بالقرب من القصر الامبراطورى .

ص ٦٣

حين وصلت إلى فيينا كان ثمة مسرحية ميلودراما للمثلة مدام

بيرشفيفر mme Birchpfeiffer تسمى الستيريون « تعرض بنجاح كبير .
وفى تلك الأثناء كان يعرض فى ليوبولدستار مسرحية ثانية لنفس السيدة
تسمى « روبرى المر » . ومدام بير شفيفر تعادل بوشاردى فى المسرح
الألمانى . وهى تسمى مسرحياتها بصراحة دراما شعبية . ولكن نكون قد
بالغنا فى تكريمها لو قارناها بمواطنتنا الشابة اللهم إلا بالجاح الذى
تحققه . وقد شاهدت كذلك فى مسرح فيينا عرض مسرحية « جيلوم تل »
لشيلر مما يدل على أن الرقابة الامبراطورية ليست بالشدة التى يصورونها
بها ، ذلك أن أحداً لن يعترض على حقها فى منع عرض مسرحية
« جيلوم تل »

ولكن الرقابة سمحت لنا كذلك برؤية عرض مسرحية « روى بلا »
Ruy Bles فى ليوبولدستار باسم « سيد وخادم » . صحيح أن الخاتمة
تغيرت قليلا . ولا يفعل روى بلا سوى تهديد سيده بهذا السيف الشهير
الذى انتزعه منه فى جراحة كبيرة . وتفسير ذلك أن الخادم عثر على أهله كما
حدث لفيجارو ولكنه كان أسعد من هذا الأخير حظا فقد وجدهم أغنياء
ومن كبار السادة . وأظن كذلك أنه فى الخاتمة قد تزوج الملكة وأصبح
يشغل وظيفة زوج الملكة الرسمية وهى دستورية للغاية .

... إن مسارح ليوبولوستار وفيينا تخدمها جميعا فرقة المدير كارل .
وقلب مجموعة التمثيلات التى تعرضها تلك الفرقة تتكون من « مهازل
محلية » وهى نوع من المسرحيات الغريبة ذات المشاهد الكبيرة التى لا يعلمها
أهل فيينا . ولكى نأخذ فكرة عن ذلك فى فرنسا ينبغى أن نجتمع بين

التمثيلات الصامتة لدى بيرو Debureau في أغرب أنواع الفودفيل التي تعرض في مسرح المتنوعات . أما مسرح البهلوانات فيعرض ما يشبه العرض السريع . ولا يتحمل العقل المنطقي المنتظم للبورجوازي الباريسى الحرية الجنونية والمرح الساخر لهذه التركيبات . وأشهرها ، والتي نعتبر نموذجاً لهذا النوع تسمى : « فلانلون عاباً من حياة متشرد » . ومعظم المسرحيات الهزلية المحلية هذه يقوم تركيبها ممثل يدعى نستروى ويلعب فيها أهم الأدوار بكثير من القوة وخفة الدم .

أما مسرح جوزيفستاد الذى يشبه من الداخل قاعة الجمنيزيوم لدينا فقد شغلته لمدة شهرين جلسات عرض مسرحى لطيب يدعى دوبلر . وهذا الفنان لا يرتفع إلى مستوى أعلى من بوسكو الذى يستحوذ حالياً على إعجاب جمهور القسطنطينية . ومنذ رحيله قام جوزيفستاد بتجديد موضوع « ثورة في السراى » العتيق الذى يحقق نجاحاً ساحقاً هذه الأيام بسبب الممثلات الجميلات ومغامرات الاتراك التعساء الذين تحولوا إلى أوروبيين . ولم يبدأ شعب هينا يضحك من الأتراك إلا منذ سنوات قلائل وهذا يفسر غلوه في المرح .

وفى جوزيفستاد شهدت عرضاً لا نعرف عنه أدنى فكرة فى فرنسا . إنها مسرحية « الأكاديمية » للكاتب الشهير سفير ، وهو من ألمع الصحفيين والشعراء فى ألمانيا . وقد اشترك فى هذه الجلسة الأدبية مجموعة من الفنانين . وبدأت الجلسة بمشهد شعرى لسفير يسمى : « تصريف فعل يحب » وكانت تمثل فيه ثلاث من أجمل ممثلات المسرح الأمبراطورى

ف نقوم إحداهن بدور المدرسة والاثنان الأخريان بدور التلميذات . وكانت هذه الفكرة اللاحقة معروضة عرضا رائعا . وبعد ذلك « المجلة الليلية لنابليون » قام بغنائها ممثل من مسرح كورنثيا بمصاحبة بيانو من ليست . وخلف بر يو ليست . ثم أتت الآنسة كارولين ميلر لتقوم وحدها بتمثيل كوميديا من ثلاثة فصول قصيرة جدا لحسن الحظ من تأليف سفير كذلك . وهى نوع من السخرية الكاريكاتورية يقوم الكاتب فيها بنقد مسرحياتنا الحديثة . وقد اقتسمت الآنسة كارولين ميلر التصفيق الموجه للمسرحية . ومعروف أن هذه الممثلة يسمونها « مارس » ألمانيا . وقد لاحظ صحفي من فيينا أخيرا بهذا الخصوص أنه قد يكون من الأنسب أن نقول إن الآنسة مارس هى كارولين ميلر فرنسا . وقد أعلنّا أننا لا نعترض على ذلك .

واختتمت الجلسة الأكاديمية بعد قراءة الكثير من الأشعار بقراءة ساخرة قام بها السفير بنفسه . وقد شعرنا فى أول الأمر ببعض القلق على هذه المسرحية الأدبية الطويلة التى تعرض بعد الممثلين والمغنيين وبعد ليست وبر يو . ثم بعد ذلك يقرأون لجمهور فرنسى مقالا غير منشور لفولتير بحيث يطلب بسرعة جياده وحذاءه الخفيف مثل مسيو دى بوفون Buffon . ولكن ! إن جمهور فيينا الممتاز هذا قد ظل ساكنا لدى قراءة هذا المقال الذى يدور حول موضوع فلسفى غريب . وصفق السفير وطلب إعادة القراءة مرتين . تلك هى الأكاديمية فى مدن ألمانيا : فالأدب يقدم حفلات شعرية وموسيقية شأنه شأن أى ممثل ممارس . وقد جلبت « الأكاديمية » لسفير ثلاثة آلاف فلورين .

وفى خطاى القادى سوف أأاول اءءالك إلى فىنا نفسها وإعطاءك
فكرة عن مفع مءامها الكبر . وقء ظننت أنى فبب أن أفصل هذا عن
ذاك ذلك لأن فى فىنا كءلك فوءء مءامع كبر وفبغى ألا ءشك فى
ذلك .

١٠ - بقفة المءكرات

ص ٧٣

قال أبوللو لقسىسه : « سوف أعرئك الءقفة ءول عرافة ءبلقى
وكلاءروس . فى الماضى كان فخرج من بطن الأرض والغابات عءء لا نهاءة
له من الإءرااء والعارفات اللأى فوآفن بالغبب الإلهى . ولكن
الأرض بسبب الءففرات المسءمرة الءى ءمءء مع الوقت أنءء ءءءل فى
بطنها النافورات والإءرااء والعارفات » .

هذا هو ما ءكااه بورفرى كما فقول أوزفب Eusebe

وهكذا فقد انطفأء الآلهة نفسها أو غاءرء الأرض الءى لم فءء
ءب الناس فسءءعفهم إليها ! وقطعت ءءاءقهم ونضء فنافعهم ،
وءنسء معابءهم . فكفف فءسنى لهم الظهور بعء ذلك ؟ إفه فا ففنوس -
أورافى ! فا ملكة هذه الفزفرة وهذا الفبل ءفء كانت ملاءكء ءمفلة
ءهءء العالم . فا ففنوس المسلحة ! الءى ءكمء فى الكاففءول ءفء ءفء

(فى المتحف) تمثالك الذى مازال قائما . لماذا لا توجد لدى الشجاعة للإيمان بك ودعوتك أيتها الإلهة ! وكما فعل آباؤنا مدة طويلة بورع وبساطة ؟ ألسنت مصدر كل حب وكل طموح نبيل ، ألسنت ثانية الأمهات المقدسات اللاتى يحكمن وسط العالم ويحمين ويحرسن الأنماط الخالدة التى خلقت لتقاوم الموت الذى يغيرها أو العدم الذى يجذبها إليه ؟ ... ولكنكن مازلتن هنا بكواكبكن المتألقة والرجل مضطر إلى الاعتراف بكن فى السماء والعلم إلى أن يسميكن بأسمائكن . أيتها الآلهات الثلاث الكبيرات هل تصفحن للأرض عقوقها ! إذ نسيت مذابح معابدكن؟ (٦٤)

ص ٧٤

ومع ذلك فمن ذا الذى يتعرف فى التمثال المוגل فى القدم الذى قمنا بوصفه على فينوس اللعوب ملهمة الشعراء وأم الحب وزوجة فولكان الأعرج الطائشة ؟

كانوا يسمونها الحذرة والمتصرة والمسيطرة على البحار ، والتى تغير العواطف الإجرامية والابنة البكر للغازلات الثلاث ، وهو لون من التسامى الكتيب . وعلى جانبي التمثال المطلق والمذهب يقوم إله الحب إروس Etos وأنتروس Anteros ويقدمان لأمها الحشخاش والرمان .

(٦٤) إستشهاد أوزيب مقول حريا من « ريش الطرقات » لفوشيل ، المقال الثانى الفسئل الأول .

والرمز الذى يميزها عن غيرها من الآلهة هو الهلال الذى تعلوه نجمة ذات أشعة ثمانية . وهذا الرمز المطرز على القطيفة القرمزية مازال يسيطر على الشرق ولكن لدى الذين يتباهون به فإن فينوس تحتفظ دائما بالحمار على رأسها وبالسلاسل حول قدميها .

هذا هو ما كانت عليه الإلهة الوقور التى كانوا يعبدونها فى سبرطة وكورينثيا وجزء من جزيرة سيتير Cypthere ذات الصخور الصلدة . لقد كانت حقا ابنة البحار التى يخضبها دم أروانوس المقدس والتى انفصلت باردة من جوانب الطبيعة والحضم المختلط .

أما فينوس الأخرى ، ذلك أن الكثير من الشعراء والفلاسفة الإغريق ، لاسيما أفلاطون ، قد اعترفوا بوجود إلهتين مختلفتين باسم فينوس - كانت ابنة جوبيتر وديونيه . وكانوا يسمونها فينوس الشعبية وكان لها فى الجانب الآخر من جزيرة سيتير معابد ومؤمنون مختلفون عن معابد وعباد فينوس - أوراني . وقد اهتم الشعراء بهذه الإلهة التى لم تكن كالأخرى فى حماية القوانين الدينية الصارمة وقدموا لها كل ما لديهم من فن الحب الجسدى الذى نقل إلينا صورة خاطئة جدا عن الديانة الجادة لدى الوثنيين . وماذا يقولون فى المستقبل عن طقوس المسيحية إذا اضطروا إلى الحكم عليها من خلال تفسيرات فولتير الساخرة أو بارنى ؟ إن لوسيان وأوفيد وآبوليوس يتنمون إلى عصور ليست أقل شكا وقد أثروا وحدهم على عقولنا السطحية التى لا تهتم كثيرا بدراسة الشعر القديم المتعلق بنشأة الكون والمشتق من مصادر كلدانية أو سريانية .

١٥ - سان نيكولو

ص ٨٢

... ربما نعر على بعض آثار لفينوس الثالثة ابنة الغزالات الثلاث ،
ومملكة جزيرة Hades الغامضة . ذلك أنه لا بد أن نلاحظ للخروج من
المتاهة التي ألقى بنا فيها الشعراء اللاتينيون المتأخرون وعلماء الميثولوجيا من
المحدثين أن كلام كبار الآلهة كان له ثلاثة أجساد وكانوا يعبدونه في صورته
الثلاث : الصورة السماوية والأرضية والجهنمية . وهذه الثلاثية لا غرابة
فيها بالنسبة لحكم العقول المسيحية التي تقبل وجود ثلاث شخصيات في
الله .

لم يأت أحد على الأقل في اللحظة التي أبحرنا فيها يطلب منا أوراقنا .
إن الجزر الإنجليزية لا تغالي في استخدام قوانين الشرطة . وإذا كانت
تشريعاتهم تنهى دائماً بضربة سوط من أسفل ومن أعلى على المشنقة
فليس للأجانب على الأقل أن يخشوا شيئاً من هذه الأنواع من الردع .

كنت متشوقا لتذوق أنبذة اليونان بدلا من نبيذ مالطة الغليظ القاتم الذى يقدمونه لنا منذ يومين على ظهر السفينة البخارية . ولذا فلم آنف من الدخول إلى الحان المتواضع الذى يستخدم كملتقى مشترك فى الساعات الأخرى بالنسبة لحرس الشواطىء الانجليز والبحارة اليونانيين . وكانت الواجهة المطلية للحن ، كما فى مالطة ، تحمل أسماء البيرة والخمور الانجليزية بحروف من ذهب . ولما رأى صاحب الحان ارتدى اللباس الذى يسمى ماكتوتش mantoich اشترته من ليفورن Livoutne أسرع بشراء كأس من الويسكى لى . وحاولت تذكر الاسم الذى يطلقه اليونانيون على النبيذ ونطقت به بطريقة جيدة فلم يستطع أحد أن يفهمنى .

ماذا استفدت من الحصول على درجة البكالوريا أمام السادة فيلمان وكوزان وجيزو مجتمعين وأننى قد سلبت فرنسا عشرين دقيقة من حياة هؤلاء الأساتذة لإظهار علمى ؟ لقد خلقت الكلية منى اخصائيا كبيرا فى الإغريقيات ولكن فى حان سريجو Cerigo حيث ذهبت أطلب النبيذ عاد صاحب الحان بكأس الويسكى الذى رفضته وقدم لى قدحاً من البورتر . وحينئذ استطعت تجميع ثلاث كلمات إيطالية ، ولما كان أحد لم يعلمنى تلك اللغة من قبل فقد نجحت بسهولة فى استحضار زجاجة مغلفة بالقش من السائل المعتق بجزيرة ستيير .

لقد كان نبيذا أحمر طيبا يحمل قليلا طعم القرية التى عاش فيها وبعض طعم القطران إلا أنه ملئ بالحرارة ويذكر نبيذ أسبوتو الايطالى . إيه يا دم العنقود الكريم ! كما كانت تسميك جورج ساند ، ماكدت

تدخل إلى جوف حتى لم أعد نفس الشخص . ألسن حقا دم أحد الآلهة ؟ وربما كما كان يقول اسقف كليون Cloyne دم العقول المتمردة التي كانت تناضل في العصور القديمة على الأرض والتي هزمت ودمرت في صورها الأولى فعادت في النبذ تثيرنا بعواطفها وغضبها وطموحها الغريب ! .. ولكن كلا ! إن ما يخرج من عروق تلك الجزيرة المقدسة ، من أرض بورفير المباركة حيث كانت تحكم فينوس السماوية لا يمكن أن يوحى إلا بالأفكار الطيبة الهادئة . ولذا فلم أفكر بعد ذلك في شيء .

ص ٩٩

لم يعد لى أن أكثر من الكلام معك عن اليونان . ولكن كلمة واحدة فقط . فقد جررتك معى إلى قمة هذا الجبل المبني من الحيز والسكر والذي تتوجه إليه المنازل ، الذى كنت أقارنه بالمدينة المعلقة في الهواء ، مدينة لابوتا Laputa . ولا بد من إنزالك من هذ القمة وإلا لظل فكرك ماثلا أبداً نحو شرفة كنيسة القديس جورج الكبير التي تشرف على مدينة سير syra القديمة . ولست أعرف ما هو أكثر حزنا من رحلة لائتم . ولقد تأملت أكثر من أى شخص آخر لوفاة جاكمون^(٦٥) المسكين . الذى ترك قدمى معلقة في الهواء لست أدرى على أية قمة من قمم الهيمالايا ، وهذا

(٦٥) رحلة فرنس (١٨٠١ - ١٨٣٢) توفى في بومباى بعد أن استكشف جبال الهيمالايا ، وهو معروف لدى الرومانسيين وقد ذكره سانت- ييف كتمليد لاستبدال حررته رحلته إلى الهند .

يضايقنى فى كل مرة أفكر فيها فى الهند إن يوريك الطيب نفسه لم يخش أن
يسلمنا طوعاً إلى التطلع الدائم الألم لمعرفة ما دار بين القسيس المبجل
والسيدة البيمونتيه فى هذه الغرفة الشهيرة ذات الفراشين التى نعرفها .
ويدرج هذا ضمن عدد حالات البؤس الصغيرة والكبيرة للحياة
البشرية . ويبدو أننا نواجه هؤلاء السحرة التعساء الذين يأخذونك فى
دوامة سحرية لا يعرفون كيف يخرجونك منها فيتركونك فيها وقد تحولت -
إلى ماذا ؟ إلى علامة استفهام .

إن ما كان يوقنى ، وينبئى أن أقول لك ، كان الرغبة فى أن
أحكى - والخوف من عدم القدرة على الكلام بطريقة ملائمة - أن أحكى
المغامرة التى حدثت لى وأنا أنزل من الجبل فى أحد هذه الطواحين ذات
الأجنحة الثمانية .

ص ١٠١

ياله من منظر حزين منظر النساء فى بلاد الشرق حيث ألغى المفهوم
الخاطئ للأخلاق العاهرة المرحمة غير المكترثة للشعراء والفلاسفة . هنا
خلقت عاطفة كوريدون عاطفة ألسيبياد . إنه الجنس كله الذى يفسد من
أجل تجنب ضرر أقل وأخذت البقعة تتسع دون أن تمحى والبؤس يحقق
مكسباً خفياً يفسده ولا يفنيه لم يعد الأمر حتى صورة الحب الباهتة بل إنه
شبهه المشثوم الألم ، سوف ترى إلى أى حد تمتد الأحكام الاجتماعية
المتجمدة الغاشمة والعاجزة فى وقت واحد . واليونانيون يحبون المسرح

اليوم كما كانوا يحبونه في الماضي فأنت تجد قاعات مسرح في أصغر المدن إلا أن جميع أدوار النساء يقوم بها الرجال .

ص ١٤٧

وبعد الغد كان عيد الفصح . وفي القاهرة ثمة ثلاثة أعياد فصح مختلفة . وعيد اليهود يتفق مع يوم الزعف وعيد اليونانيين والأقباط يأتي بعد أسبوع من عيدنا . والأمر يختلف مع السنين . ولكن بالنسبة للقاهرة ثمة ثلاثة أعياد مختلفة فحتفل كل جماعة بعيدها بحرية في حبا . وعيد الفصح لدى الأقباط هو أكثرها بريقا بسبب عدد هؤلاء المسيحيين الذين يفتخرون بأنهم سلالة أقدم سكان مصر . ويتم الاحتفال العام بالعيد في ميدان الأزبكية في الطرف الذي يلامس الحى القبطى . وهو تقريبا صورة من أعيادنا السوقية حتى في الملابس وألعاب التوازن والشعوذة .

ص ١٤٨

البيت يفتح ويسمح بالدخول لامرأتين صاحبيهما الشاب بالقرب منى وكشفت المرأتان عن وجهيهما . كانتا أمه وأخته . وكان بيتها يطل على المتزهر . وبعد التحيات الودية الأولى أخذ كل منا ينظر للآخر وينطق بكلمات تلقائية وهو يتسم من هذا الجهل المتبادل . ولم تتكلم الصبية الصغيرة طبعاً بدافع التحفظ . ووجهت إليها بعض كلمات بالايطالية فردت في رقة ولكن اختلاف اللهجة جعل الحديث يتم بعدم الوضوح . وحاولت أن أعبر عما في التشابه بين السيدتين من لطف . فقد كانت

إحداهما فى الواقع صورة مصغرة للأخرى . وكانت الملامح التى مازالت غامضة لابنه يكمل رسمها ويزداد وضوحا لدى الأم ويمكن أن تتصور بين هذين العمرين موسما جميلا يحلو للنفس رؤيته يزهر . إيه أيها الزواج ! لماذا لا تكون هذه المرة سوى الأخ الأكبر للحب ؟

ومها فعلنا ثمة تقليد دينى يمسك بالأورى فى الشرق ويسيطر عليه على الأقل فى الظروف الخطيرة . فالزواج من صبية صغيرة جدا لا يمكن أن يكون اختيارها حراً دون أن يكون الرباط الذى يربطكما إجباريا بالنسبة لك مسئولية أخلاقية كبيرة . ولقد أعطانى هذا اللقاء لحظة فكرة زواج أكثر جدية مما يسمونه فى القاهرة بالزواج على الطريقة القبطية . ولم أستطع فهم الموقف بطريقة أخرى . والتفت ناحية الأب وطلبت من المترجم أن يقول له أن ثمة أعلا ...

ص ١٤٩

بهذا الثمن سوف تحصل على نساء كثيرات ... فى السوق - ولكن كيف ، وأنت الذى ينبغى أن تدفع ! - (أنا الذى أدفع المهر ؟) أه ! إن الأمر إذن يختلف ! ينبغى أن أدفع المهر (على الأقل عشرين قرشا) بدلاً من أن أتلق أنا المهر ؟ - بطبيعة الحال . أتجهل أن تلك هى العادة هنا ؟.

الوكيل - نعم ولكن لابد من دفع المبلغ (والأهل يحتفظون به إلى اليوم الذى قد يحدث فيه فراق) إنه تعويض صغير للأسرة .

وفهمت منذ ذلك الحين لهفة الأهالى فى هذا البلد على تزويج

فنياتهم الصغيرات . وفي رأي أنه ليس ثمة ما هو أكثر عدلا من أن تدفع لتحصل على زوجة شابة وجميلة تعب أهلها في تربيته من أجلك . ولكن كل ما أسفت عليه هو أن حافظتي كمسافر لم تكن تسمح لي ببلوغ ذلك .

ويبدو أن البائنة ، أو على الأصح ، المهر يتغير كثيرا حسب جبال وشباب الزوجة الموعودة وكذلك حسب اختلاف مكانة الأهل . فالتطلعات تهبط حينئذ إلى نصف المبلغ المطلوب . وتلك تجارة يلعب فيها كل من الوكيل والخطيب دورهما كممثلين للطرفين . أضف إلى ذلك تكاليف العرس وسوف ترى أن الزواج على الطريقة القبطية قد أصبح هو كذلك إجراء مكلفا للغاية .

وفي رأي عبد الله أنه بنفس التكاليف يمكن الحصول على سراى كاملة من سوق الجوارى .

ص ١٦٤

إن مصر لا تملك حتى الآن سوى جريدتين ، إحداهما « المونيتور » وتطبع في بولاق والأخرى « النهار » وتظهر في الإسكندرية . وفي حقبة كفاحها ضد الباب العالي استجلب الباشا محرراً فرنسيا بتكاليف كبيرة أخذ يكافح بضعة أشهر ضد صحف القسطنطينية وأزمير . وكانت الصحيفة آلة من آلات الحرب كغيرها . لقد ألقت مصر السلاح حول هذه النقطة ولكن هذا لم يمنعها من أن تتلقى كثيرا فيض المنشورات العامة من البسفور .

١ - الماضي والمستقبل

ص ٢٠٠

حين سقطت الاسكندرية الكبيرة هذه تحت ضربات العرب أنفسهم كانت مصر كذلك هي أهم البلاد التي تحتفظ بالعلوم وتساعد على تقدمها بعد أن نهل منها العالم المسيحي . ولقد أطفأ حكم المالك هذه الأنوار الأجيعة وبنفى أن نلاحظ أن الظلام الذي تردى فيه الشرق منذ ثلاثة قرون ليس نتيجة للمبادئ الحميدة ولكن للتأثير التركي . إن العبقريّة العربية التي غطت العالم بالمعجائب قد اختفت تحت هؤلاء الحكام الأغبياء ففقدت ملائكة الإسلام أجنتها وجنيات ألف ليلة وليلة شهدت تحطم طلاسما . وانتشر نوع من البروتستانتية على جميع شعوب المشرق . وأصبح القرآن بفعل التفسير التركي ما كانت عليه التوراة للطهرين Puntaus الإنجليز أى وسيلة للتسوية بين كل شيء . واختفت الفنون والآداب والعلوم ابتداء من هذا الوقت لم تترك شاعرية التقاليد والمعتقدات الأولية هنا وهناك إلا آثاراً وكانت مصر كذلك هي التي حفظت أكثرها عميقاً .

واليوم فإن هذا الشعب الذى تحمل القهر مدة طويلة لا يعيش إلا على الآراء الأجنبية . وهو فى حاجة إلى أن تعاد إليه الأنوار المتفرقة التى كان مهداً لها مدة طويلة . ولكن بأى عرفان وأية مهارة دائبة تراه ينطبع ويتقوى اليوم بكل ما هو آت من أوروبا إن تحفنا العلمية والأدبية قد ترجمت إلى العربية وضاعفت المطابع من عددها . والآلاف من الشبان الذين يتشأون من أجل الحرب يتفقون أوقات فراغهم السلمية مع هذه المتحف . هل يجوز أن نبأس من هذا الجنس القوى الذى فتح به ، فى الآونة الأخيرة ، محمد على امبراطورية الخلفاء وجدها دون تدخل من أوروبا وكان فى إمكانه فى بضعة أيام قلب عرش عثمان ؟ يمكننا أن نتنبأ منذ الآن بأنه إذا لم يكن هذا النصر العسكرى الذى لم يترك لمصر الإجهاد . بعد الجهد الضائع ، إذا لم يكن هذا النصر قد تحقق فإن الحضارة والصناعة سوف تشغل القوى والذكاء والمحبة للعمل لتحقيق أمل آخر . وفى القسطنطينية نرى أن النظم الحديثة عقينة . وفى القاهرة سوف تودى إلى نتائج كبيرة حين تودى سنوات عديدة من السلام إلى تنمية الرفاهية المادية .

٧ - حريم الوالى

ص ٢٢٦

ورأيت أن التركى وسط كل هذا لا يستطيع أن يتبع إلا شبح اللذة . لم يعد فى الشرق لا مغرمون كبار ولا باحثون كبار عن اللذة . إن الحب المثالى للمجنون أو عترة قد نسيه المسلمون المحدثون كما أن حمية دون

غير الشابة ليست معروفة لديهم . إن لهم قصوراً جميلة دون أن
الفن وحدائق جميلة دون أن يحبوا الطبيعة ، ونساء جميلات دون
بفهموا الحب . وأنا لا أقول ذلك من أجل محمد على ، مقدوني
مل والذي أظهر روح الإسكندر في أكثر من مناسبة . ولكني آسف
لا هو ولا ابنه قد استطاعا أن يعيدا إلى الشرق تفوق الجنس العربي
الماضي المليء بالذكاء والفروسية . ذلك أن الفكر الذكي يسيطر
بما من جهة والفكر الأوربي من جهة أخرى تلك نتيجة ضئيلة لجهود
ة .

٢ - الأفريز

٢٢٤

فقلت له : لقد أخطأوا بتنظيف وتجديد هذه الكتابة . فأجاب
: " ولكنك إذن لا تفهم !

فقلت : لقد أقسمت على ألا أفهم الكتابات الهيروغليفية ... وقد
ت الكثير جداً من الشروح . فقد بدأت بسانشونياتون Sauchoniaton
نمحت بأوديب مصر للأب كيرشير Kircher وأنهيت بنحوشاميليون بعد
ة ملاحظات واريبرتون Watburton والبارون بو leboron pow .
مالم يعجبني في هذه الآراء هي نشرة للأب آفر Affre الذي لم يكن
قد أصبح اسقفا لباريس والذي ادعى بعد أن ناقش معنى كتابات
بد أن علماء أوربا كانوا قد اتفقوا على تفسير وهمي للهيروغليفية حتى

يمكنهم إنشاء كراس في الجامعات للغة الهيروغليفية ومرتب هذه الوظيفة عادة ٦٠٠٠ فرنك .

وأضاف الضابط البروسى مصححاً :

- أو ١٥٠٠ تلىرى ، هذا هو المبلغ المقابل بعملتنا تقريبا . ولكن لندع المزاح حول هذا الموضوع . فأنت لديك النمو ونحن لدينا الحروف الأبجدية وسوف أقرأ لك هذه الكتابة بمثل السهولة التى يقرأ بها التلميذ اليونانية حين يعرف حروفها ولو أنه يتردد أكثر أمام معانى الكلمات » .

وأخذ الضابط فى القراءة وهو يدون المقاطع فى مفكرته ، ويقول لى : « إن هذا يعنى (...) لرسالته » .

وندمت للتو على شكى فى الهيروغليفية وأنا أفكر فى التعب والخطر الذى تحده هؤلاء العلماء الذين يكتشفون فى هذه اللحظة بالذات أطلال قصر التيه .

... وقلت له : هيا ، إن هذا يجرى مضرب الأمثال ويقبله الجميع ! وتذكرت حينئذ أن نابليون نفسه حين زار داخل الأهرام برفقة زوجة أحد الكولونيلات قد تعرض للخطر الذى كان يتوقعه المرشد . فقد أتى البدو فجأة ، كما يقولون ، وشتوا حرسه وسدوا مدخل الهرم بحجارة كبيرة بطول متر وعرض متر . وأتت كتية من المطاردين فجأة فأنقذته من هذا الخطر لحسن الحظ .

قد تتردد الثعابين في سكنى مثل هذه المساكن المنزلة . أما الخفافيش فهي موجودة وتعرف عليها بصيحاتها وطيرانها حول النار .
... من الصعب أن تفهم أن هذه المساحة الصغيرة المخصصة إما للمقابر أو لبناء كنيسة أو معبد قد أصبحت المنزل الرئيسى المعد فى الكتلة الحجرية الكبرى المحيطة بها .

وقد اكتشفت غرفتان أو ثلاث مشابهة بعد ذلك ، وقد أسودت جدرانها الجرانيتية بفعل دخان المشاعل . ولست تجد في كل هذا أثراً لقبر ، فيما عدا كهفاً من المرمر طوله ثمانى أقدام . يمكن أن يكون قد استخدم فى حفظ جثمان أحد الفراعنة . ومع ذلك فإن أقدم تقاليد الحفر لا تدل ، فيما يختص بالأهرام ، إلا على اكتشاف عظام الثيران .

وإن ما يدهش المسافر وسط هذه المساكن الجنائزية هو أنك لا تتنفس إلا هواء ساخناً مشبعاً برائحة القار . وفيما عدا ذلك فلست ترى إلا أروقة وجدراناً ولا توجد كتابات هيروغليفية ولا تماثيل ولكن أعمدة مدخنة وقباب وأطلال .

وعدنا إلى المدخل ونحن مستاءون جداً من هذه الرحلة الشاقة ، وكنا نسائل أنفسنا عما يمكن أن يمثله هذا المبنى الشاهق الضخم . وقال لى الضابط البروسى : « مما لاشك فيه أنها ليست مقابر . فما هى الضرورة لبناء هذه المباني الضخمة لحفظ تابوت ملك . وما لاشك فيه أن مثل هذه

الكتلة من الحجارة المجلوبة من صعيد مصر لا يمكن أن تجمع وتشغل في حياة شخص واحد . وماذا تغني بالنسبة للملك تلك الرغبة في أن يعزل في قبر ارتفاعه ٧٠٠ قدم حين نرى جميع أسر الملوك المصريين قد دفنت في تواضع في توابيت ومعايد تحت الأرض .

لابد من الرجوع إلى رأى قدماء اليونان الذين كانوا أقرب منا للقساوسة والأنظمة المصرية فلم يروا في الأهرام إلا آثاراً دينية محصنة لا يقاف الأعضاء الجدد على أسرار الديانات .

ص ٢٥٢

لنعد إلى السهل ولتزر أبا الهول في الجيزة .

ولقد قام الكثيرون بوصف أبى الهول فليس ثمة حاجة منى لأن أحدث عن عدم تغير ملامحه المثيرة للإعجاب ووجهه الذى يبلغ طوله ثمانى عشرة قدما . وما لاشك فيه أن هذه الصخرة الجرانيتية قد نحتت في عصر كان الفن فيه متقدماً جداً . إن أنفه المسكور يعطيه من بعيد ملامح حبشية ، ولكن بقية الوجه يمت لشخص من أجمل الأجناس الآسيوية . واكتفينا بعد ذلك بالإعجاب بالهرمين الآخرين اللذين احتفظا بجزء من الطبقة التى كانت تغطيها ، وقد فتح الهرم الثانى ولكن لم يجدوا فيه إلا قاعتين أو ثلاث تشبه تلك التى زرناها فى الهرم الأول . والثالث وهو أصغرها ويسميه العرب الهرم الابنة ، على ذكر القاهرة رودوب التى يظن أنها هى التى أمرت ببنائه فهو لم يمس ولم يستكشفه أحد . وحول الهضبة

الرملية للأهرام الثلاثة توجد أطلال معابد وتوايت . وثمة بعض التوايت المحطمة راقدة هنا وهناك كطائفة من الوجوه الصغيرة من عجينة خضراء من النادر أن نجد بينها تابوتا كاملاً . وأراد العرب أن يبيعونا بعضها منها ولكننا احتملنا ألا يكونوا قد جمعوها من المكان نفسه . ولا بد أن ثمة مصانع في القاهرة لصنع ذلك كما يحدث بالنسبة لأواني الزهور الأتروبية التي يبيعونها في نابولي .

...وحين زار جيش مصر^(٦٦) مقابر سقارة دهش لعدد القبط التي يحتوى عليها بعضهم . وأتت لبعض الجند فكرة إشعال النار في هذه الأماكن تحت الأرضية لمعرفة عمقها . واشتعلت مومياة القبط التي اختلطت بالقار لمدة ثمانية أيام ثم انطلقت النار من تلقاء نفسها . وحين ظنوا أن الدخان قد تبدد نزلوا إلى هذه الأماكن تحت الأرضية . وفيما عدا المساحة الشاسعة التي اكتشفها النار وفيما وراء المواد التي تحولت إلى فحم والتي يجب إخراجها وجدوا صفوفًا جديدة من القبط كان يبدو أنها تتحدى التخريب أن يصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه .

ص ٢٥٣

إذا كنت أتحدث هنا عن هذه الأحداث التي أصبحت قديمة ذلك أننى تلقيت في القسطنطينية نبأ وفاته التمس . وفي وسط مقابر جالات

(٦٦) أى الجيش الفرنسى الذى فتح مصر .

وأمام لوحة القسطنطينية وسكوتارى الرائعتين اللتين يحدان أمام عيني
شاطيء أوروبا وشاطى آسيا ، أفكر فى حزن فى هذه النهاية المبكرة وفى هذا
الرجل الذى كشف لى آخر حديث معه عن كثير من العلم المتواضع
واللطف الثمين بالتسبة للمسافر على هذه الأرض العربية التى عليك فيها أن
تختار بين اثنين لا ثالث لهما :
القبور أو الأطلال .

مذكرة خاصة بالجامعة (٦٧)

إن جميع تفصيلات هذه الرحلة صحيحة . ومع ذلك ففيما يختص ببعض النقاط كان لابد من تجميع الأحداث تجنباً للإطالة .
وقد علم الكاتب منذ بضعة أشهر أن الجارية الجاوية قد هربت من المنزل الذى وضعها فيه . وبطبيعة الحال لا يخلو الأمر من بعض التعصب الدينى .

أما عن مصيرها الحال الذى اهتم به مسيوب ... قنصلنا ، فيبدو أنها تنعم بالاستقرار والسعادة حسب الملحوظة الغامضة المذكورة فى أسفل الرسالة التى أرسلها كامى روجيه Camill Rogier ، الرسام الذى يقوم برحلة فى سوريا ، إلى الكاتب حيث قال : إن المرأة الصفراء فى دمشق وهى متزوجة من أحد الأتراك ولها طفلان

(٦٧) هذه المذكرة بقلم الناشر .

(نهاية رحلة الى الشرق)

٤ - قصور الباشا

ص ٣٣٤

لأنهم الإنجليز الذين انتزعوا سنة ١٨٤٠ من الحكومة المصرية مساندة هذه الشعوب القوية . ومنذ ذلك الحين اتجه نظامهم دائماً إلى تقسيم الأجناس التي قد يجمعها شعور عام بالوطنية تحت قواد بعينهم . وهذه الروح سلموا الأمير بشير لتركيا ، وهو آخر الأمراء اللبنانيين ووريث هذه القوة متعددة الأطراف ، الغربية في مصدرها التي كانت تجمع منذ ثلاثة قرون جميع المشاعر والأديان في حزمة واحدة .

١ - الصباح والمساء

ص ٣٨٠

ينبغي أن أذكر لك أولاً ما حدث لي منذ عودتي من رحلة في الجبل ، وقد أرسلت لك مؤخراً قصتها .

فقد عدت لأستقر لبضعة أيام في فندق باتسقا في انتظار فرصة للذهاب الى صيدا ، أى سيدون القديمة ، بحراً . وكان الطقس قد أصبح رديثا بحيث لم يجرؤ قارب واحد على الخروج ، ومع ذلك فقد كانت الشمس ساطعة على الأرض ولا تشوب الأفق الأزرق سحابة واحدة . لم يعد أحد يشكو إلا من الريح التي كانت تثير هنا وهناك أعمدة من التراب . ولكن على البحر ، كان كل شيء يتحرك ويتأرجح ، والسفن السكرى تتقابل دفافها ومداخنها . وليس ثمة ما هو أكثر بعثا للدهشة من هذه الفوضى وسط الهدوء وهذه العاصفة ، على الناشف ، وهذا البحر الغادر الذى يفتح هوته السحيقة السوداء تحت أشعة الشمس الزاهية . ولابد أنه مما يحدث أسى مزدوجا أن نرى غريقا في مثل هذا الجو الجميل .

والتيقن على مائدة الفندق بالمبشر الانجليزى الذى كنت قد تعرفت به قبل ذلك . ولم يكن أقل ضيقا بالعاصفة منى فقد عرقلت كذلك مشروع سفره على نفس الرحلة . وحين توقع أن نكون بعد قليل رفيق سفر أعطى لعلاقتنا مزيداً من الألفة فخرجنا معاً بعد الغداء لرؤية البحر الهائج وما يعرضه من منظر جميل .

وحين هبطنا إلى الميناء التقينا بالأب بلانشيه الذى توقف وأراد التحدث بعض الوقت معنا . وليس أقل ما يدهش في بلد المتناقضات هذا أن ترى أحد اليسوعيين وأحد المبشرين الإنجيليين يتحدثان في ود . الواقع أنه مهما كان من شأن كفاحها الخاص الملتوى فإن هذين الغريمين الوريثين يلتقيان بصفة مستمرة على مائدة القناصل ، ويحسن كل منهما استقبال

الآخر حيث إنهما لا يستطيعان أن يفعلا غير ذلك . وفيما عدا التأثير الحقيقى الذى قد يحصلان عليه من كفاحهما مع سكان الجبل فليس ثمة ما يجازفان به فى مجال التبشير حين يلتقيان على أرض واحدة .

يدونون فيه أعمالهم فيثبتون للجدد أن الإنجليز هم تقريبا دروز . وهذا يفسر المثل الدرزي القائل : « الإنجليز والدروز سوا سوا » . وهذه الطريقة يكون المبشرون أنفسهم هم الذين يغيرون ديانتهم .

وقد عدل المبشرون الكاثوليك منذ مدة طويلة عن تبشير الدروز ولم يعودوا يتجهون إلا الى اليونانيين الانفصاليين حيث ثمة تقارب بين آراء هاتين الطائفتين أكثر من غيرها . أما المبشرون الإنجليز فإن مهمتهم على العكس تنحصر فى جميع المذاهب البروتستانتية على اختلافها ، وقد عثروا أخيرا على نقاط تقارب غريبة بين دينهم وديانة الدروز . والمسألة تتوقف أولا وأخيرا على تسجيل أكبر عدد ممكن من الأسماء فى الدفتر الذى

٧ - الرحيل

ص ٤٤١

إن التفاصيل القادمة يمكن أن تستخدم كهامش لا كتفسير لقصة الحاكم ، تلك القصة الغامضة بسبب الحكايات الكثيرة التى ترتبط بهذا المصلح كما ترتبط الأناجيل المختلفة بالمسيح وقد نشر مسيودى ساس جزأين

عن هذه الحكايات المختلفة . أما قصتنا فلم تستند إلا إلى أهم هذه الحكايات مع الامتناع عن كل اختراع رومانسى فى هذا الصدد . إنها ما هى إلا ملخص ومختارات مما يحكى .

ص ٤٤٣

... وقال الشيخ : هذه هى الحقيقة . فبعد المشهد الدامى الذى حدث بالقرب من المقابر هرب العبدان اللذان كانا يحملان أوامر ست الملك وعادا إلى المدينة . ومر شيخ تتبعه فرقة مسلحة وطلب من أحد أتباعه أن يفحص جروج الخليفة ويوسف بن دواس وصب عليها سائلا ثميناً . وبعد ذلك حملوا الجثتين إلى مقابر الفاطميين ، وهى ساحة جنازية شاسعة بناها المعز لدين الله باني القاهرة . ووضع الصديقان ، وأحدهما خليفة والآخر صياد أسماك ، فى قبرين متشابهين فقد كان كلاهما أميراً وكان كلاهما حفيداً للمعز لدين الله . وكان هذا الأخير مازال حياً .

وقلت للشيخ :

معذرة ، لقد كان من الصعب على أن أتبين فى قصتك ما هو خيالى وما هو حقيقى ، وتلك هى الصعوبة بالنسبة لنا فى جميع قصصكم العربية ...

فقال الشيخ :

- ليس فيما قصصت عليك ما يبعد عن الاحتمالات البشرية فلم أقل إن الحاكم كان صاحب معجزات ولم أحلل إلا مشاعر نفسه التى نقل إلينا

نبيه حمزة أسرارها . إن الحاكم بالنسبة لنا إله ، ولكم الحق ، معشر
المسيحيين ، ألا تروا فيه إلا مجنوناً .

— وجده ، هل كان هو الآخر إلهاً ؟

— كلا ، ولكنه كان كما تعرفون قابلاً^(٦٨) كبيراً . وقد وضعه إيمانه
الفريد على اتصال بروح البر (وهو الاسم السماوى للحاكم) . ويقال له البر
يوماً : « إن وقت نزولى إلى الأرض ليقرب وحينئذ سوف أظهر فى صورة
بشر ، سأكون حفيدك وشبيهك ، ولن تعرفنى » . وكان للمعز لدين الله
حفيدان ولد أولها وريثا للعرش ورى الثانى كفلاح بسيط فى بلاد قطمة
Ketema (بالقرب من ولاية قسنطينة) . وحين لقب المعز لدين الله من
العرش أشاع بفضل نصائح طبيبه ابن سينا avicenne أنه مات . وكان
المعز يجهل أى حفيديه هو الإله فأراد وضعها موضع التجربة فى ظروف
مختلفة . فاعتزل فى تكية من تكايا الدراويش ، وشاهد دون أن يعرفه أحد
جميع مراسم عقيدة الحاكم . ولما لم يستطع فهم أسباب ذلك (بالعمى
البشر !) أخذ يدبر سراً لكى يحل الآخر محله على العرش . ويقال إنه هو
الذى أعد كمين المقطم . ولم يكن الشقيقان إلا فاقدى الوعى تحت تاثر
ضربات الجماهير ولم يستعيدا وعيهما إلا فى مقبرة أسرتهما حيث طهر الحد
كشبع وسألها حسابا عن حياتهما السابقة . وفى هذه المقبرة المجاورة
للتوابيت والأهرام بدا الحاكم كفرعون يتولى أجداده الملوك محاكمته .

(٦٨) أى كان علماً بواطن التوراة .

فتكلم وشرح أعماله ونظرياته . وخر جده وشقيقه سجداً تحت قدميه واعترفاً به إلهاً . ولكن الحاكم لم يشأ العودة إلى القاهرة بل توجه مع المعز لدين الله إلى صحراء آمون وأقر نظريته التي تولى شقيقه نشرها بعد ذلك باسم حمزة . ومنذ ذلك الحين ظهر الحاكم في بقاع مختلفة من الأرض وأخيراً انسحب إلى لبنان حيث آمن به الشعب .

وأدارت تلك الأسطورة رأسى كالدوامه . وكانت الزيارات التي أقوم بها للشيخ الدرزي تكفي بالكاد للتفسيرات التي أطلبها منه . وفي تلك الأثناء كانت العاصفة التي حجزتني في بيروت قد هدأت وكان لابد لي من الرحيل إلى عكا لأحاول ممارسة تأثيري على الباشا لصالح الشيخ الدرزي . ولذا فقد حييته مودعاً ...

١ - السفينة

ص ٤٤٨

إن هذه اللوحة المليئة بالمبالغة بلا شك كانت تؤثر في لما فيها من بعض لمحات حقيقية . أما أن عدد الأتراك قد نقص كثيراً فهذا أمر لا شك فيه . إن أجناس البشر تتغير وتضيق تحت بعض التأثيرات مثل أجناس الحيوان .

ومنذ مدة طويلة كانت القوة الرئيسية للامبراطورية التركية تعتمد على قوة الميليشيا الأجنبية في الأصل عن الجنس العثماني مثل المماليك والانكشارية . واليوم يحتفظ الباب العالي بمساعدة بعض فيالق من الألبانيين عشرين مليوناً من اليونانيين والكاثوليك والأرمن تحت سلطة

الهلل . هل يستطيع الباب العالى ذلك حتى اليوم بدون المساندة المعنوية
للدبلوماسية الأوربية والمساعدات الانجليزية المسلحة ؟ وحين نفكر فى أن
سورية هذه التى دكت المدافع الانجليزية جميع موانئها سنة ١٨٤٠ لصالح
الأتراك هى نفس الأرض التى جمعتها جميع أوروبا الاقطاعية مدة ستة
قرون كانت دولها فيها تعتبرها مقدسة فإنها تقتنع بأن الشعور الدينى قد هبط
كثيراً فى أوروبا . إن الانجليز لم يفكروا حتى فى أن يحتفظوا للمسيحيين
بالتراث الذى انتزعه ريتشارد قلب الأسد . لقد أردت نقل هذه الأفكار
للقس المبجل ولكن حين عدت الى جواره استقبلنى ...

٥ - الخاتمة

ص ٤٨٧

إن رياح الجنوب التى تظل تمهب مدة خمسين يوماً تقريباً تتخللها مع
ذلك فترات هدوء ، وذات مساء ، وبعد يوم أجمل من المعتاد دعانى
القنصل إلى مرافقته فى اليوم التالى لزيارة أهرام الجيزة . وخرجنا لدى
طلوع الفجر فى عربته وتوقفنا للإفطار فى جزيرة الروضة - تلك الجزيرة
الخضراء وكأنها إحدى جزر البلطيق . وقد أعدت تلك الجزيرة على
الطريقة الانجليزية بفضل عناية ابراهيم باشا . وقد ازدان جزء منها بأشجار
الصفصاف والسرو والأكاسيا ، والآخر بالبرك والأنهار الصناعية الغاصة

بالجمع والكبارى الصينية على ممرات من النجيل .

وقدم لنا طعام الافطار فى كشك يقع فى شمال الجزيرة مبنى من قطع صغيرة من البصخور ، وقد كان هذا الكشك لمدة طويلة حرمًا صيفيا لابراهيم . ولما كان هذا الأخير يقيم بصفة دائمة تقريبا فى الإسكندرية فلم يعد يشغله منذ عدة سنوات .

وقال لى القنصل : « إن القصر الذى نحن فيه الآن قد وضعه إبراهيم تحت تصرفى ، وأنا أسكنه حين تثقل على سكنى القاهرة » . وذهبا بعد ذلك لزيارة جميع أجزاء الجزيرة ، ذلك المكان المنعزل اللذيذ حيث بنى الخلفاء الفاطميون قصرهم من قبل . ولدى طرف ذراع النيل الذى يمر بمصر القديمة أراى القنصل المكان الذى يفترض أن موسى قد التقط فيه من مهده العام بواسطة ابنة فرعون . وتقع هذه النقطة بالقرب من المقياس . المخصص ، كما هو معروف ، لتقدير ارتفاع الفيضان . وثمة عمود من الرخام مسدس الجوانب كان مخصصا فى الماضى لسيرابيس ، ويقوم هذا العمود وسط بئر . وقد ظل هكذا طيلة ثلاثين قرنا يدل على ارتفاع الفهر المقدس . وأهل منتصف النهار دون أن يتكلم رفيق طريقى عن التحرك إلى ما هو أبعد من ذلك . ولذا فقد ذكرته بالهدف من نزعتنا ...

٤ - سان ديمترى

فى أحد الكباريات وجهت أخيرا الى عشيقه أحد اليونانيين إهانة تسببت فى حدوث اصطدام مروع بين بعض اليونانيين من المودة وبعض

الأيونيين . ويتسم هؤلاء الأخيرون عادة بالوقاحة والميل للشجار لأنهم من رعايا إنجلترا . وقد تسبب هذا في معركة حقيقية لم تخل من المشاهدين . وقد اصطف أكثر من مائة وخمسين شخصا من الدولتين ، اصطفوا في ساحة المقابر الكبرى . وأطلقت طلقات كثيرة من المسدسات كما وجهت ضربات خناجر وأخطرت السلطات التركية ، وصاح الباشا قائلا : « بكالوم (لا يهم !) ليقض هؤلاء الكلاب على أنفسهم إذا شاءوا فسوف يصبح عددهم أقل » . صحيح أن الشرطة التركية قليلة الفاعلية في يرا بسبب العدد الكبير من الأجانب ممن يوضعون تحت حماية القناصل .

٧ - وجوه أربعة

ص ٥٢٥

إن تفاصيل هذه الترهة خلال أحياء القسطنطينية لن تكون ذات فائدة إذا كان عيها هو الدقة . والمغامرة التي قصصتها في الحلقة السابقة ما تكن مخترعة ، فهي تتعلق في واقع الأمر بأخت أحد السلاطين السابقين وربما كانت من عهد السلطان سليم . ففي ذلك العصر كانت الانكشارية تقوم بأعمال الشرطة المسائية وكان افرادها يدخلون حتى إلى القصور الامبراطورية إذا ما ساورتهم بعض الشكوك . إن حب النساء للبهلوانات والمشعوذين كان كذلك سبباً في مشهد مماثل في عصر السلطان محمود . وكادت تذهب ضحية ذلك فرقة من معلمى الفروسية التمساء . ولم ينقذهم إلا بهلوان من كوروشزميه Kourouchezme تصادف وجوده حينئذ بالقرب من القصر .

٣ - الرواة

ص ٥٦٤

في تركيا يسود شعور خالص بالمساواة لدى الجميع . وبما يؤيده أن الجميع على ثقافة متواضعة كافية لفهم كل شئ* والشعور بكل شئ* حيث إن التعليم إجباري والناس من جميع الطبقات يرسلون أولادهم للتعليم مدة طويلة في المساجد ، حيث يتعلمون بالحنان .

ولذا فإنه ليس ثمة من يدهش لرؤية رجل من أحط الطبقات يصل إلى أعلى المراكز التي لا يحتاج لبلوغها إلا إلى اكتساب بعض المعلومات الخاصة .

قصة ملكة الصباح وسليمان أمير الجن

٣ - المعبود

ص ٦٠١

وخلال الوجبة الأولى لهذه الجلسة ، دار الحديث عن مختلف المشاعر التي أثارها القصة . وبدأ على أحد الحاضرين ، وقد عرف من لون ذراعيه الملطخ بالأزرق أنه صباغ ، إنه لا ينضم إلى شعور التأييد العام الذي استقبل به المشهد السابق . واقترب الصباغ من الراوى وقال له : « أيها الأخ ، لقد أعلنت أن هذه القصة تهم جميع طبقات العمال . ومع ذلك فلاني أراك حتى الآن تتغنى بأجناد عمال المعادن والتجارين ونحائي

الحجارة ... فإذا لم يكن هذا الذى تقول يهمنى فلن أعود إلى هذا المقهى ثانية وكذلك سيفعل كثيرون غيرى . وقطب صاحب المقهى حاجبيه ونظر الى راويه بشعور اللوم .. ورد الراوى قائلا : «أيها الأخ ، سوف يكون ثمة شىء خاص بالصباغين ... سوف تكون لدينا الفرصة للحديث عن حريم الطيب ، ابن صور ، الذى نشر الأقمشة القرمزية الجميلة فى العالم أجمع ، والذى كان حاميا لأدونيرام » . وعاد الصباغ فجلس واستأنف الراوى حكايته

٧ - مسارح القسطنطينية

عدت الى خان يلدز وأنا مشغول الرأس بالتفاصيل الغريبة للقصة لاسيما تلك اللوحة التى صورت لنا عن سقوط سليمان بعد وفاته . وتحملت العجائب الداخلية لجبل قاف الذى يتحدث عنه الشعراء الشرقيون كثيرا . وقاف ، حسب المعلومات التى حصلت عليها من رفاقى ، هو الصخرة المركزية التى تشكل التسليح الداخلى للكرة الأرضية . أما مختلف سلاسل الجبال التى تظهر على السطح فما هى إلا امتداد لفروعه . إنها جبال أطلس والقوقاز وهمالايا التى تمثل أقوى دعائمه . ويضع الشعراء القدامى غصنا آخر فيما وراء البحار الغربية نحو نقطة يطلقون عليها اسم إني دنيا ، أى الدنيا الجديدة ، ولابدأنها أطلنطا التى يتحدث عنها أفلاطون ، فى حالة ما إذا استبعدنا أنه كانت لديهم فكرة عن قارة أمريكا .

ومن المحتمل أن المشهد الذى اختلط فيه كبرياء سليمان ، حسب مايقول القرآن ، قد دار فى رواق ارجنك Argenk الذى بنى وسط الجبل

بواسطة الجن ، والذي ترى فيه التماثيل الأربعين للأباطرة الذين يحملون اسم سليمان والذين حكموا الأرض في العصور قبل الآدمية وكذلك الوجوه المرسومة لجميع المخلوقات العاقلة التي سكنت الأرض قبل خلق أبناء الطين . وكان لمعظم هذه الوجوه أشكال عربية تقترب من أشكال الحيوانات ، مما يدخل بلا شك في مجال الأساطير البدائية للهنود والمصريين والبيلاجيين .

ولقد ذكرني عدد هؤلاء الملوك الأربعين قبل الآدميين الذين حكم كل منهم ، حسب ما تقول الأسطورة ، ألف عام ، ذكرني ذلك بفرض ألقاه العالم ليترون Letronne وقد رأيت بدوره يطبقه . ويرجع هذا العالم العصور القديمة . إلى أربعين ألف عام تقريبا قبل خلق آدم المفترض . وقد استقى الدليل على ذلك من انحسار مياه البحر المنتظم عن أرض مصر ، واعتقد كذلك عن بعض الحجارة التي تدل طبقاتها على العدد السابق لفيضانات النيل . وقد تؤدي أبحاث كوفيه Cuvier كذلك إلى افتراضات مماثلة لو أن هذا العالم لم يصر على ربط اكتشافاته بقصص التوراة .

ومهما يكن من أمر فمن المستحيل فهم قصص الشرق أو أشعاره دون أن نقنع أنفسنا بأن ثمة سلسلة طويلة من الشعوب الغربية ، كان آخر ملوكها جيان بن جيان ، قد عاشت قبل ادم . ويمثل آدم بالنسبة للشرقيين مجرد جنس جديد قد عجن وشكل من أرض خاصة بواسطة أدوناي إله التوراة الذي ربما يكون قد تصرف في هذه الظروف مثل تيتان بروميتيوس الذي انعش بالنار الإلهية الجنس الأولي الممتن الذي كان العالم ، حتى

ذلك الحين ، ينتمى إليه . ولكن مهلاً للرموز : فإنى لم أرد أن ألقى بعض الضوء على الجزء الحىالى للقصة التى سمعنا ها فيما سبق . ولكنه الشعاع التائه وسط الظلمات الذى ، حسب تعبير ميلتون ، لا يستخدم إلا فى جعل الظلمات صالحة للرؤيا .

٤ - العيد

ص ٦٨٤

تستطيع هذه القصة أن تعطينا فكرة عن قوة الميول لدى النساء اللاتى تنساب حياتهن منفصلة عن مجتمع الرجال دون أن يكون ثمة عازل لىحائى . وربما كانت امرأة سكوتارى هذه امرأة تقية كانت تأمل أن تستطيع حمل الفنان على اعتناق الإسلام لكى يستطيع الزواج منها . وعلى العموم فإن سلوك النساء التركيات وقور ومتخفظ . أما الحظوظ السعيدة التى يفخر بها الأوروبيون فهى تتعلق بطائفة من النساء غير المحاطات بالتقدير واللاتى يستفدن من السهولة التى تمنحها لهن ملابسهن الغربية ، لزيارة بعض الأوروبيين ممن تقودهن إليهم بائعات الملابس القديمة أو الجاريات الفاسدات . وبصفة شبه دائمة فإن سحر بعض الملابس التى يرفض الزوج العجوز أو البخيل شراءها لهن هو الدافع لهن على الإخلال بواجباتهن ولا يبحق الخطر فى هذه الحالة إلا بهن وحدهن لأن أحداً لا يستطيع مهاجمة بيت أحد الأوروبيين ، أما هو فيستطيع الهرب إلى أحد البيوت التركية .

١٣ - العيد

لاحظنا ، لدى العودة من توفانا إلى بيرا عن طريق الشوارع الصاعدة التي تمر بين مباني السفارات ، أن الحى الافرنجى كان أكثر تألقاً بالأضواء وأكثر ضجيجاً من العادة . ذلك أن احتفالات العيد التى تتلو شهر رمضان كانت تقترب . ويتعلق الأمر بأيام ثلاثة من البهجة تتلو هذا الصوم المختلط بالكرنفال الذى حاولت وصف مراحله المختلفة .

إن العيد هو تقريبا عيد رأس السنة بالنسبة للأتراك .

٣ - حفلات السراى

يكفى أن نقول إن كلا من الرجل والمرأة ينام بكامل ملابسه وأن عبنى المسلم لا يمكن أن تهبط ، بمقتضى أحكام الدين ، إلى أسفل حزام المرأة . والأمر متبادل . حتى السلطان محمود نفسه ، وهو أكثر السلاطين تقدمية ، حين دخل يوما ، إلى حمام زوجاته حكمن عليه بحرمانه من حضرتهم مدة طويلة . ولما علمت المدينة بالأمر عن طريق الخدم الذين يفشون الأسرار ثارت غضبا ونشب بينه وبين الأئمة مشاهد عنيفة . واعتبر الحادث بالنسبة لأنصار السلطان لونا من التشنيع ربما كان مرجعه أنه بى فى قصر المرايا قاعة حمام مدرجة . وأنا من ناحيتى أحب أن أصدق هذه التشيعة .

ملحق (١)

عادات المصريين المحدثين

١ - مركز النساء الاجتماعى

ص ٧٠١

إن الحقبة الأدبية التى نعيشها تشبه كثيرا تلك التى بدأت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . كان الناس كما هم اليوم شديدى الاستطلاع يفرقون أنفسهم فى الأبحاث الغربية وفى غموض الكلمة . وإذا كانت الغرابة قد فقدت القرن الثامن عشر ، كما يقولون ، فماذا نفعل بغرابتنا ؟ ألسنا نجد أنفسنا خليطا من نوع مهلهل للآراء السياسية والاجتماعية والدينية لم نشهد له مثيلا منذ عهد الانحلال الرومانى ، إن ما ينقصنا هو عبقرية متعددة الأشكال قادرة على إعطاء مركز لكل هذه التزوات الضالة . وإذا لم يوجد عبقرى مثل لوسيان أو فولتير فلن يهتم الجمهور إلا اهتماماً طفيفا بهذا العمل الضخم من أعمال التحلل الذى ينشط فيه الكثير من الكتاب العاقرة .

لقد نشر القرن الثامن عشر «الدفاع عن المحمدية» كما حاول إحياء الأبيقورية والنظريات الأفلاطونية الجديدة . ولا ينبغي أن ندهش لذلك بعد الأعمال التي أخذت تظهر في هذا الاتجاه إذا رأينا كتابا بين ظهرانيها يزفع لواء النجى . وليس ذلك بأكثر غرابة من أن نرى مسجداً يبنى في باريس ، ذلك الحدث الذي أعلن عن قرب إتمامه . وعلى كل فإن هذا البناء أمر حق مادام المسلمون يسيحون في بلادهم بناء كنائسنا . ويزور أمراؤهم روما كما كان يفعل ملوك الشرق في الماضي . وثمة نتائج كبيرة يمكن أن تنتج من احتكاك هاتين الحضارتين اللتين ناصب كل منهما الأخرى العداء مدة طويلة واللتين سوف تعثران على نقاط الالتقاء إذا تخلصنا من الأحكام المسبقة التي مازالت تفرق بينهما . وعلينا نحن أن نقوم بالخطا الأولى وأن نصحح الكثير من الأخطاء وفي آرائنا عن العادات والنظم الاجتماعية في الشرق . إن وضعنا في الجزائر يجعل ذلك بالنسبة لنا واجبا . وينبغي أن نتساءل عما إذا كنا سوف نجنى شيئا من الدعاية الدينية ، وما إذا كان ينبغي لنا أن نكتفى بالتأثير على الشرق عن طريق أنوار الحضارة والفلسفة . إن هاتين الوسيلتين في أيدينا متساويتا المفعول . ومن الخير أن نعرف شذلك ما إذا لم يكن علينا أن ننهل من هذه الدراسة بعض المعلومات المفيدة لنا أنفسنا .

وحين استولى الجيش الفرنسى على مصر ، لم تكن يتقص صفوفه الوعاظ والمصلحون الذين قرروا إضاءة شعلة العقل ، كما كانوا يقولون حينئذ ، فوق هذه المجتمعات البربرية . وبعد بضعة أشهر ذكر نابليون

نفسه فى تصرّحاته اسم محمد كما اعتنق خليفته كليبر دين المهزومين . وقد
حذا حذوه من ذلك الحين الكثير من الفرنسيين . وإذا نظرنا إلى
الشخصيات التى اعتنقت الإسلام لصعب علينا ذكر المسلمين الذين
اعتنقوا المسيحية وهذا وحده يكتفى لإثبات أن الإسلام يمنح الإنسان
مميزات معينة لا وجود لها بالنسبة للمرأة . إن تعدد الزوجات مثلاً قد أغرى
من بعيد بعض العقول السطحية . إلا أن هذا السبب لم يؤثر إطلاقاً بكل
تأكيد على من يستطيع دراسة العادات الحقيقية للشرق عن كثب . وقد
جمع السيد دى سوكونيكى فى كتاب يكتنفه الكثير من الغموض إلا أنه
يحتوى على الكثير من الملاحظات والعلم ، جمع جميع آيات القرآن
والكتب الشرقية الأخرى التى تتعلق بوضع المرأة . ولم يجد هذا الكاتب
صعوبة فى إثبات أن محمداً لم يقر فى الشرق لا تعدد الزوجات ولا الطلاق
ولا العبودية ، بل إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون موضع مناقشة . كما أنه
عنى فقط بإبراز جميع جهود المشرع من أجل إشاعة الاعتدال إلى أقصى
حد ممكن فى النظم القديمة التى كان جزء منها يخضع دائماً لمساائل الجنس
والمناخ .

إن فكرة سقطة المرأة والتقليد الذى يظهرها كسبب أولى لخطايا
الجنس البشرى وتعاسته ترجع بصفة خاصة إلى التوراة وبذلك فقد أثرت
لا محالة فى جميع الأديان المشتقة منها . إن هذه الفكرة ليست أكثر
وضوحاً فى دين محمد منه فى الدين المسيحى . وثمة أسطورة عربية قديمة
تؤكد التقليد الموسوى ومع ذلك فإننا نتردد كثيراً فى الاعتقاد بأنها أخذت
فى يوم ما على محمل الجد .

نعرف أن الشرقيين يقرون أن آدم هو أول البشر بالمعنى المادى للكلمة ، ولكنهم يعتقدون أن الأرض قد سكنتها أولا أرواح بدائية خلقها الله قبل ذلك من مادة سامية رقيقة ومضيئة .

... إن هزيود الذى طالما صور التناسخ بين المخلوقات الوحشية والكفاح بين الإلهات الأمهات فى دائرة أورانوس لم يقدم أسطورة أكثر كآبة من ذلك . ولنعد إلى المفاهيم الأكثر وضوحا فى التوراة ، التى أصبحت أكثر لينا وأكثر إنسانية فى القرآن .

ص ٧٠٣

إن جميع المسافرين قد التقوا مرات عديدة فى شوارع القسطنطينية بنساء السراى . والحق يقال إنهن لا يتجولن سيرا على الأقدام كمعظم النساء ولكن بالعربة أو على الخيول كما تفعل نساء الطبقة الراقية . وهن يتمتعن بحرية كاملة فى رؤية كل شئ* والتحدث إلى الباعة . ولقد كانت الحرية فى القرن الماضى أكبر من ذلك حيث كانت السلطانات تستطعن دخول حوانيت اليونانيين والفرنسيين « ذلك أن حوانيت الأتراك ليست إلا أماكن للعرض » . وثمة أخت للسلطان يقال إنها جددت عجائب برج نسل Nesle فأمرت بأث تآتى إليه البضائع بعد اختيارها . أما الشبان التعماء الذين عهد إليهم بهذه المهام فكانوا يختفون عادة دون أن يجرؤ أحد على الحديث عنهم . وقد زودت جميع القصور المبنية على البسفور بقاعات منخفضة يدخل البحر تحتها ، وثمة سقف يغطى المساحات المخصصة لحمام بحر النساء . ويفترضون أن الدين كان يقع عليهم اختيار رحلة - ٢٢٥

هذه السيدة كانوا يمرون من هذا الطريق . وقد حكم على السلطانة بالسجن المؤبد لأكثر ، وما زال شبان بيرا يتحدثون بهلع عن اختفاء هؤلاء الشبان الغتبان الغامض .

ص ٧٠٥

إننا ، بتأثرنا بهذه الملاحظات الصحيحة وبتخلصنا من الأحكام المسبقة التي مازالت تؤثر فينا سوف نسقط تدريجيا الأحكام المسبقة التي شككتنا حتى الآن في إمكانية تحقيق تحالف بيننا وبين الشعوب الإسلامية ، أو تحقيق خضوعهم لنا .

ص ٧١٨

إن معظم بنات الحبشة والزنجيات الشابات قد أسلمهن جلابوهن من النخاسين أو تجار الرقيق في مصر العليا والنوبة إلى الفاحشة . إنهن ، حتى في سن الثامنة أو التاسعة ، يقعن ضحايا لشراسة هؤلاء الرجال . ويشعر هؤلاء الأطفال التعساء من بنات وصبية ، لاسيما من يقدمون منهم من الحبشة ، بارتياح من المعاملة التي يفرضها عليهم الجلابون حتى أن كثيرين منهم يلقون بأنفسهم أثناء الطريق في النيل حيث يموتون مفضلين الموت على الوضع النفسى الذى تردوا فيه .

٤ - راقصات مصر

وتحب النساء ، شأنهن في ذلك شأن الرجال ، أن يتجمعن حولهن في الطرقات إلا أن علية القوم وأبناء الطبقات الراقية يبتعدون عنهن .

... ويمكن أن نستدل من التشابه بين رقص الفاندانجو ورقص الغوازى أن ذلك الرقص قد أدخل إلى أسبانيا مع الغزاة العرب . ولكن من المعروف أن نساء قádiz قد اشتهرن بهذه الألوان من التمرينات منذ أوائل العصور الرومانية .

ص ٧٢٩

وفي معظم هذه الجولات ينفخ مرات عديدة في أنبوبة طويلة تسمى الزمارة يشبه صوتها ذلك الصوت الذى نحصل عليه من النفخ في قرن .

٦ - بيوت القاهرة

إن المساكن المعنية لا تؤجر مفروشة أبداً . ومن النادر أن يقبل شخص لازوجة ولا جارية له كمستأجر لمثل هذه البيوت ، بل إنه لا يقبل حتى في منزل مستقل . إن مثل هذا الشخص ، إن لم يكن له أقرباء مقربين يعيش معهم يضطر للسكن في مبنى يسمى الوكالة ويستخدم كماوى للتجار وأتباعهم .

٧ - الاحتفالات الجنائزية

ص ٧٤٠

حين يشعر أحد العلماء أو الأتقياء من المسلمين باقتراب منيته فإنه أحياناً يتوضأ الوضوء المعتاد قبل الصلاة حتى يكون وهو يغادر الحياة في حالة طهر جسدى . ويكرر عادة شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وحين يخرج المسلم لغزوة أو لسفر طويل ، لاسيما إذا كان عليه أن

يخترق الصحراء ، فإنه يحمل معه عادة كفنه . وفي هذه الحالة ليس من النادر أن يضطر المسافر إلى حفر قبره بنفسه . ذلك أنه كثيراً ما يحدث أن ينهكه التعب والحرمان أو أن يسقط تحت وطأة المرض . فإذا لم يستطع رفاق سفره أن ينتظروا حتى يشفى أو يموت فإنه يتوضأ بالماء إن أمكن ، وفي حالة عدم وجود الماء يتوضأ بالرمل والتراب . وبعد ذلك يحفر مكاناً في شكل حفرة ينام فيها وقد تدثر بكفنه . وبعد هذه المراسم يغطي نفسه ما عدا الوجه بالرمل المستخرج من الحفرة . وفي هذه الحالة ينتظر الموت الذى يضع حداً لمتاعبه تاركاً للرياح مهمة إكمال تغطية لحده .

وإذا قضى أحد كبار العلماء في القاهرة نحبه فإن مؤذنى الأزهر وغيره من المساجد الكثيرة يعلنون من فوق المآذن عن هذا الحدث بتلاوة التراتيل التى يسمونها «أبرار» مما يقرأ في شهر رمضان حسب تعاليم القرآن . ويستمر هذا الندب على الأقل ساعة من الزمن . وإذا حدثت الوفاة في الصباح يحمل الجسد إلى القبر في اليوم نفسه ، ولكن إذا حدثت في المساء أو في الليل فلا يتم الدفن إلا في اليوم التالى . وحينئذ تقضى الندابات المأجورات الليل بطوله مع النساء الأخريات ليكملن ندهن .

ص ٧٤١

يستخدم الفقراء أوراق الغبيراء الجافة المفروكة بدلاً من الصابون ، وكثيراً ما يرش الكفن بماء زمزم التى توجد في معبد مكة .
... ويمشون اثنين اثنين أو ثلاثة بخطا بطيئة وهم يترنمون بشهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » بلهجة كثيبة .

هذه ترجمة لبداية تلك المقطوعة الشعرية :

« أمدح كمال الذى خلق كل شئ* له شكل والذى قهر عبيده بالموت »

« سوف يرقدون جميعا فى القبر ؛

امدح كمال إله الشرق ؛

أمدح كمال الذى يضى* بالنورين الشمس والقمر ؛

كماله : كم هو كريم !

كماله : كم هو رحيم !

كماله : كم هو كبير !

وإذا عصاه عبد فإنه يحميه !

إن صراخ النسوة وأناشيد الصبية الحارة واللهجات الكثيرة التى
يترنم بها الجمالية ، كل ذلك يحدث نغمًا نشازًا غريبًا .

وكان النبى قد منع ندب النسوة والتغنى بفضائل المتوفى فى أثناء
الجنائز . وقد أعلن محمد أن الفضائل التى تنسب إلى الميت بهذه الطريقة
تصبح سببا لتوجيه اللوم إليه لو لم يكن يتحلى بها فى حياته المقبلة . ومن
المثير أن نرى كيف يخرق المسلمون المحدثون تعاليم النبى باستثناء الوهابيين
وحدهم . وقد رأينا فى بعض الأحيان باكيات من الطبقة الدنيا يتبعن أحد
النعوش بوجه مكشوف بعد أن يلطخنه بالطين كما يلطخن به رءوسهن

وصدورهن . وكانت هذه العادة قائمة لدى قدماء المصريين . وفي حالة ما إذا كانت الجنازة لرجل غنى أو حتى من الطبقة المتوسطة فقد يسبقها أحيانا بعض الجمال المحملة بالفصح والماء للدين يوزعان على الفقراء أمام القبر . وهذه المواكب تتكون من أشخاص مختلفين ومتعددين . ويفتتح الإيمانية المسيرة وهم يترنمون ، كما قلنا فيما سبق ، بشهادة لا إله إلا الله . ويتبعهم أصدقاء المتوفى وبعض العلماء والأتقياء الذين يدعون للاشتراك في الجنازة . ثم تأتى مجموعة من « الفقراء » وهم يرتلون سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) يتبعهم غيرهم من رجال الدين الذين يرتلون مختلف الدعوات حسب الطريقة التى ينتمون إليها والتى أسسها شيوخ مشهورون . ويتبع هؤلاء رايات هذه الطريقة أو تلك من طرق الدراويش العليا وهى نصف مفرودة ؛ ثم يأتى تلاميذ المدارس ثم النعش والنائحات كما يحدث فى المواكب الأخرى . وفى بعض الأحيان ، إذا كان حاملو النعش من ذوى المكانة فإن جيادهم تتبعهم .

... يشاهد الكثير من الناس مواكب جنازات الشيوخ الأتقياء أو بعض كبار العلماء . ولا تغطى نعوش هؤلاء الشخصيات بالشيلان . ذلك أن الشيخ فى مناسبة الجنازة هذه يكرم بطريقة خاصة . فالنساء يتبعن نعشه ولكن بدلا من أن ييكن ويندبن كما يفعلن بالنسبة للميت العادى فإنهن يرسلن صيحات جادة وأناشيد مرحة تسمى الزغاريد . فإذا توقفن عن هذه النغمات المرحة ولو دقيقة واحدة فإن حاملى النعش يعلنون أنهم لا يستطيعون التقدم وأن قوة غير عادية تمسك بهم فى المكان الذى يقفون فيه .

أما دفن النساء وصغار الصبية ، رغم أنه أكثر بساطة إلا أنه يشبه تقريبا دفن الرجال اللهم إلا إذا كانت الأسرة غنية أو ذات مكانة مرموقة . وكان من أفخم المواكب الجنائزية التي رأيناها موكب فتاة من أسرة كبيرة . لقد افتتح الموكب رجلان يحمل كل منهما علماً أخضر مطويا كبير الحجم . ويتبع ذلك ثمانية من « البمانية » ثم مجموعة من الفقراء وهم يرتلون سورة من القرآن . يأتي بعد ذلك رجل يحمل غصنا من أغصان النبق وهو شعار صغار السن ويسير بين رجلين يحملان عصا طويلة يعلوها عدد كبير من الأطواق المزدانة بشرائط من الورق بمختلف الألوان . وخلف هؤلاء الثلاثة يسير جنبا إلى جنب جنديان من الأتراك . ويحمل أحد الجنديين صحننا صغيرا من الفضة المذهبة عليه تتم (أى قنينة) من ماء الورد . أما الآخر فهو مزود بصحن مشابه يحمل مبخرة من الفضة المذهبة تحترق فيها بعض العطور . هذه الأواني التي تعطر الجو مخصصة لتعطر غرفة القبر . ومن حين لآخر تراهم يرشون المشاهدين بماء الورد . ويتبع الجنديين أربعة من الرجال يحمل كل منهم على صينية عددا كبيرا من الشموع الصغيرة المشتعلة المثبتة على قطع من عجينة الحناء . أما النعش المغطى بشال بادی الثراء فله شاهد مزدان بغطاء رأسى رائع محلى ، بخلاف الصفا ، « بقصب الماس » وهى زينة من الذهب والماس لتحديد مكان الجبهة . وعلى قمة الشاهد يوجد قرص من الماس بادی الثراء . وهذه المجوهرات من ممتلكات المتوفاة أو كما يحدث أحيانا فلإنهم يستعيرونها من

أجل المركب . أما النساء وعددهن ثمان فكن يرتدين الثوب الحريرى الأسود الذى ترتديه النساء المصريات . ولكن بدلا من أن يسرن على الأقدام كما هى العادة فقد ركن حميراً ذات براذع عالية .

... وإذا كان المتوفى يسكن أحد الأحياء الواقعة شمال المدينة فإنهم يفضلون حمل جثمانه الى مسجد حسنين (كذا) إلا إذا كان فقيرا ولم يكن من جبران هذا المسجد المبجل . وفى هذه الحالة فإن أصدقاءه يحملونه الى أقرب مسجد اقتصادا للوقت وللنفقات التى لا جدوى منها . وإذا كان من العلماء ، أى ذا مهنة علمية ، مها كانت متواضعة ، فإنهم ينقلونه عادة الى مسجد الأزهر الكبير . أما سكان الجزء الجنوبى من العاصمة فيحملون عادة موتاهم الى مسجد السيدة زينب أو الى مسجد ولى من الأولياء المعروفين . وسبب هذا التفضيل الذى يعطونه لهذه المساجد على المساجد الأخرى هو الاعتقاد بأن الدعوات التى ترسل بالقرب من مقابر الأولياء تقبل بصفة خاصة .

... ثم قال : يا إلهى ! هذا عبدك ، وقد ترك راحة الدنيا واتساعها وكل ما كان يحبه ومن كانوا يحبونه من أجل ظلمات القبر وما يشعر به . وقد شهد بأن لا إله إلا أنت حديدك ولا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك ، لك العلم بكل ما يهلك . يا إلهى ! لقد رحل ليقم معك أنت الذى ليس تمة ما هو اطيع من المقام الى جوارك إن رحمتك لا غنى له عنها وأنت لست فى حاجة الى عقابه . لقد جئنا إليك متوسلين أن تسمح لنا أن نتوسط لصالحه . يا إلهى ! إذا كان عمله طيبا فزد كمية حسناته ،

وإذا كان عمله سيئاً فتفاض عن سيئاته . لتسعه رحمتك ولتغفه من امتحان القبر وعذابه . اجعل لحدّه واسعاً واجعل الأرض بعيدة عن جنبيه (يعتقد المسلمون أن الأرض تعذب أجسام الأشرار التي تنكش في القبر على جنبيها رغم أن القبر عادة عميق) . اجعل رحمتك في إعفائه من عذابك حتى الوقت الذي تبعثه فيه بسلام إلى الجنة . يا أرحم الراحمين ! .

ونعد أن يصيح الإمام للمرة الرابعة : « الله أكبر » يضيف « ربنا ! لا ترفض مئوبتنا على ما قدمنا له من خدمات ولا تجعلنا نمر بالامتحان بعده واغفر لنا واغفر له ولجميع المسلمين يا رب العالمين ! » . وهكذا يختم الإمام صلاته ويحجى الملائكة . إلى اليمين وإلى اليسار ويقول :
« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! » كما يحدث في نهاية الصلوات العادية . ثم يوجه كلامه إلى الحاضرين ..

ص ٧٤٤

ويمكن للقبر أن يتسع على الأقل لأربعة تواييت ونادراً ما يحدث أن تدفن النساء مع الرجال في قبر واحد ، ولكن حين يحدث ذلك يقام حائط يفصل بين الجنسين .

... ومع ذلك فإن النبي قد نهى عن حفر اسم الله أو أية آية من القرآن على القبور التي أوحى بأن تكون منخفضة ومبنية فقط من الطوب الني » .

وتدفع أجور الأشخاص الذين يستأجرون لحضور الجنازة لدى القبرا ، أما اليمانيون فيتقاضون قرشا واحداً عن كل رأس . وقد قيل أن الناس الأثرياء يأتون بالقمح والماء على ظهور الجمال فيوزعونها على الفقراء بعد الدفن . ولذا فإن هؤلاء التعساء يهرعون إلى المدفن في جماعات حين يلجئون عجلاً ، حيث يوزع لحمه كذلك على الفقراء . ويسمى ذلك الكفارة . وهم يعتقدون أن هذه الضحية تكفر عن الذنوب الصغيرة لا الذنوب الضخمة . وبعد الجنازة يعزى كل من والدى المتوفى بهذه العبارة ! عوضكم الله خيراً في فقدته أو يهنئونه لأن حياته طالت .

وقد ذكر سال ، في حديثه الأول ، القسم الرابع ، بالطريقة التالية ، عدد آراء المسلمين حول حالة الروح في الفترة ما بين الموت والحساب فقال : «إنهم يقسمون أرواح المؤمنين إلى ثلاث طبقات : الأولى هي طبقة الانبياء الذين تقبل أرواحهم فوراً في الجنة ، والثانية هي طبقة الشهداء الذين تستريح أرواحهم حسب سنة محمد في حويصلة الطيور التي تأكل فاكهة الجنة وتشرب من مائها ، والثالثة هي طبقة المؤمنين الآخرين وقد اختلفت في شأنها الآراء بالنسبة لحالة الأرواح قبل البعث .

١ - ذلك أن البعض يقولون إنها تبقى بجوار القبور محتفظة بحريتها في الذهاب حيث تشاء وهذا ما يؤكدهونه وهم يذكرون الطريقة التي كان

محمد يحییهم بها فی قبورهم وتأکیدہ بأن هذه التحية یسمعها الأموات كما یسمعها الأحياء . وربما من هنا كانت العادة المنتشرة لدى المسلمين بزيارة قبور ذویهم .

٢ - وآخرون یفترضون أن هذه الأرواح تبقى فی السماء الدنيا مع آدم ، وهم یبنون رأيهم على قول النبی الذي أعلن انه وهو عائذ من رحلته الليلية المزعومة فی . السماء العليا رأى فی السماء الدنيا الأرواح الموعودة على یمین آدم والأرواح المحكوم عليها بالنار على يساره .

٣ - ویتصور آخرون أن أرواح المؤمنین تبقى فی بئر زمزم وأرواح غیر المؤمنین تبقى فی بئر فی ولاية حضر موت تسمى بارابوت إلا أن هذا الراى اعتبر کفراً .

٤ - ویقول آخرون إن الأرواح تظل سبعة أيام بالقرب من القبور لایعرف على وجه الیقین أين تذهب بعد ذلك .

٥ - ویقول آخرون كذلك إنها تجتمع كلها فی البوق الذي سوف یوقظ صوته الموتى . وأخيراً .

٦ - فإن آخريین یعتقدون بأن أرواح الخیرین تظل فی صورة طيور بیضاء تحت عرش الله . أما عن أرواح الأشرار ، خلافاً للاراء التي وردت فیما سبق ، فإن أكثر الناس اعتدالاً یؤیدون ، وقد منحتها الملائكة للسماء ، فان السماء ترفضها لأنها ذات رائحة كريهة نجسة ، مم تمنح للأرض فترفضها للسبب نفسه فيلقى بها إلى الأرض السابعة حيث توضع فی زلزلة

تسمى « سلجين » تقع تحت صخرة خضراء ، أو حسب السنة المحمدية .
تحت فك الشيطان ، لكى تتعذب حتى تلحق بأجسادها . إلا أن رأى
الذى يتحدث عن بئر بارابوت هو المرجح اليوم .

... وثمة احتفال آخر يسمى المسبحة يتم بهذه المناسبة لتسهيل
دخول المتوفى فى حالة الغبطة . وهى تستمر بين ثلاث وأربع ساعات .
وبعد العشاء يتجمع عدد من الفقراء (عادة خمسون شخصا) فى منزل
المتوفى . فإذا لم يكن ثمة فناء ولا قاعة كبيرة لاستقبالهم يفرش الحصى أمام
البيت فيجلسون عليه .

ويحمل أحد هؤلاء الفقراء مسبحة مكونة من ألف حبة كل منها فى
حجم بيضة الحمامة تقريبا . ويبدأون الاحتفال بترتيل سورة الملك (السورة
٦٧ من القرآن) ، ثم يرددون ثلاث مرات : « الله أحد ! » ثم يرتلون
سورة الفلق (السورة قبل الأخيرة من القرآن) (كذا) والسورة الأولى
الفاتحة . ثم يرددون ثلاث مرات : « ربنا ! أكرم عبدك سيدنا محمدا وآله
وصحبة وسلم ! » ويضيفون : « إن كل الذين يدعونك هم السابقون
والذين يهملون دعوتك هم المهملون » ثم يرددون ثلاث مرات : « لا إله
إلا الله ! » . ويمسك أحدهم بالمسبحة ويعد كل تكرار من هذه الكلمات
بإرسال حبة . من حياتها من بين أصابعه . وبعد تكرار بضعة آلاف من
المرات يحدث غالبا أن يستريحوا ويتبادلوا القهوة . وبعد إتمام الألف
الأخيرة ، وبعد الاستراحة وتناول المرطبات فإنهم يرددون مائة مرة :
« أوجه مديحى لله الكامل ! » ، ثم يرددون عددا مماثلا من المرات :

«استغفر الله العظيم !» ثم يكررون خمسين مرة : «أجى كمال الله الخالد ، كمال الله الخالد !» ثم يكررون هذه الآيات من القرآن (كذا) : «أذكر صفات ربك رب القدرة بقتريه عما ينسب إليه (المسيحيون وغيرهم) من أن له ولد أو شريك في الألوهية ، والسلام على الرسل والحمد لله رب العالمين !»^(٦٩) . ثم يرتل اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الفقراء ، كل على انفراد ، آية من القرآن . وبعد ذلك يطلب أحدهم من رفاقه الطلب التالي : «هل نقلتم إلى روح المتوفى ثواب ما قرأتم ؟» فيرد الآخرون قائلين : «لقد نقلناه ، الصلاة والسلام على الأنبياء إلخ» . وبهذا يختتم احتفال المسبحة الذى يكرر لدى الأغنياء فى الليلتين الثانية والثالثة . ويقام هذا الاحتفال كذلك فى الأسر التى تتلقى نبأ وفاة قريب مقرب .

ولا يغير الرجال شيئاً فى ملابسهم علامة على الحداد . وكذلك الحال بالنسبة للنساء حين يتعلق الأمر برجل مسن أما فى غير تلك الحالة فإنهن يرتدين الحداد . وفى هذه الحالة فإنهن يصبغن قمصانهن وطرحهن ومناديلهن بالنيلة التى تعطى تلك الملابس لونا أزرق يقترب أحيانا من اللون الأسود . وبعضهن يصبغن كذلك أيديهن وأذرعهن إلى ارتفاع الكوع ويطلبن جدران غرفهن باللون نفسه . وحين يموت صاحب البيت أو مالك الأثاث ، وفى حالات أخرى من حالات الحزن كذلك ، فإنهن يفرشن

(٦٩) عنى عن الذكر أن هذا ليس قرآناً بل ترجمه لما جاء فى قول بركال

البسط والحصر والحشايا وأغطية الأرائك مقلوبة على الوجه الآخر . وأثناء الحداد لا تصفر النساء شعورهن ويمتنعن عن لبس بعض مجوهراتهن ، وإذا كن يلدخن فلنهن لا يستعملن إلا الغاب .

وفي نهاية أول يوم خميس يتلو الجنائزة ، بل حتى في صباح ذلك اليوم في كثير من الأحيان ، تبدأ نساء أسرة المتوفى في الندب في منزل المتوفى وينضم إليهن بعض صديقاتهن . وفي عصر أو مساء اليوم نفسه يأتي الرجال الذين كانوا أصدقاء للأسرة كذلك للزيارة . ويقوم ثلاثة أو أربعة من الفقراء في ترتيب الأدعية . وفي صباح يوم الجمعة يذهب النساء إلى القبر حيث يحتفلن بنفس الطريقة التي تمت أثناء الدفن . ولدى مغادرتهن للقبر يضعن غصنا من النخيل على القبر ويوزعن الفطير والخبز على الفقراء . وتتجدد هذه المواسم في الأيام المشابهة لمدة أربعين يوماً بعد الجنائزة .

(انظر سفر التكوين ٥٠ ، ٣)

وبين فلاحي مصر العليا ثمة عادة غريبة : فإن أهل وصديقات المتوفى يتجمعن أمام منزله لمدة الأيام الثلاثة الأولى للجنائزة لكي يرسلن صيحات مروعة ويقمن برقصات غريبة وهن يلطخن بالطين وجوههن وصدورهن وجزءاً من ملابسهن ، ويلففن حول وسطهن بدلاً من الحزام حبلاً من الحشائش الجافة يسمونها الحلفا . (كانت تلك العادة قائمة لدى قدماء المصريين ، انظر هيرودوت الكتاب الثاني الفصل ٨٥) . وتلوح

كل منهن فى يدها بعضا من جريد النخل فى تشنج عصبى أو تمسك بحربة أو سيف عار ، وترقص فى ذات الوقت بخطوة بطيئة وبطريقة غير منتظمة وهى ترفع وتخفض جسمها . وتستمر هذه الرقصة ساعة أو حتى ساعتين وقد تتكرر مرتين أو ثلاث مرات يوميا . وبعد اليوم التالى يزور النساء قبر المتوفى ويضعن عليه الحبال التى اتخذتها أحزمة . ويحدث عادة أن يذبحوا حملاً أو جديا كضحية للتكفير عن سيئات المتوفى ، وينتهى الحفل بولمة .

٨ - شعب مصر

باستثناء العاصمة وبعض المدن الأخرى فإن مصر لا تملك إلا القليل من البيوت الجميلة . إن مساكن الطبقة السفلى للشعب لاسيما الفلاح ذات بناء تعس . فبيوتهم مبنية عادة من الطوب الذى يستخدم الطين فيه بدلا من الأسمنت ، وهى ليست فى غالب الأمر إلا أكواخا : ومعظمها مكون من غرفتين ، ومن النادر أن تكون ذات طابقين . وفى مصر السفلى نرى عادة فى إحدى هاتين الغرفتين . وفى مواجهة الداخل ، ولكن فى أبعد مكان من المدخل يوجد الفرن الذى يحتل عرض الحائط الداخلى بأكمله . وهذه الأفران تشبه المقاعد الكبيرة ولها قبة من الداخل ، وارتفاعها فى ارتفاع اليد وغطاؤها مسطح . ولما كان من النادر لسكان هذه البيوت أن يكون لديهم بطاطين للشئاء فإنهم ينامون فوق الفرن بعد إشعاله . وفى بعض البيوت لا يوجد إلا الزوج والزوجة اللذان يستمتعان بهذا الامتياز . أما الأطفال فينامون على الأرض . وللغرف

فتحات صغيرة في أعلى الحائط لإدخال النور والهواء . وتزود أحيانا هذه الفتحات بأسيخ من الخشب . أما الأسقف فهي مبنية من سعف النخيل وأوراق الأشجار أو سيقان الذرة الخ ثم تغطي بغطاء من الطمي والقش الرقيق . ويتكون الأثاث من حصير وأحيانا حصيرين بدلاً من السرير ، وبعض القدور الفخارية ورحى لطحن القمح . ونرى في كثير من القرى أبراج حمام مربعة كبيرة مقامة فوق الأسطح تميل أعمدتها كما يحدث في المباني المصرية القديمة قليلاً نحو الداخل وأحيانا تأخذ هذه الأبراج شكل أقماع السكر . وهي مبنية من الطوب النى والطين والقدور البيضاء ذات الفتحة الكبيرة من الخارج وثقب صغير من ناحية الأخرى . ويشغل كل زوج من الحمام قدراً منفصلاً . ومعظم القرى المصرية مبنية على ربوة مكونة من أطلال مما يجعلها أعلى من ارتفاع الفيضانات ببضع أقدام . وهي محاطة في بعض الأحيان بالنخيل . وتتكون الأطلال التي يكونون بها هذه الارتفاعات من مواد أكواخ قديمة . ونلاحظ أنها تبدو في ارتفاع الطمي ومجرى النهر .

الحياة العائلية لدى المصريين

إن الحياة المنزلية لدى الطبقات الدنيا بسيطة جداً في العادة بالقياس إلى الحياة لدى الطبقات الأكثر ارتقاء مما يجعلها قليلة الأهمية .

وفيما عدا جزءاً صغيراً من السكان يعيش في المدن فإن معظم الطبقات الدنيا تتكون من أناس يسمون « الفلاحين » (أى المزارعين) .

أما سكان المدن الكبرى ، أو حتى ما هي أقل منها اتساعاً ، وكذلك عدد قليل من سكان القرى ، فهم من صغار الباعة أو الحرفيين أو من الخدم ويتقاضى هؤلاء مرتبات ضئيلة جداً وهي في غالب الأمر غير كافية لمأكلهم وأسرهم .

وغذاؤهم الرئيسى هو خبز الذرة واللبن والجبن الطرى والبيض والسّمك الصغير المملح المسمى « فسيخ » . وهم يأكلون كذلك الحنّيار والبطيخ والقرع الموجود بكثرة والبصل والكراث^(٧٠) والفول والحمص والعدس والبلح الطازج أو المجفف والخضروات المملحة . وهم يأكلون الخضروات في معظم الأحوال نيئة . ويتحف الفلاحون أنفسهم ببعض سنابل الذرة شبه الناضجة التي يشوونها على النار أو في الأفران . ولا يسمح ثمن الأرز للفلاحين بأكله وكذلك الحال بالنسبة للحم .

والمتعة الكبرى بالنسبة هؤلاء الناس البسطاء هي التبغ رخيص الثمن الذي يزرعونه ويحفظونه بأنفسهم . وهذا التبغ مخضر اللون ورائحته لطيفة نوعاً .

(٧٠) الذى يطلق عليه المصريون اسم الكراث او شوشه .

ورغم أن جميع المواد الغذائية المذكورة فيما سبق رخيصة فإن الفقراء لا يستطيعون الحصول إلا على الخبز الحشن الذى يغمسونه بخليط يسمونه الدقة وهو مكون من الملح والفلفل والزعر أو النعناع والكمون . ولدى كل قسمة يغمسون الخبز فى هذا الخليط . ورغم هذا الحديث عن مدى فقر طعام الفلاحين المصريين فإنك تدهش لمظهر الصحة البادى عليهم وهيكلمهم الصلب وكمية العمل التى يستطيعون تحملها .

أما نساء الطبقات الدنيا فمن النادر أن يكن فاقدات النشاط ، بل ان الكثيرات مهن يتحملن أعمالا أشق من أعمال الرجال . وهن يهتمن عادة بإعداد طعام الزوج وإحضار الماء الذى يحملته فى قدور كبيرة على رءوسهن وغزل القطن والكتان أو الصوف ، وعمل فطائر كبيرة مستديرة مكونة من روث الماشية والقش الرقيق يعجنها معاً ويستخدمنها كوقود .

بهذا الوقود المسمى « الجلة » توقد الأفران وتعد الأطعمة . وفى الطبقات الدنيا نلاحظ أن خضوع النساء لأزواجهن أكبر منه لدى الطبقات المرتفعة . وليس من المسموح دائماً لهؤلاء النساء المسكينات بتناول العشاء مع الرجال . وحين يخرجن بصحبة الزوج فإنهن يمشين دائماً فى الحلف . وإذا كان ثمة ما يحمل فإن المرأة هى التى تتحمل ذلك .

وفى المدن تملك بعض النساء الحوانيت التى يبيعن فيها الخبز والخضروات الخ .. بحيث يشاركن مثل الزوج بل ربما أكثر منه فى أعمال الأسرة .

وحين يرغب أحد المصريين الفقراء فى الزواج فإن همه الأول هو إعداد المهر الذى يبلغ عادة عشرين ريالاً (أى من ١٢ إلى ١٣ فرنكا) . وإذا وجد الرجل إمكانية لتقديم المهر ... فإنه لا يتردد مطلقاً فى الزواج . ذلك لأن ما يتبقى أمامه بعد ذلك قليل بالنسبة لإعالة امرأة وطفلين أو ثلاثة . ويصبح الأطفال ذوى فائدة فى قيادة وحراسة الماشية ابتداء من سن الخامسة أو السادسة . وبعد ذلك ، وحتى وقت زواجهم فإنهم يساعدون الأب فى أعمال الحقل . ويعتمد الفقراء عادة فى مصر اعتماداً كلياً فى شيخوختهم على أعمال أبنائهم . ولكن كثيراً من الآباء محرومون من هذه المساعدة . ولذا فهم يضطرون إلى التسول أو الموت جوعاً . ومنذ وقت قليل نزل الباشا خلال رحلة من الاسكندرية إلى القاهرة فى قرية فى شمال النيل . وأمسك رجل فقير بكم ثوب الباشا وذهبت جميع الجهود لتخليصه منه هباء وأخذ هذا المسكين يشكو من أنه كان فى الماضى فى سر ثم تحول إلى الفقر المدقع لأنه إذ بلغ سن الشيخوخة انتزع منه ابناؤه لتجنيدهم . وهب الباشا الذى يهتم عادة بالطلبات التى تقدم له شخصياً لنجدة هذا التمس ، ولكن بأن أمر أغنى رجل من أهل القرية بأن يعطيه بقرة .

ويحدث أحياناً أن تكون أسرة صغيرة عبثاً لا يحتمل بالنسبة للأهل الفقراء . ولذا فليس من النادر أن نرى أطفالاً يعرضون للبيع ، وتقدم الأم نفسها بهذا العرض أو بواسطة بعض النساء اللاتى يكلفهن الأب بهذه المهمة . ولكن لا بد أن يكون بؤس هؤلاء الناس قد بلغ أقصى مداه . فإذا

حدث وتوفيت الزوجة تاركة طفلا أو أكثر بلا فطام ، وإذا كان الأب أو غيره من الأقارب في فقر مدقع بحيث لا يستطيعون الحصول على مرضع فلأنهم يعرضون الأطفال للبيع أو يعرضونهم على باب أحد المساجد حين يكون ثمة تجمع للناس لدى صلاة الجمعة .

ويحدث عادة أن يتأثر أحدهم بهذا المخلوق الذي يعرض بهذه الطريقة فيحمله ليربيه في أسرته لا كعبد ولكن كطفل متبنى . وإذا لم يتم ذلك فلأنهم يعهدون به إلى شخص ما حتى يتسنى العثور على أم أو أب له بالتبني .

ومنذ بعض الوقت عرضت امرأة على سيدة طفلا منذ بضعة أيام وزعمت أنها عثرت عليه أمام باب أحد المساجد . وقالت لها السيدة إنها على استعداد لتربيته لوجه الله على أمل أن يبعد ذلك كل شر عن ابنها الوحيد الذي تحبه جزاء لهذا العمل الخير وفي ذات الوقت وضعت عشرة قروش (أى ما يساوى فرنكين ونصف) في يد المرأة ولكنها رفضت هذه الهدية . وهذا يدل على أنه يحدث أحيانا أن تمارس هنا تجارة تهريب الأطفال وأن من يدفعون نقودا يستطيعون أن يحولهم الى عبيد أو يعيدون بيعهم . وقال لى أحد تجار الرقيق ، كما أكد لى غيره ذلك ، أنهم أعطوه للبيع كثيرات من الفتيات بمحض موافقتهم . فقد أقنعوهن بذلك بأن صورواهن الملابس الغالية وأدوات الترف التي سوف يحصلن عليها . وعلموهن أن يقلن لهن أجنيات وأنهن جلبن إلى مصرفى سن الثالثة أو الرابعة ونسين لغتهن الأصلية ولم يعدن يعرفن إلا العربية .

ويحدث كثيرا للفلاحين أن يسلمن لحالة من الفقر الشديد بحيث يضطرون من أجل النقود إلى وضع أطفالهم في حالة أشد من العبودية العادية ، فحين يطلب من قرية ما أن تسلم قدراً معيناً من الدخل فإن الشيخ يتبع عادة الطريق الأسهل ألا وهو أخذ أغنى أبناء الناحية . وفي هذه الظروف فإن الأب ، كى لا يحرم من ابنه يمنح أحد القرويين الفقراء من خمسة وعشرين إلى خمسين فرنكا لكى يحصل على بديل وهو ينجح في هذه المهمة في معظم الأحوال رغم أن حب المصريين لأبنائهم في مثل حب الأبناء لآبائهم يرتاعون عادة من فكرة تجنيد أبنائهم . وهذا الارتياح يبلغ حد اللجوء إلى وسائل عنيفة لتجنب هذه المصيبة . ففي أيام حرب سنة ١٨٣٤ مثلا لم يجدوا تقريبا شبابا صالحين لا ينقصهم على الأقل سن أو سنين حطمت عمداً لجمعهم عاجزين عن عض الخرطوشة ، أو قطع لهم أصبع أو سمكت لهم عين . بل أنه في بعض الحالات ققت العينان لكيلا يؤخذ الأبناء ويرسلوا إلى الجيش وقد عرف عن بعض عجائز النسوة وغيرهن بالتجول في القرى لإجراء هذه العمليات للأولاد . وفي بعض الحالات يقوم الآباء أنفسهم بهذه العمليات .

ولا يمكن أن يذكر فلاحو مصر بالخير لا من حيث حالتهم الأسرية والاجتماعية ولا من حيث العادات والتقاليد . وثمة وجه شبه كبير من هذه النواحي بينهم وبين أجدادهم البدو دون أن تكون لهم فضائل سكان البادية . وحتى إذا كانت لهم بعض الفضائل فقد انحلت . أما عن المثالب التى يتسمون بها فهي كثيرا ما تمارس تأثيرا سيئا على حالتهم الأسرية . وقد

قبل فيما مضى أنهم من سلالة مختلف الأجناس العربية التي استقرت في مصر في عصور مختلفة . وما زال سكان القرى بأجمعهم يلاحظون ما بين القبائل من تمييز وبفعل الزمن انقسمت كل قبيلة أصيلة إلى عدة فروع . أصبحت أساء هذه القبائل الصغيرة تحملها القرى أو المراكز التي يسكنونها . وأقدم القبائل استقراراً في مصر قد احتفظت من البدو الأوائل بقدر أقل واختلط نقاء جنسهم بالزواج المتبادل مع الاقباط الذين اعتنقوا الاسلام أو مع سلالته مما جعل القبائل الأحدث استقراراً في البلاد تحقرهم وتسميهم « الفلاحين » وتحتكر التسمية بالعرب أو البدو . وحين يرغب هؤلاء الزواج من بنات الأوائل فلا يجدون صعوبة في الزواج منهن . ولكنهم لا يسمحون أبداً بزواج بناتهم من هؤلاء الذين يسمونهم بالفلاحين . وإذا قتل أحدهم بواسطة شخص من قبيلة فإنهم ينتقمون له بقتل اثنين أو ثلاثة أو حتى أربعة من هذه القبيلة . ويعاقب القتل عادة بقتل أحد أفراد أسرة القاتل . وحين يتم القتل بواسطة شخص من قبيلة الضحية تحدث عادة عدة معارك صغيرة تتحول إلى حرب مفتوحة بين القبيلتين تمتد عادة لسنوات بسبب إهانة طفيفة يوجهها شخص من قبيلة إلى آخر من قبيلة أخرى .

وفي حالات كثيرة يتم الثأر بالدم بعد قرن أو يزيد من حدوث القتل إذا أثاره شخص أو آخر بعد أن بدا أن هذه المدة الطويلة قد جعلت الأمر في طي النسيان . وفي مصر السفلى توجد قبيلتان : سعد وحرم ، وهما يتميزان ، بمعاركهما وأحقادهما (وتوجد الحالة نفسها بين قيس وعبد في

سورية) . ومن هنا يأتي إطلاق هذه الأسماء على أشخاص أو أحزاب تعيش في حالة عداء . ومن الغريب أنهم يتحملون ، حتى في هذا الوقت ، مثل هذه الجرائم التي لو حدثت في مكان آخر أو في مدن مصر الكبرى لعوقبت بأحكام الاعدام التي يروح ضحيتها العديد من الأشخاص الضالين . والثأر بالدم مسموح به بمقتضى القرآن . ولكنه يوحى في تنفيذ ذلك بالاعتدال والعدل^(٧١) . والحروب الصغيرة التي يسببها الثأر في زماننا تتعارض إذن مع تعاليم النبي الذي قال : «إذا سحب مسلمان السيف أحدهما ضد الآخر فإن القاتل يعاقب بالنار»^(٧٢) .

وفي حكايات أخرى فإن الفلاحين يشبهون البدو . وحين تثبت خيانة فلاحه لزوجها فإنه هو نفسه أو شقيق المرأة الزانية يسقطانها في النيل بحجر مربوط في عنقها أو يلقون بجثتها في النهر بعد تقطيعها إربا . والابنة أو الأخت غير المتزوجة حين ترتكب إثما تعاقب غالبا بنفس الطريقة ويقوم الأب أو الأخ بتنفيذ الإعدام . ويعتبر والد مثل هؤلاء البنات أكثر تحملا للعار من الزوج بالنسبة لخيانة زوجته . وإذا لم يأخذ بثأره فإن الأسرة تتعرض لاحتقار القبيلة كلها .

(٧١) القرآن ٢ - ١٧٣ ، ١٧ - ٣٥ (حسب رأى جبرار) .

(٧٢) القرآن ٤ - ٩٥ (في إعدام جبرار) .

عيد محمد

في بداية شهر بايا الأول BJM (٧٣) (أى الشهر الثالث) ، يستعد الناس للاحتفال بمولد النبي . وهذا الاحتفال يسمى مولد النبي والمكان الرئيسى للاحتفال هو الجزء الجنوى الغربى من الساحة الكبيرة ببركة الأزبكية التى تصبح كلها تقريبا أيام الفيضان بحيرة . ويحدث لعدة سنوات متتالية أن يأتى المولد فى هذا الموسم فيحتفل به على ضفاف البحيرة . ولكن إذا كان مكانها جافا فيتم الاحتفال فيه . فتقام السراقات الكبيرة التى تسمى « صيوان » والتى يتجمع فى معظمها الدراويش فى جميع ليالى المولد . وفى وسط كل من هذه السراقات يقام صارى يثبت جيدا بالحبال ويعلق عليه نحو اثنا عشر من المصاييح الصغيرة أو يزيد . وحول هذه الصوارى تتجمع فرقة من نحو خمسين أو ستين درويشا يصطفون فى دائرة ينشدون الذكر . وبالقرب من هذا المكان يقام ما

(٧٣) صحتها ربيع الأول .

يسمونه « بالقائم » ، وهو عبارة عن أربعة من الصواري التي تقام في صف واحد ، ويبعد كل واحد عن الآخر بضعة قصبان ، وتثبت جميعا بالحبال التي تمر من أحدهما إلى الآخر وتثبت في الأرض من الطرفين .

وتعلق المصاييح على هذه الحبال بين الصواري مكونة أحيانا أشكال الزهور أو الأسود ألخ .. وأحيانا أخرى تشكل كلمات مثل أسم الله واسم النبي محمد أو بعض العبارات الأخرى وأحيانا تكون مجرد زينات زخرفية . وتنتهى الاستعدادات في ثاني يوم من أيام الشهر . وفي اليوم التالي تبدأ الاحتفالات والابتهاجات التي ينبغي أن تستمر بلا توقف حتى الليلة الثانية عشرة من الشهر ، ويعنى ذلك حسب الطريقة التي يحسب بها المسلمون حتى الليلة التي تسبق اليوم الثاني عشر ، وهى في الواقع ليلة المولد . وخلال هذه الفترة المكونة من عشرة أيام وعشر ليال يتجمع جزء كبير من سكان البلاد في الأربكية .

وفي بعض أجزاء من الشوارع المجاورة للمكان تقام الأراجيح وغيرها من الألعاب وكذلك عدد كبير من جوانب العرض لبيع الحلوى .

وذهبنا الى شارع يسمى سوق البكرى ، ويقع في جنوبى ميدان الأربكية لنرى الذكر الذى قيل لنا ان به أحسن المنشدين . وكانت الشوارع التي ينبغي لنا اجتيازها للوصول إلى المكان غاصة بالجاهير ، ولم يكن مسموح لأحد بالتجزل دون مصاييح ، كما هى العادة حين يحن الليل . وكنا نرى بالكاد بعض النسوة ضمن الحاضرين .

وفى مكان الذكر نفسه علق شمعدان كبير جدا يحمل مائتين أو ثلاث مئات من المصابيح الزجاجية الصغيرة المتقابلة فيبدو أنه يتكون من مصباح واحد . وحول هذه الحزمة من النور كان ثمة عدد كبير من المصابيح الخشبية يحتوى كل منها على عدد كبير من المصابيح الصغيرة الشبيهة بمصابيح الشمعدان .

والذكير (أو منشد الذكر) يجلس مع رفاقه وعددهم عادة ثلاثون ، وقد عقدوا السيقان على حصر مفروشة لهذا الغرض بطول منازل جانبي الشارع ، ومصطفة فى شكل دائرة طولها أكبر قليلاً من عرضها . وفى وسط هذه الدائرة كان ثمة ثلاث شمعات تحملها شمعدانات منخفضة جداً . ومعظم رجال الذكر أو الذكيرة ، كانوا من الدراويش الأحمدية ، وهم أناس من الطبقة المتواضعة ويلبسون ملابس رثة وبعضهم فقط كان يلبس العمامة الخضراء . وفى أحد أطراف الدائرة المستطيلة كان ثمة أربعة منشدين (أى من يتغنون بالشعر) ، وأربعة من عازقى آلة تشبه الصفارة تسمى الناي . وتوصلنا إلى العنور على مكان لنا وسط هؤلاء من أجل حضور مجلس الذكر بأكمله (أى المشهد) وسوف نصفه بأكبر قدر ممكن من الدقة لنعطى فكرة عمن يحاطون فى القاهرة بأكبر قدر من الاعجاب . وقد بدأ هذا المجلس فى الساعة الثالثة تقريباً ، وبناء على تقديرنا ، أى الساعة الثالثة بعد غروب الشمس . وقرأ المنشدون أولاً الفاتحة معاً حين صاح رئيسهم أولاً قائلاً : « الفاتحة » ! . واصل الجميع الانشاد قائلين : « يا إلهى ! أكرم سيدنا . محمداً عبر

القرون ، أكرم سيدنا همدا في أعلى مكان يوم الحساب وأكرم جميع الأنبياء المرسلين بين سكان السماوات والأرض . وليرض الله الذى نمجده اسمه ونباركه عن سادتنا وموالينا أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويرفع ذكرهم . الله ملاذنا وحارسنا . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! يا إلهى ! يا مولانا ! يا غفار ! يا أكرم الأكرمين يا الله ! آمين ! » .

وبعد هذه الأناشيد يظل الذكيرة صامتين بضع دقائق ، ثم يبدأون بصوت منخفض .

وهذه الطريقة في بدء الذكر منتشرة بين جميع طرق الدراويش في مصر وتسمى استفتاح الذكر . وبعد ذلك يبدأ المنشدون وقد اصطفوا كما ذكرنا فيما سبق ، يبدأون الذكر قائلين : « لا إله إلا الله » بنغمة بطيئة وهم يحثون مرتين لدى كل تكرار للآله إلا الله ، ثم يستمرون هكذا نحو ربع الساعة ويكررونها ربع ساعة آخر في حركة أكثر قوة بينما المنشدون ينشدون على النغمة نفسها أو يغيرونها بأجزاء من قصيدة أو موشح أو أنشودة من نوع أناشيد سليمان وهم عادة يذكرون النبی كموضع جهم ومديحهم .

ويدور الذكر حتى يدعو الصباح الناس إلى الصلاة . ولا يستريح الداكرون إلا بين كل مجلس ومجلس بأن يشرب البعض القهوة ويدخن البعض الآخر .

وكان الوقت قد تعدى منتصف الليل حين غادرنا مكان الذكر في

شارع سوق البكرى لكى نتوجه إلى ميدان الأزبكية وهنا كان ضوء القمر مضافا إلى ضوء المصابيح يحدث تأثيرا فريداً . ومع ذلك فقد كان الكثير من هذه المصابيح مطلقاً على قائم السارى وفى السراقات . وكان الكثيرون من الناس ينعمون وقد تمددوا على الأرض العراء وهم يأخذون هكذا قسطهم من الراحة الليلية . وانتهى ذكر الدراويش حول السارى ولن نصف هذا الذكر إلا حسب الملاحظات التى أبديناها الليلة السابقة . أما هذه الليلة فبعد أن حضرنا الكثير من الأذكار فى السراقات نهضنا منسحبين .

وفى اليوم التالى (أى الليلة السابقة مباشرة لليلة المولد) عدنا إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة تقريبا . وكان الوقت مبكراً جداً لكى يكون الزحام شديداً وأن تكون وسائل التسلية متوفرة فلم نر إلا بعض المشعوذين والمهرجين و « الشعراء » الذين جاهدوا لجمع حلقة صغيرة من المشاهدين حولهم . ولكن ما لبث الجمهور أن ازداد تدريجياً لأن الأمر كان يتعلق بمشهد مرموق يجتذب كل عام فى مثل هذا اليوم جمهوراً دائماً التشوق لرؤيته . هذا المشهد يسمى الدوسة وهذه هى أوصافه :

بعد أن يقضى ، كما يقولون ، شيخ الدراويش السعدية (السيد محمد المنزلة « كذا ») وهو « كاتب » مسجد الحسينية^(٧٤) ، بعد أن يقضى

(٧٤) ربما يقصد الحسين .

جزءاً من الليلة السابقة في الخلوة وتكرار بعض الأدعية والنداءات الحفية وبعض آيات القرآن ، يظهر في المسجد سابق الذكر يوم الجمعة ، وهو اليوم السابق لليلة المولد ، لأداء الشعائر المعتادة ، شعائر الدوسة . ولما تنهى صلاة الصبح والأدعية يغادر المسجد لكي يتجه على ظهر جواده إلى منزل الشيخ البكرى سيخ جميع طرق الدراويش في مصر . وهذا المنزل يقع في جنوب ميدان الأذربكية في مواجهة البيت الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية . وأثناء قيامه بهذا المشوار يتبعه جمع من الدراويش السعدية من مختلف أنحاء البلاد والشيخ هو رجل مسن ذو لحية بيضاء وبنيان جميل وملامح طيبة تدل على الذكاء . وفي اليوم الذي نتحدث عنه يرتدى الشيخ معطفًا أبيض وقاوونا (أى غطاء رأس مبطن ومغطى بالصوف) . أما عمامته المصنوعة من قماش موصلى فهي خضراء في لون الزيتون القاتم الذى يصعب تمييزه من الأسود ، وعليها رباط من الموصلى (الموسلين) الأبيض يعبر جبهته بشكل مائل . والحصان الذى يركبه من حجم متوسط ووزن عادى . وسوف نرى الآن لأى سبب أبدينا هذه الملاحظة .

ودخل الشيخ إلى بركة الأذربكية يسبقه موكب كبير من الدراويش الذين يعملون تحت رئاسته . وعلى مسافة قليلة من بيت الشيخ البكرى توقف الموكب وأتى عدد كبير من الدراويش وغيرهم . ولم نستطع عددهم ولكنهم كانوا بلا شك أكثر من ستين شخصا انبطحوا على بطونهم على الطريق أمام خطوات الحصان الذى يركبه الشيخ . واصطفوا الواحد بجوار

الآخر بحيث يكونون على أكبر قدر ممكن من التقارب وقد فردوا سيقانهم وسندوا جباههم على أذرعهم المعقودة وهم يترغون بلا توقف بكلمة : « الله » ! ثم أخذ اثنا عشر درويشا أو يزيدون يعمرون على ظهور زملائهم الراقدين ، وبعضهم يقرع الطبول الصغيرة التي يمسكون بها بيدهم اليسرى وهم يصيحون : « الله » . وحينئذ اقترب الشيخ ، وتردد حصانه لبضع دقائق في وضع قدمه على أول هؤلاء الرجال المتمددين في طريقه . ولكن لما دفع من الحلف زال عنه التردد ، ودون خوف ظاهر بدأ السير بخطوة عالية مر عليهم جميعا يقوده رجلان يمسك به كل منهما من ناحية ويجرى أحدهما على أقدام الراقدين والآخر على رءوسهم . وللتو بدرت صيحة طويلة من المشاهدين :

« لا إله إلا الله ! » فإن أحداً من هؤلاء الرجال الذين داستهم أقدام الحصان ومن يتولون قيادته لم يصب بسوء . وكان كل منهم ينهض في قفزة واحدة . بمجرد أن يمر الحصان فوقه وينضم إلى الموكب الذي يتبع الشيخ . لقد تحمل كل منهم خطوتين من خطوات الحصان إحداهما من إحدى القدمين الأماميتين والأخرى من إحدى القدمين الخلفيتين دون أن ننسى خطوات من يقودون الحصان . ويقال إن هؤلاء الناس وكذلك الشيخ نفسه يرددون بعض الأدعية وبعض الدعوات في اليوم السابق حتى لا تحدث أى مجازفة في هذا الاحتفال وينهض الجميع سالمين وقد بلغت الجراة ببعضهم إلى حد الاشتراك في هذا الاحتفال دون أن يكونوا أعدوا مسبقاً لذلك . وقد حدث في مرات عديدة أن قتلوا أو شوهوا تشويهاً

شديداً . ويعتبر نجاح هذا الاحتفال الدينى معجزة تحققها قوة خارقة
نسب على التوالى لكل شيخ من مشايخ السعدية^(٧٥)

ومن عادات بعض مشايخ الطريقة السعدية فى هذه المناسبة أن
يأكلوا الثعابين الحية أمام جمع مختار فى منزل الشيخ البكرى نفسه . إلا
أن الشيخ الحالى قد اعترض أخيراً على هذه العادة فى العاصمة وأعلن أنها
ممارسة مقرزة ومعارضة للدين الذى يعد الزواحف من الحيوانات التى لا
ينبغى أكلها . ومع ذلك فإن السعديين قد أكلوا كثيراً من الثعابين
والعقارب أثناء رحلتنا الأولى فى هذه الجهة . ونضيف أنهم يقتلعون أسنان
الثعبان التى تحتوى على السم فيصبح الحيوان عاجزاً عن العض فتثقب
شفته وينفذ منها حبل من الحرير يربطها معاً . ويستبدل الحبل الحريرى
بجلقتين من الفضة إذا أخذ الثعبان لعرضه فى الموكب .

وحين يأكل أحد السعديين لحم الثعبان الحى فإنه يأخذه نوع من
الارهاص ، أو لعله يدعى ذلك . فيرتكز بقوة بطرف أصبعه على ظهر هذا
الحيوان الزاحف على بعد بوصتين من الرأس تقريباً ولا يأكل إلا المكان
الذى ارتكز عليه أى ما يكفى لثلاث قضبات أو أربع . أما بقية الجسم فيلقى
به .

(٧٥) يقال إن ثاى شيخ السعدية (وهو الذى تأسس هذه الطريقة مباشرة) قد جرى
بمصانه على كومة من القطع الزجاجية دون أن تتكسر قطعة واحدة منها .

ومع ذلك فقد يتعرضون أحيانا لخطر الثعابين حتى ولو كانوا من السعديين . وقد قصوا علينا أنه منذ عدة سنوات ، عن لأحد الدراويش من هذه الطريقة ، وكانوا يسمونه الفيل لضخامة جسمه وقوته العضلية ، وكان أشهر آكلي الثعابين في زمنه . وفي كل زمن ، عن له أن يستأنس ثعبانا من نوع سام للغاية جلب من الصحراء . فوضع هذا الزاحف في سلة واحتفظ به أياما عديدة لكي يضعفه . ثم أراد أن يمسه ليتزع له أسنانه فد يده إلى السلة فشعر بالثعبان يعضه في أصبعه الابهام . فطلب النجدة ولكن لما لم يكن بالمتزل إلا امرأة خافت أن تهرع إليه فقد خر بعد بضعة دقائق دون أن يهب أحد لمساعدته . وحين حضروا إليه كان ذراعه كله قد أصبح أسود وملتها ومات الرجل بعد بضعة ساعات .

ص ٧٥٠

الملاحظة القادمة ، المستقاه من جريدة القسطنطينية ، تثبت أن ثمة تقدم في صالحي الفنون يتم بشكل ملحوظ بين عام وآخر :

«وكم من أحكام مسبقة قد تم القضاء عليها فيما يختص بالرسم وهو فن يمارسه الكثير من التلاميذ بنجاح كما يشهد بذلك معرض متنوع للمصورات والرسوم المائية والمناظر ألخ ... وقد لاحظنا منظرًا للكوبيري الجديد Lapant wey في باريس أخذ من الافريز الذي يوجد به تمثال هنري الرابع بحيث يمكننا رؤية منظر الأرصفة ومتحف اللوفر حتى التويلري . وقد قام بتنفيذ المنظر تحسين أفندي من جلالات وهو تلميذ في

الصف الرابع . وكذلك رأينا منظراً للتويلرى أخذ من الحوض الكبير مع
مسلة الأقصر فى الحلقية ، وقد قام بتنفيذه عبد الله أفندى ، وكذلك منظر
شلالات سان كلو للشخص نفسه .

ص ٧٥٣

أما فيما يختص برسم الزخارف والذوق وتناسق الأشكال العربية
فأنت تعرف تفوق الأتراك فى هذا الصدد . إن نافورة توبانا الجميلة التى
نلاحظها فى رسوم روجبيه^(٧٦) قد تكون ذات فائدة لقرائك حول عبقرية
الزخرفة فى القسطنطينية .

خطاب عمرو

لن تكون ثمة طريقة أفضل لختام هذه الملاحظات حول مصر
المعاصرة من ذكر الخطاب الرائع الذى كتبه عمرو بن العاص إلى الخليفة
عمر أيام غزو المسلمين لهذا البلد وهذا التفصيل يتيح لنا أن نثبت نقطة
تاريخية يبدو أنها حيرت الكثير من العلماء . فقد وقع مسيو أمبير الابن ،
الذى نشر منذ وقت قريب بحثاً هاماً حول مصر ، وقع فى الخطأ المشترك

(٧٦) أبوم تركيا . سلم قوب - هانيه .

الذى يفترض أن الخليفة عمر قد قام هو نفسه بحصار الاسكندرية . وسوف نرى فى الأحداث التالية أن قائده عمرو هو الذى كلف بهذه الحملة . وقد حافظنا هنا على الأسلوب القديم لمستشرق قديم هو بير قاتيه الذى ينقل الأسلوب العربى بطريقة تدعو للإعجاب .

هذا هو الخطاب الذى كتبه أمير المؤمنين عمر إلى عمرو « إن اللغة الفرنسية لا تحسن نقل الحروف الساكنة العربية)

« من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : السلام عليك يا عمرو ورحمة الله وبركاته وعلى المسلمين أجمعين . وبعد فإني أحمد الله على نعمه التى أولاك إياها ، لا إله إلا هو ، أسأله أن يبارك محمداً وآله . علمت يا عمرو ، من التقرير الذى قدم إلى أن الولاية التى تحكمها جميلة وقوية وحسنة الزرع والنسل ، وأن الفراعة والعمالة قد حكموها وانجزوا بها أعمالاً رائعة وأشياء ممتازة وأنهم عرضوا بها دلائل عظمتهم وعليانهم . وهم يتصورون أنهم خالدون يأخذون دون حساب . ومع ذلك فقد أقرك الله فى بيوتهم ووضع تحت سلطانك أموالهم وعبيدهم وأطفالهم وجعلك وارثاً لأراضيهم فالشكر له والحمد له وإليه يعود الفضل والمجد . وحين تقرأ خطاى هذا اكتب لى عن صفات مصر الخاصة سواء عن أرضها أو بحرها ، واجعلنى أعرفها كما لو كنت قد رأيتها بنفسى » .

وحيث تلقى عمرو هذا الخطاب ورأى محتوياته رد على عمرو بادئا خطابه بالعبارة التالية : « من عبد الله عمرو بن .. وحين قرأ أمير المؤمنين

عمر خطاب عمرو ، كما يقول الكاتب ، قال : « لقد أحسن في وصف أرض مصر وما يثول إليها ، لقد أحسن وصفها لدرجة أنه لا ينكرها إلا من لا يستطيعون معرفة الأشياء . الحمد لله معشر المسلمين على النعم التي أولاكم إياها فلكم مصر وغيرها من البلاد . إنه هو الذي يجب أن نطلب منه العون » .

فهرس

٣	الوضع الاجتهادى للنساء
١٠	الحياة الخاصة فى القاهرة
٣٢	حفلات عاصمة
٣٧	والصاى مصر
٤٣	المشوفين
٥١	منازل القاهرة
٦١	مراسم الجنائزات
٧٠	سكان مصر
٧٢	ملحق (١) والفنون لدى الشرقيين
٨١	عطاب عمرو
٨٥	ديانة الدروز
١٠١	أسطورة سليمان
١٠٨	على هامش رحلة إلى الشرق
١١٠	ديوراما
١١٧	رسالة إلى تيوفيل جوييه
١٢٨	ذكريات من الشرق
	ابراهيم باشا ابن محمد على

١٣٠	كم من الفترات توجد في هذا الخبر البسيط.....
١٣٣	الحلاقون الأتراك وحواليهم.....
١٣٧	ذكرى من شبرا (القاهرة) ..
١٤٤	مذكرات رحلة إلى الشرق (مقتطفات).....
١٤٩	اختيار لبعض النصوص القصيرة.....
١٥٠	مقدمة - بحر الشرق
١٦٨	الحب في ليبيا.....
١٧٥	هنري دى برعجاس.....
١٧٨	بقية المذكرات.....
١٩٢	سان ليكولو.....
١٩٩	الماضي والمستقبل
٢٠٧	مذكرة خاصة بالخاتمة
٢٠٨	نهاية رحلة إلى الشرق
٢٢٢	ملحق (١) عادات المصريين القدماء.....
٢٤٨	عيد محمد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٦١٢

١ - ١٨٩٣ - ٠١ - ٩٧٧ ISBN

هذا الكتاب يعرض وجهة نظر غربية لفترة من فترات تاريخنا المعاصر . . فمن خلال مشاهد من الحياة الشرقية ، يتناول الكتاب الوضع الاجتماعى للنساء فى هذه الفترة ، والحياة الخاصة فى القاهرة من خلال حفلاتها ، ومراسم الجنائزات وذكريات عن بعض أحياء القاهرة ، والعادات والتقاليد السائدة فى هذه الفترة التاريخية .